وثالثهما الفنجان

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 8152 / 2020

الترقيم الدولي: 3 – 483 – 838 – 977 – 978

الكتاب: وثالثهما الفنجان

المؤلف: محمود شامي

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

النخبة للنشر والطباعة والتوزيع

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

وثالثهما الفنجان

رواية

محمود شامي

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

إهداء

أهدي روايتي هذه إلى مهبط رأسي «مدينة طيعو» أو كما يحلو لنا تسميتها «مدينة الشيخ ابراهيم الخليل»، التي شهدت ولادتي وأول عامين من حياتي، ولم أعد إليها بعد ذلك البتة، ومع ذلك لم تفارق روحها روحي يومًا واحدًا لا أحمل نظام الحكم في وطني أسباب ذلك أو غيره في اللا عودة إليها، نعم كان نظام بلدي سببا في اللا عودة إلى مهبط رأسي رفقة أسباب أخرى منها أنا ، فأنا شريك معاناتي هذه لا إراديًا..

محمود شامي

عبق الأمكنة

البارحة غادرتُ أقداري مجبرًا، واليوم كان قدري أن أرحلَ إلى قدرٍ آخر رتَّبه لي قدري الآخر.

واليوم أيضًا ودعتُ الجميعَ وغادرتُ، وقبيل الإقلاع وفي الأجواء أعتراني شعورٌ غريب، كان شعوري تلك اللحظات، أن أحملَ الحزنَ مع الفرحِ وأذرفَ الدموعَ وأنا أمتطي تلك الطائرة العجيبة، والتي تمتهن دومًا فنون التناقض، ودائمًا تحترف مهنتي الوداع واللقاء، وكانت دائمًا تقلعني، وتزرعني.. تبعدني، وتقربني.. تخطفني، وتعيدني.. تبعثرني، وتلملمني.. كنتُ فرحًا بالعودة، وابتسمُ بخجلٍ، وأحسُّ بألمِ الفقد والفراق تارةً، ولهفة الشوق تارةً أخرى...

وأوطاني أودِّعُها

ونارُ البعد تحرقني

بعد فراق أقداري ومن أحببتُ في وطني

أحسُّ بلوعة الأشواق... تغمرني

قبيل لقاء أقداري في داري وفي وطني...

وبعدما هبطتْ طائرتي في مدرج مصيري الرسمي أحسست حينها أيضًا بالشوق والحنين لواقع الأمس واليوم معًا.

فصار الشوقُ شوقين

ونارُ الغربة اثنين

ومعه تمنيتُ المستحيلَ وأن أجمعَ كلَّ تلك الأوطان في مكانٍ واحدٍ، ومكانٍ آخرَ محايدٍ، وأعيش معها في ذلك المكان، محاولًا تغيير الواقع، والتمرد على سنن الكون والطبيعة، وكان وهمًا وجنونًا، وكان ذلك مرادي. وكنتُ في السابق وفيما مضى من سنين أمنِّي نفسي، وأقول:

إن مصيرنا العودة

مصير الحي يتلاقى..

ولَكِنِّي اليوم تأكدت أنني كنتُ مخدوعًا وواهمًا:

لأنَّي لن أعود لهم

محال مجيئهم قطعًا..

محال أن أعيدَ الوهم

جنون حلم ماضينا

كانت عودتي وزيارتي إلى مسقط رأسي، نهاية البداية لقصتي مع الأوطان، والأحلام، والأوهام، وانتهت بدايتي تلك أيضًا هناك بوصولي ولقائي بوطنٍ ثالثٍ قيَّدني، وفي ذات الوقت حرَّرني، هو وطنٌ آخر رفيقُ وطنين آخرين لي أنا، ولم أستطع دخولهما واللحاق بهما.

وربما جاء وطني الأخير هذا بدعاء أمي وهِبة سماوية، وجاء كذلك ليخلع عني ثوب وطنين غادراني ولم يستطيعا احتوائي، ولم يستطع ثوبهما حمايتي من قساوة الطقس في سطحي وأعماقي.

وجاء وطني الثالث ليلبسني رداءً آخر يناسبني، ويقيني برودةَ شتائي القارس، وسخونةَ صيفي الحار، وسلَّمت له يدي، ونفسي، وأمري طواعيةً، وساعده على ذلك وصولي إلى محطةٍ تشبه نقطة النهاية من رحلة سباق «ماراثوني» طويل وشاق.

فأنا كنت أخوض ولسنين طويلة غمار سباقٍ «ماراثوني» لا نهاية له، وليس له ولرحلتي نقطة وصول، ومعه خارت قواي، وأنهكني التعب، ولا أمل لرحلتي سوى التوقف في نقطةٍ اختيارية، وهمية، عشوائية.

وفي وطن اخترته رفقة قدري، كان عليَّ أن أختار تلك النقطة وأقف فيها مغمض العينين، فلا مناص ولا حلَّ لي سوى أن أرفع رايتي البيضاء فيها.

وعليَّ اليوم أن أقنع بنصيبي وقسمتي وبوطنٍ اخترته واختارني، وسأعيشه ويعيشني، وعليَّ كذلك أن أخلصَ له، وأعشقه، وأزرع فيه أمنياتي وورودي.

وفي النهاية اعتنقتُ اليوم وعن قناعةٍ قدري الثالث، ووجدتُ فيه اليوم أيضًا سكونًا، وهدوءًا، وطمأنينة، فالقناعة كنزٌ لا يفنى.

حدث كل ذلك، وولوجي إلى عالمي الجديد بعد سفري من «ميلبورن» في أستراليا، وزيارتي الأولى لوطني مسقط رأسي.

رنَّ جرس الشوق والحنين، آه من حنيني! وآه من ألمه وبؤسه وشقائه! وآه من تداخله، وتعقيداته، وتناقضاته! وآه من سؤالٍ سهلٍ وصعبٍ، وبسيطٍ ومعقدٍ في آن واحد!

ومن أيِّ بلدٍ أنتَ؟ ما هو وطنُكَ؟ ولمن تحنُّ؟ وإلى أين؟ وإلى متى؟

آه من عار صمتي وعجزي وهروبي من الإجابة عليه! ومن غرابة أجوبتي المتعددة والمتناقضة، والتي أملكها لأزمنةٍ وأمكنةٍ مختلفة، وتملكني!

هو حنينٌ يستوطن ذاكرتي، وقلبي، وأوردتي، وشراييني، إلى وطني مسقط رأسي، وجسدي، وحيي، وأسرتي، وكل أحبتي به.

وإلى وطني الخلفي ومهبط روحي، وإلى مدينتي البحرية، وأهلي، وأحبتي، ورفاقي فيه، وإلى أوطانٍ أخرى فرعية لها مكانها ومكانتها، وذكراها الخاصة، وعطرها المميز.

الحنين إلى فنجان قهوتي، ومقهى «سنايت» في «طيعو»، ومقهى «ميمي» الليلي بـ«أرحبا»، والحنين إلى جزيرة «بكع» وأهلها الطيبين وإلى صفائي البحر والذهن هناك، والحنين إلى عودتين غير ممكنتين، ومحرمتين، وإلى (عائشة)، و(إستير).

***

كنت أعيشُ كلَّ هذه التناقضات العجيبة وأنا على متن الخطوط الجوية الإثيوبية وفي طريق عودتي من «ميلبورن» أستراليا إلى مسقط رأسي جيبوتي، بعد غياب عشرة أعوامٍ عنها، قضيتُ سبعةَ أعوامٍ منها في «طيعو» إريتريا، و ثلاثَ سنواتٍ في أستراليا.

وأنا عائدٌ إلى وطنٍ أعشقُ كلَّ أشيائه وكلَّ ما فيه ومَنْ فيه، إلى جيبوتي جيبوتي.

وعائدٌ كذلك إلى مكانٍ أشمُّ منه رائحة بلدي الأصلي إريتريا، هي وطني شريك وطني، وربما وطن يسكنني عشقته دون سابق معرفة أو إنذار، وربما أخرجت مدينة «طيعو» ومقهى «سنايت» هذا العشق إلى السطح.

وصلتُ إلى جيبوتي في الثالث من ديسمبر عام 2018 قادمًا من أستراليا، مع انقضاء تسع ساعات «ترانزيت أو «اسكال» قضيتها بمطار «أديس أبابا»، في صالة الانتظار بالطابق العلوي، أتنقلُ بينها وبين «الكافتيريا» في الطابق الأرضي.

أول ما لفت انتباهي هي صور رئيس إثيوبيا الجديد أو رئيس وزراء إثيوبيا الشاب الدكتور (أبيي أحمد)، كنتُ أتابعُ أخباره وأخبار المنطقة بشغفٍ ودهشة منذ توليه السلطة قبل شهورٍ عدة، أعجبتُ جدًا بأسلوب هذا الرجل، فهو يشبه الرئيس الأمريكي السابق (باراك أوباما) في كلِّ شيءٍ، في خطاباته الحماسية، وفي مشيته، وفي أنهما مسيحيان من أبٍ مسلمٍ وأمٍّ مسيحيةٍ، وكلاهما ينادي بالتغيير أيضًا. الدكتور (أبيي أحمد) هو (أوباما) إثيوبيا، وربما كان (أوباما) هو (أبيي أحمد)!

لفت انتباهي في مطار «أديس أبابا» أيضا وأنا في كافتيريا المطار وجود وفدٍ إريتري شبه رسمي قَدِمَ من «أسمرة»، يضمُ بعضَ القيادات الحزبية وفرقًا فنيةً غنائيةً مسرحيةً وثقافيةً.

ولفت انتباهي كثرةُ الأعلام الإرتيرية، كان يحملها البعضُ مع أعلامٍ إثيوبية في الطابق الأرضي للمطار، وترفرف تلك الأعلام في سماء مطار «أديس أبابا».

تحدثتُ مع بعضهم على عجلٍ في «كافتيريا» المطار، وكانت الفرحةُ باديةً على وجوههم، كانت معهم وبرفقتهم وضمن الوفد الإرتيري شابةٌ تعيشُ حالاتٍ مركبةً، ومتناقضةً، فرحًا، وقلقًا، وحزنًا، تجلسُ ثم تقوم من مقعدها بسرعة، وتعودُ ثانيةً إليه وتجلس، كأنَّها تريد أن تطيرَ من شدة الفرح، وابتسامةٌ عريضةٌ على مُحيَّاها ودموعٌ في عينيها، ومشاعرُ فرحٍ مرسومة على وجهها.

حيَّيتها وحيَّتني، وسألتها بفضول...

كانت إرتيرية من العاصمة «أسمرة»، ووالدتها إثيوبية تقيم في العاصمة «أديس أبابا»، افترقتا عن بعضهما البعض في عام 1998 بداية الأزمة بين إريتريا وإثيوبيا، ومنذ ذلك العام لم يلتقيا نهائيًا.

رحماك يا الله! أمٌّ وفلذة كبدها، على بعد مرمى حجر، وعلى مدى عشرين عامًا لم يتمكنا من الوصول لبعضهما.

هي مأساة أخرى وحرمان آخر نعيشه، لها الله ولنا الله! ويلتقيان اليوم بعد اتفاقية السلام التي جلبها الدكتور (أبيي)، وهذه الاتفاقية

كانت سببًا في عودة المياه إلى مجاريها بين أمٍّ إثيوبية وابنتها الإرتيرية بعد كلِّ تلك السنين، حيث كان عمرها وقت افتراقهما خمسة أعوام..

ولفت انتباهي أيضا استقبال إثيوبي رسميٍّ حار للوفد الإريتيري، مع وجود إثيوبيين عائدين من «أسمرة» على متن نفس الرحلة، كانت رحلة ثالثة ربما بعد استئناف الخطوط الجوية الإثيوبية لرحلاتها لـ»أسمرة»، وكان معبر ميناء «عصب» الإريتيري مفتوحًا.

سبحان الله، كلُّ شيءٍ تغيَّر وتمَّ سريعًا وانتهى الصراع الإرتيري الإثيوبي سريعًا، وطُويت صفحة الخلافات بين البلدين، وإريتريا لا تغيير! لم يشهد وطني الحبيب في الداخل تغييرًا يُذكر، كلُّ شيءٍ فيه كما تركته منذ ثلاثِ سنواتٍ، حتى فناجين قهوتنا كانت مقلوبة...

آه (سنايت)! أين عساكِ تكونين الليلة وفي هذه اللحظات؟

وآه أنتَ يا وطني! وكيف وأين عساكَ تكون الليلة؟ وأين أوصلكَ خاطفوك؟

هل نحن مَنْ غادركَ يا وطني، أم أنت مَنْ غادرتنا؟

وأعادني إليكَ الليلة يا وطني وإلى (سنايت)، نغمٌ كان ضمن رسائل صديقي (ماجد) الكثيرة لي من أستراليا على «الواتس آب».

لا أعرف كيف استوقفني ذلك النغمُ من كلِّ رسائله الجمَّة، ومن صورٍ، ومقاطعِ فيديو، وغيرها.

ربما كنتُ بحاجةٍ إليه الليلة أكثر من أي وقت مضى، وربما وصل الليلة مؤشرُ حوجتي، وحرماني، وحنيني إليكما معدله القياسي أو قمته.

كان ذلك بعد أسبوعين من وصولي إلى مسقط رأسي، وبعدما ارتشفتُ قليلًا من فناجين الحنان ودفء المشاعر، وبعدما هدأتْ قليلًا عاصفةُ حنيني وشوقي لأهلي، وأحبتي، وحيي في وطني مسقط رأسي، وجاء ذلك النغمُ ليعيدني إلى مربع الحرمان مجددًا، وإلى الخواء من الحنان مجددًا إلى (سنايت) ووطني الخلفي والمنسي، كان النغم خليجيًّا يحمل الشجن والشوق، للفنان نبيل شعيل وأغنية «أنا منساك»:

أنا منساك لو تنسى

ولو طوِّل علي بعدك

عساك أنت بخير

ووقفت على هذه الجملة:

«عساك أنت بخير»

وعلقتْ برأسي للحظات، ورددها لساني أكثر من مرةٍ في محاولةٍ منه لإشراك قلبي، ووجداني، وأحاسيسي، وتفاعل كلُّ هؤلاء آليًّا ورددوا أيضًا:

«عسااااك أنت بخيييير»

وهل عساكما بخير فعلًا وأنتما تمران بمعاناةٍ استثنائية؟

فأنتما لا تشتكيان أبدًا، خُلقتما لتموتا ونحيا نحن، أنتما أشبه بشمعتين تحترقان لتنيرا دروبنا.

بسببنا أَفَلَتْ (سنايت) واختفت، وبسببها نجونا ورحلنا، أنا، و(قعص)، و(سميرة)، و(إستير)، و(عبده ورسما)، و(كيداني)، وأربعة وعشرون شخصًا آخر.

بمساعدة (سنايت) لنا حققنا أمنيتنا في الفرار من وطني الخلفي، نتيجة ما يعانيه ويعيشه، وهو وطن تعرَّفتُ عليه شخصيًّا في مدينة «طيعو» وبمقهى «سنايت»، علمني (قعص)، و(عبده)، و(سنايت) في ذلك المقهى مادة التربية الوطنية، وأبجديات علوم الوطن، سبع سنوات وأنا أدرسها صباحَ مساءَ في ذلك المكان، وتناوبت (سنايت) و(قعص) بمنحي وإعطائي دروسًا في علوم الوطن.

حكت لي (سنايت) و(قعص) عن ذلك الوطن الذي ظهر واختفى فجأة دونما إشعارٍ، ذلك الحلم الذي تحول سريعًا إلى كابوسٍ مرعب، بأنَّه كان شعرًا ونثرًا، ثم برقًا وسيفًا. وبأنَّه كان بالأمس أنشودةً ونغمًا حالمًا رائعًا، وصار اليوم صراخًا، وبوقَ أحزانٍ وناقوسَ خطرٍ.

وطنٌ قيل في حقه الكثير من أمنيات وأحلام لامست سقف السماء:

يا وردة يعشقها أحبتي

يا جنة عشت بها طفولتي

ما زلتَ في دفاتري قصيدة

وفي ظلال أعيني كشمعة جميلة

ما زلت مثل وردة الربيع يا وحيدة

(شاعر إريتري ثائر)

ليته عاش خيالًا عذبًا، ومات حلمًا جميلًا في ذاكرتنا. ليته لم يظهر أو ليته لم يختفِ بهذا السيناريو العجيب.

لو كان كاتب هذه القصيدة حيًّا اليوم، لانفجر في وجه الوطن أو لانتحر في وطنه، أو لأحرق قصيدته، وأطفأ شمعته، وسحب وروده، واستبدل بالربيع خريفًا أصلعَ.

هذه الأبيات لا تصلح لهذا الوطن وبحالته الآن، من المؤكد أنها كانت لوطن الأحلام، أمَّا الوطن الحقيقي لم يكن سوى العكس تمامًا أو كان أسوأ من الجحيم.

هل كل هذا الكلام الأكثر من رائع والكبير قيل لوطن يعيش حالة ضياع ووهن طيلة سبعة وعشرين عامًا؟! ويعاني فيه المواطن معاناة لا يستطيع وصفها، وشرحها، ونقلها للعالم أحدٌ، ووطنٌ عانى فيه شعبه وهو يحاول الهرب منه آلامَ المخاضِ وواجهوا الموت وجهًا لوجه، مات من مات ونجا من نجَّاه الله، وهو يعيش كذلك في الشتات حياة تضاهي تلك الحياة التي يعيشها المواطن في الداخل.

لا شيء ينصف هذا الوطن، فمن كان يفترض تخليصه صار «يخَلِّص عليه» ويتفنن في تمزيق أوصاله، ومن ثم إلى تمليحه، وتجفيفه، وعرضه للبيع مملحًا مجففًا في أسواق النخاسة.

الشعبيةُ أفقدتنا الذائقةَ في كلِّ شيءٍ بعد أسرها للوطن، كانت حسنتها الوحيدة أنَّها تركت لنا (سنايت) ومقهاها فقط. فكانت (سنايت) نصفَ وطنٍ ونصفَ حياةٍ، كانت هي نصف كلِّ شيءٍ جميل في هذا الوطن، فهي نصف وردة، ونصف جنة، ونصف قصيدة، ونصف شمعة.

في ظلِّ وجود كل مساوئ وسيئات الشعبية استطاعت (سنايت) أن تحتوي بصدرها بعض تلك المساوئ والسيئات، وتحمينا لسبع سنوات، ربما كانت مثل ذلك الطائر الذي يحاول إخفاء بيضه أو صغاره عندما يجلس فوقهم، ويفرش ريشه على الأرض حتى لا يراهم أحد، كانت تفعل ذلك كل تلك الفترة وكل تلك السنوات، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي قُصَّ فيه ريش طائرنا، حتى لا يستطيع حماية صغاره أو حمايتنا، وبخطف (سنايت) أيضًا فقدنا الذائقةَ في كلِّ شيءٍ..

آه (سنايت)!

كانت (سنايت) مبدعةً ومقنعةً في كلِّ شيءٍ ومقبولةً من الجميع، كانت مثل الروايةِ عملٍ إبداعي مختلفٍ، ومميزٍ مقنعٍ، ومقبولٍ من الجميع.

أقصدُ أنَّها كانت تلبِّي مثل الرواية الجيدة قناعة لهذا في جزئية، ولذاك المختلف معه إعجابًا في جزئية أخرى، كانت (سنايت) تلبِّي ذائقةَ الشهية للبعض مثلي بطبق «الزقني»، وتلبِّي ذائقةَ الكيف للبعض مثل (قعص) بقهوة تعدها بطريقة تقليدية وبإتقانِ محترفٍ خبير، وتلبِّي ذوائق أخرى مختلفة ومتعددة وللجميع، وربما كانت مثل الرواية مرفوضة أحيانًا من البعض الذين لا يحبون الاختلاف والتنوع، وبعضهم التقليدي المتحجر، وبعضهم الذين لا يحبون التناقض والتناغم..

كانت (سنايت) ترحب بهذا وذاك، وترحب بالرافض لها أيضًا؛ لأنها تدرك معنى الرفض ومعنى القبول، وأنَّها مثل الرواية نرفضها بعد قراءتنا لها، فهي مثل روايةٍ مبدعةٍ نعلن رفضنا لها ونرفض تركها والانفصال عنها، ونعيشها وإن كانت رواية تهاجمنا.

كانت (سنايت) مقصدًا للجميع يقصدها اليمين واليسار، العسكري والمدني، والمؤيد والمعارض، تجامل هذا، وتلاطف هذا، وتماشي ذاك على قدر عقله.

(سنايت) وراوي تلك الرواية الإبداعية مِثل مُعلِّقٍ أمينٍ، مهنيٍّ، ومحترفٍ، وهو ينقل لنا أحداث المباراة بأمانة، وهي كذلك مثل ناقل المناظرات الشعرية الذي ينقل ما قاله هذا أو ذاك دون أن يزيد حرفًا من عنده، أو ينقص كلمة من هذا أو ذاك، ويظهر حجتين متناقضتين، وإذا كانت سياسية أو غيرها فهو يعكس للجمهور وجهتي نظر المتباريين بحيادية، وبحرفية، وبتصوير عالي الجودة، وبأبيات شعرية منقولة، كانت كروايةٍ مبدعة وكناقلٍ منصف وحكمٍ مسئولٍ، وليس طرفًا في القضية وميالًا لها، لأنه لو مارس وفعل ذلك سيكون كمن يحاول أن يسلب سيف هذا ويمنحه لذاك أو العكس.

والراوي، والمعلِّق، والناقل، مثلهم مثل حكم أمين يُفترض أن يكون منصفًا، وعادلًا، ومتجردًا عن العاطفة لحظة أداء مهمته، لا

مبرر له سوى ألَّا يغدوَ ملعونًا ويُكَنَّى بفاشلٍ لو منح هدفًا أو تغاضى عن ضربة جزاء لصالح فريق يميل إليه.

وتعرفت كذلك رفقة الوطن في «طيعو» على أشياء مهمة مفيدة، وأخرى رائعة مدهشة وغالية، تعرفت في بدايات قدومي على جارتي (عائشة) التي كانت تشاركني غربة الروح، قدمتْ إلى «طيعو» قبل ثلاث سنوات من قدومنا إليها، وقدمت من مسقط رأسي ورأسها، ومن وطنٍ آخر اقتسم هنا مع (عائشة) وحدها ذاكرته، وذكرياته، واهتمامه، وقلبًا، ووجدانًا يحمل عشقه وهمَّه، ودون أن يؤذي ذلك، أو يزيح عشقنا الآخر لوطنٍ خلفيٍّ يحتضننا اليوم في ربوعه.

كانت (عائشة) مذهلةً للغاية ومدهشةً في كلِّ شيءٍ، ووطنًا آخر انفرادي وشخصي، استلمت (عائشة) ووطني الآخر أحاسيسي ومشاعري المفلتة، والمتمردة، والحساسة كذلك.

كان ذلك بعد أسابيع قليلة فقط من وصولي إلى «طيعو»، وأعجبتُ بهذه الشابة منذ أن رأيتها، وفي أول ظهور لها في حياتي جمعني بها فنجانُ قهوةٍ كانت تعده لي ولنا بنت عمتي (صالحة)، في بيتنا رفقة ابن عمي وصديقي (قعص) وآخرين.

وحاولت ذات مرة في ذلك الزمن، أن أترجم لها إعجابي وأفاتحها بما يدور في خَلَدي وبرأسي، وما أشعر به، ومنعتني حينها

أمورٌ صعبةٌ ومركبةٌ من مفاتحتها والاقتراب منها، وأعاق ذلك حلمي ومشاعري، وربما أعاقت بعض تلك الأمور مشاعرها التي خلتها تتقاطع مع حلمي، وتأكدت من شعورها مع مرور الوقت.

كانت صديقة أختي وابنة عمتي (صالحة)، وجارة يفترض عليَّ حمايتها، واحترام قناعات وخيار أهلها التي عاكست حلمي تمامًا، فكانت «محجوزة» منذ وقتٍ مبكر جدًا لابن خالها، ومرتبطة عرفيًا بذلك الشخص.

ولذا كان عليَّ أن أحتفظَ بخيبتي في نفسي وداخلي، دون أن أخبرَ أحدًا بذلك الإعجاب والانجذاب، الذي كان قد اختمر وتحول إلى وجع يعشعشُ في دواخلي ويستقر في الأعماق، وبكل بساطة معقدة رحلتُ، واغتربتُ، وابتعدتُ عنها، كان ذلك صعبًا في البداية، فما تملكه هذه الشابة كان شيئًا محيرًا، يُحِلُّ كلَّ ما كان محرَّمًا ومحظورًا، ويحرِّم بالمقابل كل ما كان حلالًا. اعتلت (عائشة) في «طيعو» والمحيط صدارة ترتيب الجمال، وحضور الشخصية، والحياء الريفي الأصيل.

ومع ذلك اغتربت عن وطني الأول مرغمًا دون إرادة، ما ساعدني هو أنَّني رغم خيباتي المتعددة ورغم ضعفي الكبير، إلا أنَّني لا أغادر

المكان والزمان سريعًا، لا أرحل بسهولة، وبالمقابل لا أعود إلى الوراء ولا ألتفتُ إلى الخلف إذا غادرت، وإن كان ذلك الشيء غاليًا وثمينًا، وحتى إن كان وطنًا يعيشني.

وعدت إلى الخواء والفَلَتَان مجددًا، ومرت تلك الحادثة مخلِّفة لوجعٍ كبيرٍ لنا، لكنِّي حاولت نسيانه حتى لا أشعر بألمه، ووفقني الله في ذلك.

في رحلة حياتنا التي لا تتوقف، نرحل دائمًا من وطنٍ إلى وطنٍ آخر، ومن حلمٍ إلى حلمٍ، ومن ألمٍ إلى آخر جديد.

وتنتهي الأشياء لتبدأ بشكلٍ آخر وكيفية أخرى لتنتهي، وإن اختلفت طرقها وسيناريوهاتها، وهكذا.

كانت (عائشة) بداية حكايتي مع الأوطان، والأحلام، والآلام، وغدت (إستير) بداية كل تلك الأشياء، لتصبح سريعًا نهايتها.

(إستير) آخر رواية عشقي، وآخر فصل من فصول ألمي وحلمي.

تعرفت على (إستير) وطني الخلفي الآخر، في مقهى «سنايت» كان ذلك بعد سبع سنواتٍ من رحيل حلمي الأول، وبعد خمس سنواتٍ من عودة (عائشة) نهائيًا إلى موطننا مسقط رأسينا..

ومن المفارقات العجيبة أنَّني كنتُ دون أن أدري في رحلة البحث عن وطني الخلفي و(إستير)، وربما جئت إلى هنا من أجله، وقطعت

كلَّ هذه المسافات بحثًا عنه، ولم أدرِ كذلك أن (إستير) كانت تسكن معنا سبع سنواتٍ صباحَ مساء، وتصاحبني و(قعص) و(سنايت) سمرَ الليل وأنسَ الصباح، والعجيب أنها كانت تشرب معنا دومًا كلَّ فناجين القهوة التي ارتشفناها في مقهانا ذلك ودون أن أدري.

و«لمحاسن الصدف» أو الوجع أنَّني التقيتُ بضالتي (إستير) في أكثر من مناسبة.

بداية ظهورها كان مقهى «سنايت طيعو»، وظهرت مجددًا في جزيرة «بكع» وأخيرًا في فندق الإخوة بـ«الحديدة».

هل كان عليَّ أن أعودَ إلى كل تلك الأماكن التي جمعتني بها لاستعادتها؟ أم كان عليَّ أن أرحلَ إلى السودان حيث عادت إليها في النهاية في رحلة استئنافٍ لترتيب أمورها، وتوقفت رحلتها هناك؟

في النهاية (عائشة) و(إستير) كانتا مثل تلك القصائد، والنظم، والأغاني التي يكتبها الشعراء ويصدح بها المطربون في قصص أساطير عشقهم، وكأنهم يبحثون عن أطرافهم وعن أعضاءٍ من أجسادهم أكثر أهمية من أطراف جسدهم، وأشياء ثمينة مفقودة.

وشعرتُ في الأخير وأنا عائدٌ إلى وطني مسقط رأسي وإلى حيي بألم الفقد وبالخيبة والضياع، كنت رغم الفقد

على قناعةٍ تامة أن من أحببتها لم تبِعني لآدمي، وإنما اختارت شيئًا ثمينًا وغاليًا، ومن الأصالة أن يموت الإنسان فداءً للأهل والموروث، وصارت بذلك (عائشة) وقفًا للثوابت والأهل، و(إستير) كذلك لم تبِعني ولم تختَر رجلًا غيري، وإنما وهبت نفسها للربِّ واختارها القدر ليجعل منها قديسةً طاهرةً، وراهبةً عابدةً، لا يمكن لبشرٍ الوصول إلى جسدها، فصارت وقفًا للموروث العقدي.

تتقاطع حكايتنا مع حكايات أساطير العشق اللاتي ظهرن فجأة في حياة عشاقهن واختفت بطريقة غامضة ودراماتيكية محزنة، هل كانت من أحببتها هي الملاك «هيلا» «hela» وذلك الطيف الرقيق والنغم الشجي، وأغنية «هيلا» لأسطورة العفر الراحل الفنان عبد الله لي؟

هل كانت فعلًا ذلك الملاك المحير «هيلا» التي لا تشبه أحدًا، ولا تشبهها امرأة في حسنها، وجمالها، ورقتها، والتي تغنِّى، وغنى لها فنان العفر الراحل عبد الله لي رائعته «هيلا»!

وذهب في رحلة البحث عنها إلى كل مدن جيبوتي ومحيطها في عملية مسحٍ جغرافية واسعة النطاق غطَّت كلَّ شبرٍ في داخل وخارج جيبوتي، ذهب النغم باحثًا عنها إلى مدينة «تاجورا»،

و«رندا»، و«دخل»، وجبال «مبلا»، دون جدوى ودون أملٍ في الحصول عليها، ولم يكن لها أثرٌ في مدينة «علي صبيح» و«حيو»، ولم تكن في محيط جيبوتي لا في «عصب» الإرترية، ولا في «زيلع» الصومالية، ولا في «هرر» الإثيوبية أيضا، فعاد النغم وصاحبه بعد عملية البحث الشهيرة تلك إلى حيِّه منهكًا تعبًا يجر أذيال الخيبة.

أم هل كانت «فاطمة الزهراء» وتلك الفتاة «البجاوية» الرشيقة والساحرة للفنان الإرتيري الكبير والمبدع الأمين عبد اللطيف؟ والتي أغرم بها الفنان الراحل عندما رآها لأول مرةٍ في حفل عرسٍ دُعِيَ إليها، والتي أَلَّف وغنَّى لها الفنان في ذلك الحفل أغنية «فاطمة الزهراء» الشهيرة، والتي تعتبر بصدق واحدة من أروع أغاني الفنان الراحل عبد اللطيف لكل الأوقات. وذهب الراحل في رحلة البحث عنها وعمَّن تشبهها، إلى كل المدن والأقطار بدأ رحلته من أحياء «كرن» وإلى «مصوع»، و«أجردات»، و«كسلا»، ولم يجد من يشبهها حتى في رحلة البحث الشهيرة تلك، وذهب أيضًا في وصفها إلى حدودٍ بعيدة لا يقبلها العقل والمنطق، ووصل إلى حدِّ الجنون والإبداع في وصفها.

عمومًا لم يستطع كلُّ هؤلاء وجميعهم الحصول على ضالتهم، ولم يستطع أحدٌ من البشر مساعدة هؤلاء، ولم تنقل رسائلهم إلى معشوقاتهن، وماتوا جميعا بآلامهم وأوجاعهم.

ليتني تعبت وفشلت أنا كذلك من رحلة البحث عنها مثلهم منذ البداية، وليتني لم أجد من حلٍّ سوى أن أقتسم مع هؤلاء مرارة الألم والضياع من ظهورها الأول وجر أذيال الخيبة والفشل معهم منذ البداية، ليتني لا أعرف اليوم أماكن تواجدهما وليتني لم ألتقِ بهما ولم تتَح أمامي فرصًا متكررة لظهورِ طيفي الحالم.

فأنا أختلف مع كلِّ هؤلاء العشاق وحكايتي تختلف، وألمي مختلف، فأنا كنت محظوظًا وربما تعيسًا لأنني كنت دائمًا مع (عائشة) أراها صباحَ مساء وعلى مدار حولين كاملين، وقابلت (إستير) في محطةٍ أولى، ثم رحلت واختفت، لتظهر في محطةٍ أخرى واختفت كذلك، لتظهر أخيرًا في محطةٍ ثالثة واختفت في الأخير نهائيًا، لم يكن ولم يحدث كلُّ ذلك إلَّا ليضاعف تعبي، والشوق، والألم، اختفت (عائشة) رغم ظهورها المتكرر واختفت (إستير) رغم ظهورها في ثلاث محطاتٍ، وأعلنتا في النهاية عن اختفائهما رسميًّا، وكتبتا بخط يديهما وفي أسفل صفحتنا البيضاء «النهاية.. عائشة»

و«لا تبحث عني.. (إستير)».

تركت صديقي وابن عمي (قعص) في حي «فلامنجتون» الواقع في شمال «ميلبورن» ويقطن بذلك الحي مثل صديقي الكثير من الوافدين أمثالنا، وتقطن به أيضًا جلُّ الجاليات الإفريقية ومنها: الصومالية، والإرترية، والجيبوتية، والسودانية، وأخرى، لما يتوافر لديه من حياة تناسب معيشتهم، وما يتوافر لديه من سَكِنات وعمارات ذات الدخل المحدود والمدعمة من الحكومة الأسترالية وولاية «فكتوريا»، ويوجد في شمال «ميلبورن» مسجد، جلُّ القائمين عليه من الأشقاء الصوماليين. ويقطن بعضنا أو بعض الأفارقة منطقة «فوتسكري» التي لا تبعد كثيرًا عن حي «فلامنجتون»، وكنا نحرص في مناسبات عامة وعطلات الأسبوع على الالتحاق بمقاهي الأفارقة ومحلات صومالية، إريترية، جيبوتية، وإثيوبية في منطقة «فوتسكري»، ونقتني اللحوم الحمراء عادة من ملحمة «حلال» المتوفرة في تلك المنطقة، واشتقتُ إلى صديقي كثيرًا هذه الأيام، فهذه أول مرة نفترق فيها عن بعضنا منذ زمنٍ طويل، ففي الآونة الأخيرة كان صديقي (قعص) مشغولًا ومنشغلًا أيضا، ووقته ضيقًا ومزدحمًا، فهو إلى جانب عمله الرسمي منشغلٌ هذه الأيام بإدارة الجالية، ولجاليتنا الإريترية في مدينة «ميلبورن» حضورٌ كبيرٌ ومميز

وإسهاماتٌ كبيرةٌ فيما يخص بربط المواطن في المهجر بالوطن، ومد جسور التواصل بين الخارج والداخل، ومحاربة بناة المتاريس ومن يتفننون دومًا في صناعتها، واخْتِيرَ صديقي (قعص) قبل ستة أشهر، عضوًا في لجنة إدارة جاليتنا.

تقيم جاليتنا احتفالاتٍ في مناسبات وأعياد وطنية وأسترالية، وتقيم أيضًا ملتقياتٍ فكرية، ثقافية، وأدبية، وأخرى سياسية، ينشطها مختصون إريتريون وأجانب من داخل وخارج أستراليا، ونظمت جاليتنا قبل عام وتحديدًا في السابع عشر من يناير 2017 ندوةً فكريةً قدمتها ناقدةٌ أدبيةٌ إريترية مشهورة، كان عنوان تلك الندوة «واقع وآفاق الأدب الإريتري وصعوباته ومعوقاته»، المحاضرة أو الأطروحة كانت قيِّمة ومهمة للغاية، ورؤية فكرية متزنة ومحايدة، وكانت في النهاية دعوة للتحرر من النمط التقليدي للأدب الإريتري الذي يصب جميعه في قالبٍ فكري واحد، والذي يعكس دائمًا واقعًا افتراضيا نريد صناعته، وليس واقعًا إريتريًا حقيقيا على ما هو عليه.

قبل ثلاثة أعوام وفي بداية وصولنا إلى «ميلبورن» عاصمة ولاية «فيكتوريا» الأسترالية كنت حينها أقيم مع أسرة أسترالية تدعى عائلة (جونسون) في حي «برايتون» الشهير الراقي والقريب من

وسط العاصمة، وُجِّهت إليها لإجادة اللغة الإنجليزية، إلى جانب معهد بالقرب من مقرٍ سكني وإقامتي، كنت اتلقى فيه علوم اللغة.

وأما صديقي (قعص) كان يقطن شقة في حي «فلامنجتون»، ويدرس حينها في مدرسة التمريض التي لم يطل فيها وجوده، وتركها بعد أشهر قليلة من الالتحاق بها، ليختار مجالًا آخرَ يرتاح له، ويعرف شيئًا عنه، التحق صديقي بمعهد فني لميكانيكا السيارات، وصديقي كان في وطننا حاصلًا على دبلوم في ذات التخصص، إلا أن دبلومه اليوم في مكان لا يستطيع الوصول إليه، فهو في قبضة نظام بلده. كنا نلتقي في البدايات أسبوعيًا ومع مرور الوقت تباعدت المساحات الزمنية وقلَّت لقاءاتُنا، نتيجة لظروف الحياة وتصاريفها الكثيرة، وتأقلمنا مع تلك الظروف، والحياة، والمحيط، ومع ذلك كنا على تواصل واتصال نزور بعضنا البعض من حين لآخر، واليوم مازال صديقي يقطن بحي «فلامنجتون» شمال «ميلبورن»، أما أنا أسكن منذ سنتين في سنتر «ميلبورن»، وأقطن بشقة في حي «فيتزروي» «Fitzroy»..

تبدأ الإجازة الصيفية عندنا في ولاية «فيكتوريا» والعاصمة «ميلبورن» في شهر ديسمبر وتنتهي في نهاية شهر يناير، وفي السادس عشر من ديسمبر عام 2017 بدأت إجازتنا المدرسية من

المدرسة الفنية والمهنية التي كنتُ أتعلم فيها فن الديكور. أنهيت عامي الثاني والأخير بنجاح وتفوق، ومنحت المدرسة لنا فرصةً للاستمتاع وقضاء أسبوعٍ واحدٍ من إجازة الصيف على شواطئ «ميلبورن»، وقع الاختيار على شاطئ «إلوود بيتش» «ملبورن» «Elwood Beach» إنه شاطئ محبب، ومفضل، والأكثر ارتياديًا من قبل سكان المدينة، كان ارتيادي للشاطئ فرصةً مهمة لي لأجدد ولائي للبحر، لأعانق البحر وأمواجه، وعليَّ فقط ألَّا أسرف في العشق والغوص، وعليَّ أن أقف غير بعيدٍ عن ضفة ذلك الشاطئ، فعلاقتي بالبحر علاقة سطحية تعتمد على التنظير أكثر من التطبيق، ولأنني في الواقع لا أجيد السباحة، عمومًا كان الشاطئ فرصةً لأستمتعَ وأمرحَ لبعض الوقت مع زملاء دراستي، وكان أقربهم على الإطلاق صديقي (ماجد الحلبي) من سوريا وصديقة أخرى رائعة تدعى (هاري) سافرت منذ تلك الصائفة الي لندن، وستةَ زملاءٍ آخرين تجمعنا بهم علاقةٌ يغلب عليها الطيبة والاحترام، كنا تسعةَ شبان من خريجي طلبة مدرستنا مدرسة الديكور، ومرافقًا سياحيًّا واحدًا، رفقة «باص» سياحي كان يقلنا من فندق قريب من الشاطئ نحن ومعداتنا السباحية، وكل ما

يمكن أن نحتاجه في الشاطئ، ويعيدنا إلى الفندق، إنه أسبوع «إلوود بيتش»، وكان ممتعًا للغاية..

كان ممتعًا ذلك الشاطئ، وربما كان ينقصنا (قعص) لتزيد المتعة ولونها وشكلها، فهو رفيق دربي، وكتابي الآخر، وخير أنيس لي في الزمان.. استمع دائمًا إلى حديثه بشغف، وهو يقص ويروي لنا عن عشقه للبحر، وحقيقة البحر كان خارج اهتمامي، لكني أحببته حبًّا في (قعص) المتيم بعشقه.. كان يحكي دومًا عن البحر، وأخبرني عن زنبيل أُمِّه، وصندوق جدته وعن أمورٍ أخرى، بعضها أخفاها عنا مقهى «سنايت»، وأخرى أبعد عن مقهانا يتذكرها صديقي نفسه، بالكاد وبصعوبة..

أجراس الحنين

في ليلة من ليالي الغربة وبعد عام ونيِّف من وصولنا لـ«ميلبورن»، وفي مناسبة مزدوجة نهاية «الويك إند» بالإضافة إلى عيد وطني.. قصدنا أنا و(قعص) تلك الليلة مع بعض الرفاق والمعارف نُزُلًا ترفيهيًّا وقاعة حفلات في حي بمنطقة «فلامنجتون»، ونسينا تلك الليلة «ميلبورن» وحياتها، وشعرنا لسويعات أننا في بيئتنا، فكلُّ شيءٍ تلك الأمسية كان وطنيًّا بامتياز، وانتشينا، ورقصنا، وفرحنا، واحتسينا كذلك قهوة «الجبنة» وأكلنا أطباق «الزقني» والرز المفلفل، وأعدَّ ذلك الحفلَ جاليتُنا الإرترية، وفي طريق عودتنا إلى شقته، حكى لي صديقي وبشعور مختلط تخلله الشوق، والحزن، والفرح، والامتنان، عن زنبيل أُمِّه الصغير المصنوع من السعف، كانت شاحنتهم المحملة بالزاد والملأى بالخير، وتحتوي على كلِّ ما يكفيهم وضيوفهم، ضيوف عامرة خيِّرة، لا يخلو منهم بيت عمي، بعضهم كان زائرًا وبعضهم مقيمًا، وربما لا تكفي اليوم شاحنات لتفي أو تقوم بهذه المهمة، فهل كانت البَرَكة في ذلك الزنبيل؟ أم فيهم وفي ضيوفهم؟ أم كانت في ذلك

الزمان والمكان معًا؟ أم كان مصدر تلك الهبات والعطايا التي كانت تمنحها وتهبها والدة (قعص) للمحتاجين بنوايا صادقة صافية؟ دون أن يعلم أحدٌ بما تفعل، ودون أن تخبر كذلك أمُّه أمَّها، أو جدة (قعص)، والتي كانت تسبقها هي الأخرى لذات العمل الخيري والإنساني.

وأخبرني صديقي بشعور مماثل ذات مرة، وهذه المرة كنا في زنزانتنا في السجن المركزي في «الحديدة» اليمنية، قبل ثلاث سنوات، عن صندوق جدته الحديدي الكبير والعتيق، كان لجدته وفيه مقتنياتها الخاصة. لا يفارق مخيلة (قعص) ذلك الصندوق المهيب ولا جدته أبدًا، فكلما فتحته كانت تنبسط معه أساريره فرحًا وغبطة، صندوق لم ينضب يومًا معينه، وخيره، وعطاءه، كانت تفتحه جدته بحرص شديد، وعندما يكون البيت هادئًا، عادة تفعل ذلك في الصباح الباكر، وقبيل المغرب، ويراقب هو ما بداخله دون أن تشعر بوجوده ومن بعيد، ومقتنيات جدته كانت كثيرة ثرية وعامرة، كالخلاخل الفضية وقطع فضية أخرى، وكذا الحلي، والأساور الذهبية، والنقود الورقية، منها بعض الريالات السعودية التي تعود الي زمن الملك فيصل واليمنية، والبر الإثيوبي، أما الملابس التقليدية فكانت حاضرة فيه وبقوة، منها «المسانف» العدنية وهي فوط أو أردية نسائية مزركشة بخيوط قطنية ملونة،

وكذا «المقالب» القطنية والحريرية وهي رداءات أو شالات الرأس التقليدية للنسوة في «طيعو» ومحيطها، بعض هذه المقتنيات يعود إلى زمن بعيد، زمن جد (قعص) رحمه الله، زمن لا تتذكر منه والدة صديقي سوى ملامح والدها وبالكاد، تقول جدته أن جده أهداها وجلبها من «مصوع»، و«عدن»، و«البصرة»، و«المنامة»، و«الهند»، و«سيلان»، كانت جدته تعرف أو سمعت كلَّ هذه المدن والأمصار، خلاف أمهاتنا، وجيلهن، وأجيال اليوم الذين لا يعلمون شيئًا عن هذه الأمور والأمصار.

(قعص) لم يكن تهمه كل هذه الأمور والأشياء، ما كان يهمه هو متى تنتهي جدته من تقليب أغراضها وإغلاق صندوقها، وتمنحه كالعادة بعض القطع النقدية أو الورقية، فصديقي ابن جدته، كانت تدللـه وتلبي كل طلباته، كان معها في حضنها أو حجرها، وممتطيا ظهرها، أو ممسكة هي بيده، وعندما تحس بغيابه لبعض الوقت، كانت تلف المدينة بيتًا بيتًا، وحارةً حارةً، وتمشط شواطئها الثلاثة للبحث عنه، ويسافر معها، ويبقى برفقتها أيضًا إذا سافرت أمه هنا أو هناك، كانت تمنحه المال بحرصٍ شديد دون أن يرى ويشعر بذلك أحدٌ، وحتى أمِّه لم تكن تحس به، ولنفس السبب كان يهرول مباشرة إلى دكان عم (محمد) ويشتري به عصيرًا مشكلًا، وحلويات وكلَّ ما يريد.

وكنا نرتاد أحيانًا، أنا و(قعص) مقهى بمنطقة «فوتسكري» يملكه صديق صومالي كان يعيش في جيبوتي لفترة محدودة من الزمن، وكان آخر لقاء جمعني بـ(قعص) في ذلك المقهى قبل زيارتي لوطني بيومٍ واحد، وأحسست في لقائنا الأخير أن رفيقي يحترق بنار الشوق مثلي أو أكثر، ولولا ظرفه السيئ الذي يعيق مراده، وأن والدته، ووالده، وشقيقه (أحمد) في الداخل وفي إريتريا، لحزم أمتعته اليوم، وسبقني إلى العودة، كان يتوق ويحن لشيءٍ لا يشبه كلَّ الأشياء، ويحن إلى أمه، ويتوق إلى أطباقها الشهية التي كانت تعدها بإتقان ومهارة منقطعتي النظير، بدءًا برقائق «اللحوح»، وعيش الفرن وما نطلق عليه باللهجة المحلية «قوقو»، وعيش الفرن التقليدي هو ذلك الخبز الذي يعد بالفرن المصنوع من قطعة معدنية أسطوانية الشكل، تحفر لها في الأرض حفرة دائرية أسطوانية، على شكل ومقاس معدن الفرن، عادة يكون قطره أربعين سنتمترًا وطوله خمسين سنتمترًا تقريبًا، وقديمًا كان يصنع الفرن من الطين والفخار، ويتم وضع الفحم أو الخشب داخل الفرن وإشعاله، إلى أن تصل درجة حرارته لدرجة احمرار باطنه، وقتها تُوضع قطع العجين بشكل دائري ومنظم في باطنه، وفي قاع الفرن يُوضع سمكٌ طازج، وغالبًا سمكٌ «العربي» المفضل لدى الكثيرين في «طيعو»، ويغطى الفرن بإحكام بقطعة معدنية ويدفن بعد

ذلك بالرمل، ووجبة صباحية أخرى شهية كانت تعدها والدته بمهارتها المعتادة، بعض هذه الأطباق الصباحية تكون على شكل شرائح دائرية وتشبه تقريبًا العيش الشامي نسميها «كيتا» وأخرى تأخذ شكل كويرات صغيرة نطلق عليها «المطبق» ويشبه إلى حدٍ ما «العشار» في اليمن، ويكون الشاي حاضرًا مع كل الأطباق وبثلاجتين (حافظتين حراريتين) إحداها للشاي بالحليب وأخرى لشاي سادة، بدون حليب، ولا تفارق الحافظتان، الشاي من الفجر إلى الليل. كانت والدة (قعص) تعد جلَّ هذه الوجبات والأطباق من القمح والدقيق، أمَّا جدة (قعص) وجدتي كانتا تعدانهما من الذرة المطحونة برحى تقليدية، كانتا تتقنان وباحترافٍ عالٍ عملية الطحن التقليدي بحجري الرحى، بخلاف أمهاتنا، ويتذكر (قعص) أطباق جدته بصعوبة، فرحلت جدته رحمها الله عندما كان في عامه الثامن تقريبًا..

ويتوق صديقي إلى كلِّ الأشياء الجميلة في مدينتنا وإلى أبواب منازلها التي كانت مفتوحة لهم على الدوام في زمن جدته، رفقة قلوب الجميع، قبل أن تغلق اليوم كلُّ الأبواب وقلوب الجميع معها في وجوه الناس.

يذكر أو يتذكر صديقي أصواتًا كانت شجيَّة نديَّة وقريبة منا، فتناهت في البعد، منها نكهة الأعياد في زمن جدته وطقوسها

التقليدية، وفرحة الجميع بها، وخصوصًا فرح الصغار وتباهيهم بالملابس الجديدة والألعاب، وترديد الأهالي لجملة «عايدين، فايزين» ومعها يقبِّلون أيادي بعضهم البعض صغارًا وكبارًا، ويطوف الجميع بعد خطبة العيد المدينة حارةً حارةً، وبيتًا بيتًا، والعيد أيضًا يَجُبُّ ما قبله، ويعيد صفاءَ النفوس، حيث يطلب فيه الجميع، ويستجيبون فيه أيضًا، للعفو والمسامحة.

ومعالم مهمة تشتهر بها المدينة منها زوايا لحفظ القرآن الكريم المنتشرة في أحياء المدينة، ومعلمون بررة كانوا يمتلكون وقارًا وهيبة، ويحظون باحترام، ومحبة الدارسين وأوليائهم في ذات الوقت، وكذا الاهتمام اليومي من الدارسين بألواح يكتبون فيها سورَ وآياتِ القرآن الكريم ويقومون بمسحها بعد حفظهم لها، ويعاودون كتابة سورٍ أو آياتٍ أخرى تعقبها وهكذا.

ومشهد آخر مهم، وجميل، ورائع، هو حلقات الموالد التي كانت تبدأ في مساء المولد النبوي الشريف ومناسبات دينية أخرى، بالمدائح والموشحات الدينية وتختتم بالولائم وكل ما لذ وطاب. والموالد تُدار وتُنظم في زوايا وبيوت خاصة، تتقاسمها بعض العائلات تقليديًّا في مناسبات دينية في «طيعو»، ويحفظ صديقي (قعص) بعضًا من تلك المدائح والموشحات الدينية، منها مدائح

وأشعار من كتاب «ذات المحمدية» للشيخ عثمان المرغني، ويتناول ذلك الكتاب السيرة النبوية العطرة بأسلوب جميل ومحبب، وبنظمٍ شعري ملحون:

«اللهم صلِّ وسلم على ذات المحمدية

فاغفر لنا ما يكون وما قد كان»

ويحفظ صديقي الكثير من المدائح الدينية، إلَّا أن واحدة منها سكنتني، وأدهشتني، وأجبرتني على حفظها، كانت قصيدة صوفية عطرة ومديحًا للولي الصالح الشيخ عثمان أحمد، الولي الهرري. وأحد أولياء الله الصالحين في المنطقة..

أبانا الولي أبانا الولي

شيخ عثمان أحمد لله الولي

شيلي الله الولي لله الولي

شيخ عثمان أحمد لله الولي

يضرب النوبة ضربًا

فتئن

وحواليها طبول

حولها الحلقة ماجت

في مدار

وتدانت أنفس القوم عناقاً واصطفافًا

رجع الشوق وحنَّا

وحواليه المحبون يشيلون صلاة

وسلامًا

ويذوبون هيامًا

ويهزون العصيا

ويصيحون به أبشر لقد

نلت المراما

شيلي الله الولي لله الولي

شيخ عثمان أحمد لله الولي..

البحر هو الكل في الكل هو الطموح والحلم، الفقد والضياع، الحياة والموت، هو كل تلك المعاني بتجلياتها بتناقض بعضها لبعض، في قرى ومدن سواحل «دنكاليا» على البحر الأحمر يتنفس الشعب.. البحر وما هوى، وأمواجه وما غوت، شهيقًا يدخل بيوت ومنازل أهلها، ويزور دوريًّا وباستمرار أوردة الجميع فيها، ويرسل

معها من دواخلهم كل ما يحسون به من هموم يومية، ونتيجته تأتي دوريًّا وباستمرار وعلى طريقة، و»على نياتكم ترزقون»..

ويستهلون صباحاتهم بهذا الدعاء الخالد:

«يا فتاح يا عليم، يا رزاق يا كريم»

يفتح الله العلي الله القدير بها، في وجوه البسطاء، الصيادين والبحارة هنا أبواب الخير والسعادة والهناء.

مدينة «طيعو» مدينة بحرية، يحيطها البحر من ثلاث جهات: الشرق، والشمال، والغرب، فالحوار فيها مؤكدًا حوارٌ بحريٌّ مليء بالشجن، بقصص البحر ومغامراته، وبعبق البحر ورائحته، وكل ما له علاقة بالبحر ورزقه، وعطائه، وحرمانه، وسكونه، وأمواجه، وعواصفه..

في «طيعو» لا يمكن لأحد النوم إلى أوقاتٍ متأخرة، فالمدينة تنهض ما بين أذان الفجر إلى الساعة السادسة صباحًا، ويصحو آخرُ كسلانٍ في مدينتنا الساعة السابعة صباحا. وأصحو كعادة الجميع هنا مبكرًا منذ قدومي إليها، وهي من العادات الحسنة والأمور الجيدة والمفيدة التي علمتني إياها «طيعو»، إلى جانب أمورٍ أخرى إيجابية. والبحر وجهة الأهالي التقليدية في «طيعو»، أسوة بقرى ومدن شواطئ «دنكاليا» فالبعض يجهزون قواربهم وسفنهم للسفر إلى «بر العرب» أو للذهاب إلى الجزر القريبة أو البعيدة نوعًا ما من

«طيعو» كجزيرة «قرب سس»، و«حفالي»، و«بكع»، و«هواكل»، وجزر «دهلك»، وغيرها. والبعض يقصد البحر لاصطياد السمك لاحتياجات المدينة اليومية منها أو الخاصة، وبعضهم لديهم أشغال أخرى بشواطئ «طيعو»، فابن عمي (أحمد) شقيق (قعص) مثلًا كان يتابع في عامي السابع في «طيعو» سير العمل على سفينته التي اهترأت وتآكلت ويقوم بإصلاحها معلمٌ أو خبيرٌ في إصلاح السفن.

والبحر كان وجهة الأهالي الوحيدة هنا في السابق، واليوم بدأ يزاحمه السوق، والمقاهي، والمطاعم المنتشرة في حارات المدينة، وأفضل هذه المطاعم وأشهرها، مقهى ومطعم «سنايت» الأكثر حضورًا وقبولًا من الأهالي وزوار المدينة، مقهى برائحة البن التقليدي المحبب. والمطعم يقدم وجبات مختلفة ومتنوعة وطبق «الزقني» هو الأفضل والأشهي وكان خياري الغالب والأقرب لذوقي.

كنت كالعادة أسبق دائمًا رفاقي إلى مطعم «سنايت»، الذي يصبح في العصرية وبعد العشاء كذلك مكانًا مفضلًا نرتاده لنشرب ونرتشف فيه قهوتنا المسائية، وندفع مقابل قعدتنا هناك القليل من النقود على فناجين القهوة التي والفها الكثيرُ من الشباب هنا في مقهى «سنايت»، وتدير (سنايت) المطعم والمقهى رفقة ابنتها (سميرة) ثلاثة وعشرين عامًا، وابنها برهان عشرة أعوام، وآخر العنقود سامي سبع سنوات.

كنا نضيِّع في هذا المقهى الجميل والمريح الكثير من الوقت، مطعم ومقهى في نفس الوقت لكنه مرتب بشكل جميل وأنيق، ومقسم إلى قسمين، شطره الأوسع كان مطعمًا بطاولات وكراسي بسيطة متواضعة لكنه يحمل بصمة مميزة، وقسم آخر مقهى أنيق بمساحة كافية.

شملتهما (سنايت) باهتمام غير عادي، ربما كانت تفكر وهي تعطي كل هذا الاهتمام لمطعمها بشكل خاص، وتنظر ببعد نظر وهي تقرأ مستقبل مطعمها، كما كانت بارعة وهي تقرأ فناجين القهوة لمريدي ذلك الفن الذي تتقنه بامتياز، وورثته عن أمِّها المرحومة، وكان همها ارتباط مطعمها باسم مدينة «طيعو». كانت تفكر في كل من سيزور هذه المدينة، كما كانت تدرك أهمية المدينة وموقعها فهي ثاني أهم وأكبر مدينة في الإقليم بعد مدينة «عصب»، وأنها محطة عبور تتوسط مينائي «عصب» و»مصوع»، وتقع على بعد ثلاثمائة كيلومترٍ من المدينتين وربما نبع من كل هذه الأمور اهتمام السيدة (سنايت) الزائد والملحوظ بأناقة المحل، وهي تضفي عليه لمسة ساحرة، وهالة وزخم كبيرين، رغم بساطة هذه المدينة.

ويشعرك مقهاها ومطعمها إحساسًا بالراحة، وأنت في داخله تشعر بوجودك في بيئة أخرى وثقافة أخرى لم تعتَد عليها، وربما

كانت خارج اهتمام أهالي المدينة، كما كان السمك ورائحته خارجًا عن مطعم السيدة (سنايت) مثل خروج ذلك عن بيئتها التي قدمت منها، فهي تجيد وتتفنن في المطبخ التقليدي لسكان المرتفعات الإريترية، و»الزقني» هو الأشهر والأشهى من كل ما تقدمه، وحتى الفول الذي تعده السيدة كان مختلفَ المذاق وشهيًّا هو الآخر وكانت تعده بطريقة غير مألوفة هنا، وكان ينتمي إلى المطبخ السوداني، و»الشيرو» «shiro» أو الحمص المطحون والمضاف إليه بعض البهارات لذيذ في مطبخ (سنايت).

مطعم «سنايت» وأحيانًا يطلقون عليه مقهى «سنايت»، لا أعرف ماذا كان هو بالضبط، عمومًا كنت أطلق عليه اسم «هوتيل»، فيطلق الشارعُ في بلدي مصطلح «أوتيل» على المطعم، لا شك أن ذلك خطأ، ففي الواقع كلمة «أوتيل» تعني فندقًا بالفرنسية، وليس مطعمًا، لكن هكذا وصل المصطلح إلينا وإلى الشارع الجيبوتي وصرفها الشارع، ولم يكن ممكنًا إعادة الصرف.

كنت أختلف مع الكثيرين هنا في بعض الأمور والتفاصيل، فثمة فرق بين الحياة هنا والحياة في مسقط رأسي ووطني، وفي بدايات قدومي إلى «طيعو»، كنت «أرفضها» رفضًا تامًا، وأشعر بالضيق

والامتعاض من كلِّ شيءٍ، ولم أكن أعتقد أن إقامتي هنا ستطول، فأنا لم أستطع ذلك الوقت تقبل ذلك، وصعبت عملية الاندماج والذوبان بيني وبين كل الأمور والأشياء هنا من حولي، ومللت سريعًا من العيش فيها، لم يكن يعجبني شيءٌ، فيختلف أسلوبها واهتمامها، عن أسلوبي واهتمامي جذريًا، كنت فقط أرتاح لـ(سنايت) ولمطعمها، ولم أكن أعرف سببًا لذلك، ولا أعتقد كذلك أن هناك ثمة ما يفرقها عن أحدٍ هنا.

كنت أتناول دائما كلَّ وجباتي في مطعمها، وخصوصًا وجبة العشاء والفطور، أما الغداء فلا، فالجميع يتناولها في البيوت، فهي عادة الجميع فيها، ودستور هذه البلدة.

ولذا لم تهتم (سنايت) يومًا، ولم تعوِّل كثيرًا على وجبة الغداء، لكنها تتفنن في طبخ «الزقني»، فالكثير هنا يأتون ليشتروا منها طبق «الزقني» (سفري) أي محمول إلى منازلهم، وكان أهم ما يميز مطعمها النظافة، كلُّ شيءٍ كان نظيفًا فيه، المبيد الحشري والمطهرات حاضرة، والبرفام والمناديل الورقية حاضرة، وحتى منظر المرآة في حوض غسيل الأيدي كان رائعًا، وكلُّ شيءٍ كان حاضرًا وحتى أعواد «الإستيك» تعطيك إياه مع مناديل معطرة.

كنت زبونًا وفيًّا ولديَّ دفترٌ شخصيٌّ وحسابٌ مخفضٌ خاص، باعتباري زبون دائم، لكني في الآونة الأخيرة أصبحت فردًا من عائلة (سنايت)، واختفى دفتر حسابي في بدايات قدومي إلى «طيعو»، لم أكن أعرف اللغة «التغرينية» والرسمية في البلاد والتي يعرفها الكثيرون هنا، وخصوصًا فئة الشباب في «طيعو»، أسوة بمدن أخرى شبيهة لها، لم أكن أعرفها بحكم نشأتي في بيئة أخرى، كانت بدايتي حي «أرحبا» في العاصمة الجيبوتية «جيبوتي» وشهد هذا الحي ولادتي وفترةً قصيرةً من حياتي، نشأتُ غير بعيدٍ عن حي «أرحبا»، حيث انتقلتُ في السادسة من عمري إلى حيٍّ قريب منه وهو حي الشرطة بحكم أن والدي كان شرطيًّا، وبدأ والدي العمل في ذلك الجهاز في منتصف السبعينيات، في البوليس الفرنسي في نهايات فترة حكم الحاكم علي عارف برهان بك لجيبوتي، وتقاعد والدي بعد أربعة وثلاثين عامًا من الخدمة في عام 2007.

منذ ارتيادي لحيٍّ كرتوني بائس وشقي وملاصق لحينا ولحي «أرحبا» في جيبوتي، بدأت المشاكل والخلافات تدب بيني وبين عائلتي، ورأيت حينها أنهم يقتحمون حياتي وخصوصياتي، كان والدي يرفض ما كان يسميه، أسلوبي وطريقتي الجديدة،

وأصحابي ويرفض ذلك الحيَّ جملةً وتفصيلًا.. كان يتابعني ويرصد حركاتي، وكنت أرفض ذلك ضمنيًا وليس علنًا وأمامه.. لم أدرك حينها خطأ ما أفعله، ولم أدرك ولم أعبأ بعواقبه وخطره، وسلكت طريقي ومارست حياتي مثلما أريد، وليس مثلما كانوا يريدون لي، وفي النهاية أوقعت نفسي وعائلتي في أمور لم تشهدها ولم تألفها عائلتنا على الإطلاق، ووقعت في ورطة ومشكلة كبيرة.. استخدمت سلاحًا أبيضَ ضد أحدهم في ذلك الحي، وجاءت طعنتي في كتف رفيقي في ليلة بائسة، لم نكن فيها أنا ورفيقي في حالة وعي، وكنَّا غائبين تمامًا، وأحمد الله على كلِّ شيءٍ، ولو أخطأت طعنتي الكتف قليلًا، لا قدر الله، ولبضعة سنتيمترات، كانت ستتجه إلى القلب مباشرة...

حُلَّت تلك المشكلة العويصة بصعوبةٍ كبيرةٍ وبالغة جدًا، ومكلفة على كل المستويات، وبعدها اضطرت عائلتي وفكرت إرسالي إلى «طيعو»، مدينتنا الأصلية في شرق دولة إريتريا والواقعة في إقليم «دنكاليا» على البحر الاحمر، لأشقَّ طريقي وأبدأ حياتي هناك حيث الحياة هادئة لكنها صعبة، وتقول أمي إنَّ سلطات بلدنا الأصلي ستخطفني فور وصولي وستحولني إلى معسكر «ساوا» للخدمة الإجبارية الواقع في غرب البلاد..

وكان والدي مصرًا منذ البداية على إخراجي ونفيي من مسقط رأسي إلى عالمٍ آخر مجهول بالنسبة لي، ووجد لذلك سببًا مقنعًا، وجاء قراره قاطعًا وحازمًا رغم توسلات أمِّي ورجائها لتبقيني قريبًا منها، كانت فكرته وغرضه بأني سأعود من هناك شخصًا آخرَ، مستقيمًا ومهذبًا مثل قريبنا (إسماعيل) الذي سافر بلدنا الأصلي مع أخته إلى مدينة «مصوع»، وتم القبض عليه ليلًا في حي «أماتري»، ورحل إلى «ساوا» وخدم وجند لأربع سنواتٍ فيها، واستطاع في النهاية الهرب منهم وعاد إلى جيبوتي، بعد معاناة قاسية ومؤلمة مع الشعبية..

مع أن هذه التجربة لم يخضها (إسماعيل) بمحض إرادته، إلَّا أنها كانت مفيدةً جدًا لذلك الشاب، وكان والدي يرى ويقول أيضًا إنَّ سلوكي وتصرفاتي قريبة من تصرفات (إسماعيل) قبل سفره إلى بلده الاصلي، فيقول إنَّه جاء مختلفًا في كلِّ شيءٍ بعد تجربة سنواته الأربعة في الوطن و»ساوا»، وكان لذلك الأمر علاقة مباشرة ليرحلوني وينفوني إلى «طيعو».

سبحان الله، صار الوطن إصلاحية تعيد إليه العائلات مجرميها وكل من فقدت السيطرة عليهم من أبنائها.

وربما لم يكن يعلم والدي أو غاب عنه شيئًا آخرَ وهو أنَّني ربما لا أعود نهائيًا من هناك، أو أموت بيد نظام بلدنا الأصلي، وهو ما كانت تقول أمي لأبي.. ربما كان صحيحًا ما تقوله أمي، وربما كانت تقول ذلك ليعود أبي ويعدل عن قرار نفيي بعيدًا عنها وإلى المجهول..

عمومًا لم يكن قدري «ساوا»، ولم أكن ولو لمرة واحدة في قائمة المطلوبين والمرحلين إليها طوال هذه الفترة، لا يستطيع أحدٌ تخمين أو قراءة كيف تفكر الشعبية وماذا تريد، لا يستطيع كذلك أن يعرف أحدٌ سر بقائي في المدينة وحيدًا، والغريب في الأمر أن الجميع يعرف صعوبة تفاهمي معهم، وصعوبة تفهم الشعبية لمسألة تجنيد «ساوا»، ولاسيما السنة السابعة لي بالمدينة، ولا أحدٌ يمنعي من السفر، فأصل إلى «عصب» وأعود، وإلى «مصوع» و«أسمرة» وأعود، كان ذلك الأمر يبدو غريبًا للبعض، والبعض يعتقدون أن سبب ذلك (سنايت) ومطعمها، وقربي وعلاقتي بها، ويعتقد هؤلاء أنَّني من خلالها تعرفت على بعض الشخصيات المهمة وأعمل لصالحهم، لم يكن ذلك السبب، وإنما السبب ربما كان بسيطًا، وهو أنَّني لم أكن على أجندتهم، فكانوا يعرفون غرض إرسالي إلى «طيعو»، فغرض عائلتي معاقبتي وتربيتي في معسكر «ساوا»، ولذا القاعدة هنا

وعند الشعبية تقول: إذا أردت شيئًا ما ستحرم منه، وإذا لم تكن تريده فأنت في أول القائمة، ولذا كنت في ذيل قائمة «ساوا»، أما (سنايت) وابنتها فلا يستطيعان فعل شيءٍ لأنفسهما ناهيك عن فعل شيءٍ لغيرهما أو لي.

***

حوار بين فناجين

في بداية قدومي إلى «طيعو» كنت أعود في الغالب بذاكرتي إلى الخلف، وأستعيد بعض ذكرياتي بتفاصيلها، وهوامشها، وتجلياتها، وأعود بها الي مسقط رأسي إلى أحياء وشوارع مدينتي، ميادينها وشواطئها، وأهل مدينتي، أترك جسدي في «طيعو»، وأصطحب روحي وذاكرتي في زيارة سياحية خفيفة، يعيشني حدثٌ هناك، وحدثًا آخر أعيشه هنا.

في إحدى أمسياتنا الجميلة وكعادتي والرفاق جئنا إلى مقهانا الجديد في حي «أرحبا» وسط العاصمة جيبوتي، لنرتشف القهوة ونتجاذب أطراف الحديث ونشم معًا الهواء النقي في مكان هادئ وطبيعي يشبه مسرحًا مصغرًا للهواء الطلق يلتحف السماء مثله، وبمقاعد بسيطة للغاية، وكانت صاحبة المقهى أو سمراء القهوة الآنسة (ميمي) تشبه ملكة تتوسط زبائنها وهي تجلس على كرسي عصري مناسب، وكعادتها توزع فناجين القهوة لزبائنها مع ابتسامتها الساحرة في وجوه زوار ومرتادي مقهاها الليلي، وتوزع أيضًا حسن معاملتها

ولطافتها، وهو ما أضفى على مكان السمر رونقًا خاصًا. لسمار الليل إيقاعًا مميزًا، وللقهوة السمراء طعمًا استثنائيًا، وحولت سمراء القهوة من عملية ارتشافنا لقهوةٍ سادة في أمسيات مضت وسبقت خبرًا كان.

نعم كان زيفًا ما أفعله في مقهاها، فعندها أرتشف القهوة ليليًّا بالسكر، خلاف طبعي ومزاجي السابق، وأطلب منها أيضا معلقة سكر أخرى إضافية، ثم أعيد إليها فنجان القهوة ثانيةً، وتناولني هي إياه ثانيةً، فأنا لا أطلب هذا في البداية، وهي لا تفعل ذلك في البداية أيضًا، ليقينها ورغم علمها أنني أرتشفها كل مساء في مقهاها مع ملعقتي سكر، لا اعرف سببها، اما سببي فهو كالعادة لأنقل لها بين اشوطين اعجابي الدائم ... بطعم مذاق قهوتها الاستثنائي وأسرق بين الشوطين أيضا نظرةً من عينيها الساحرتين وابتسامتها القاتلة اللتين أغادر بهما مقهاها، وأعيد لها فنجاني وملعقتها، ومعهما أمنحها مقابلًا ماديًّا وقلبي، وأسرق ثانيةً رضاها الذي أتخيله أنا دائمًا أنَّه لشخصي، ويكون هو في الواقع وفي حوزتها العائد المادي، ولضمان وفائنا لقهوتها كل مساء، وتعيد هي نظرتها وتعيد لي قلبي وما تبقى من مالي، وتواصل حديثها مع زبونٍ آخرَ يشبهني، ويمثل معها دوري، وتمثل هي معه دورًا بطوليًّا يشبه دورها معي، وفي الأخير تكون هي وتفكيرها في وادٍ، وتفكير بعض زبائنها في وادٍ آخرَ. لا تفكر هي عادةً فيما يفكر فيه بعض زبائنها وأنا..

وأمسية أخرى أو أمسية تالية، اختلفت تفاصيلها قليلًا عن ليالي السمر العادية، وأبرز ما ميزها، هو حضور ضيفٍ أسمرَ، يرافق سمراء القهوة، وأضفى حضور الوافد الجديد على مكان السمر، وسمار الليل، والقهوة السمراء مذاقًا مختلفًا واستثنائيًّا، وعلى سمراء القهوة ارتباكا وقلقًا، لكأن مرافقتها جاءت خصيصًا لتقلب أوراق زبائنها، وأوراقي أنا ودفاتري، وتصرُّ رفيقتها على خلع ثوبِ وقارٍ وقناعِ بعض زبائنها الزائف معًا، وجاءت لتقلب مزاجي والبعض إلى النقيض، وربما جاءت الليلة لتعدله وتعيده على ما كان عليه سابقا، وتجلب معه توترًا هادئًا لحالتي، ومنذ ارتيادي لهذا المكان أشرب قهوتي بطريقة معينة وبملعقتي سكر، وجاء الوافد الجديد ومعه ارتشافي لقهوة سادة، على غير العادة هنا، وموافقًا لعادتي الأولى والطبيعية..

نعم كانت زيفًا وتمثيلًا قصةُ السكر وملعقتيه، وكان زيفًا ما أفعله هنا كل ليلة، وفي هذا المكان خلاف هذه الليلة.

الليلة وافقت على الفور عندما قدمت لي رفيقة سمراء القهوة أو الآنسة (مريم) القهوة دون سكر، ودون أن تسألني حتى، وكأنها تعرف مزاجي وطبعي الحقيقي..

سبقت أنا الآنسة (ميمي) التي كانت تريد توجيه رفيقتها الجديدة، أو أرادت أن تقول لرفيقتها:

– السيد يشرب قهوته بالسكر..

معتقدة أنها تعرف مزاج زبائنها واحدًا واحدًا، وكيف يشربون قهوتهم المسائية، وسبقتها أيضا قبل أن تفضحني، وتحرج رفيقتها، أو قبل أن تقول (ميمي)، ما اعتقدته أنا فضولًا منها، وربما رأت (ميمي) أن رفيقتها (مريم) خرجت عن القاعدة التي كانت تفرض عليها أن تسأل زبائنها قبل تقديم القهوة لهم وتسألني أنا أيضا..

وقبل أن توجه صاحبة القهوة تعليمةً لرفيقتها وتقوض مزاجي الليلة، قلت لرفيقتها (مريم):

– خيرًا ما فعلتم، فهذه الليلة ليلة مختلفة، ليلة أعود بها لعادتي وأشربها سادة..

ابتسمت سمراء القهوة الآنسة (ميمي) بشيءٍ من الغرابة والخبث، وابتسمت رفيقتها (مريم) دون غرابة وبخبثٍ أيضًا، لتوافق الضيفة (مريم) ابتسامتي وكأنها قرأتْ أو قرأتُ أنا أفكارها.

***

مقهى «سنايت طيعو»

كانت بارعة في كلِّ شيء بارعة في الطبخ بارعة في الرقص «سيليلي» بارعة في شد وخطف أنظار الآخرين، بارعة في احترام

الآخرين وأخيرًا كانت بارعة في قراءة الفنجان، (سنايت) تقرأ الفناجين مثلها مثل قارئة الفنجان في قصيدة الشاعر نزار قباني، وفي النغم الغنائي للفنان عبدالحليم حافظ.

كانت أمسية من أمسيات الشتاء، الجو كان مضطربًا، ونسمع هدير أمواج البحر الذي كان يحاصرنا من ثلاث جهات، والجو كان غائمًا وماطرًا والبحر غاضبًا وهائجًا، وتشهد المدينة ليلة استثنائية ونادرة؛ فالعاصفة البحرية والرعدية الماطرة تلف المكان هنا، وجعلت جميع سكان المدينة وضواحيها رهن بيوت يخيم عليها القلق والترقب، بينما السفن والقوارب تسبح وتبحر دونما أشرعة ودوافع آلية.

قدم ليلتها إلى منزل (سنايت) شابٌ يحمل قصة عشق أسطورية رهيبة، روت مثل تلك القصيدة الموجعة والنغم الحزين تفاصيل قصة عاشق مكسور الخاطر عديم الحيلة، لم يجد دواءً لسقمه ولعلته، واتجه صوب (سنايت) مستنجدًا بها، عاشمًا وطامعًا في فنجانها، فلربما كان آخر حلٍّ لحالته الميئوس منها والمستعصية. كنت جالسًا تلك الأمسية بجانب (سنايت) موازيًا لها وملتحفًا ملائتي البيضاء.

لم يجد ذلك الشاب طريقة لحل معاناته، سوى الاستنجاد بـ(سنايت) المنجمة والتي كانت تقلب فناجين القهوة للشباب هنا،

وتمنح لأمثاله مهدئًا لآلام الحزن أو تزيدهم من كم الأوجاع التي يعيشونها وتعيدهم إلى مربع اليأس والقنوط.

قدم الشاب إلى منزل السيدة (سنايت) مساءً في حدود السابعة رفقة عجوز يبدو أنها، كانت أمه أو ربما خالته أو كانت إحدى قريباته وممَّن رقت لحالته تلك، كان يتبعها هو بخطوات مهزومة وبوجه شاحب وببنية نحلية، ويلفه الإحباط واليأس، وكأنه يعرف مقدمًا قدره وما سيُخبِئ له ذلك الفنجان النحس.

رحبت بهما (سنايت) وفناجينها وهي جالسة بجانبي، وجلسا أمامنا وتتوسطنا مائدة القهوة وفناجينها العتيقة الصغيرة الحجم، أمعنت (سنايت) صاحبة الفنجان النظر في الشاب، ولاحقته بنظرات تخمينية تحليلية، محاولة قراءة حالته، وبحنكة عرافٍ ماهر عرفت معاناته، كان شابًّا في مقتبل العمر عشريني ومهزوز مهزوم يائس، وماذا سيحمل غير العشق؟

ناولتهما فنجاني القهوة، وفنجانًا آخر لي، ولا حديث جمعهما وأنا صامت، فكل من يقصدون (سنايت) ويلجأون إليها يبحثون عن المفقود بصمت، ويبحثون عن التطلع إلى المستقبل بصمت، ويبحثون بصمت عن سرقة لحظات قادمة من حياتهم، وربما لأيام

ولسنوات قادمة، ويقصدونها وبصمت بحثًا عن معرفة ما سيخبئ لهم القدر خيرًا أو شرًّا..

أعادا لها فنجاني القهوة بعد ارتشافهما لهما.

قلبت فنجان قهوته، وهي تنظر إليه ثانية، كان على الفنجان أن يظل مقلوبا للأسفل للحظات، وعليها أن تدقق النظر إليه وتحاول ترتيب أوراقها وتعيد قراءة الشاب لآخر مرة، وكانت ترسم على جدار الفنجان في تلك اللحظات بقايا القهوة المركزة وخيوطها، مستقبل ذلك الشاب، ولحظات هي الأخرى كانت تزيد من وتيرة القلق لدى الشاب، وربما لعجوز مرافقة قدمت معه، وزادت من نبضات قلبه اليائس.

انتهى الوقت وعلى (سنايت) أن تقلب الفنجان وتتابع تلك الخطوط المرسومة على جداره..

يا الله ويا للهول!

فـ(سنايت) من هول ما رأت على جدار ذلك الفنجان، أرسلت سيلًا من الدمع الذي بلل خديها، وهزت رأسها يمينًا ويسارًا، وتغيرت ملامح وجهها وملامح وجوهنا معها، وخيم الحزن على محيا الشاب وعجوز ترافقه، ومع صمتنا ساد الصمت والهدوء

المطبق أجواء المكان، وأماكن أخرى حوله، وفي المدينة كلها، وهدأت العاصفة وتوقف المطر للحظات أيضًا.

لم تطل ثورة الصمت طويلًا، فعادت العاصفة مجددًا واستأنفت الأمطار هطولها واضطربت الأجواء بعد هدوء لحظي وبسيط.

(سنايت) صاحبة الفنجان ..

هزت رأسها

وقالت:

- لا أرى شيئًا.

تابعت بصوت حزين ومبحوح:

- لا أرى شيئًا في فنجان الشاب، لا خطوط، لا بقايا قهوة في فنجانه..

ثمة تشابه وتقاطع بين قراءة (سنايت) وفنجان هذا الشاب، وبين فنجان شاب تروي حكايته عجوز قارئة فنجانٍ في قصيدة (نزار) الشهيرة.

لا خطوط على جدار فنجان الشاب في قراءة (سنايت)، وكانت على جدار فنجان العجوز في قارئة الفنجان خطوط منفصلة، متقطعة.

***

«أرحبا جيبوتي»

الوافد الجديد أو الضيفة (مريم) كانت تعرفني حق المعرفة، فأنا كنت زبونًا سابقًا وفيًّا لقهوة (مريم) المسائية قبل أن أنقل سفارتي إلى هذا المكان منذ شهر، يبدو أنها أغلقت قهوتها المسائية، وفتحت محلًا لبيع الأقمشة قرب مقهى سمراء القهوة (ميمي) التي تربطها بـ(مريم) علاقة قرابة وكانت تربطني أنا أيضًا بالوافد الجديد (مريم) علاقة جيرة، وعلاقة أخرى لم تستمر.

فأنا كنت أعرفها، وليس هناك مجالٌ لطرح سؤالٍ علينا في كيفية معرفتي لها.. أنا أعرفها، وفقط أعرفها.. فأعرف نفسها: همسها، وكلامها صمتها، ومشاعرها أحاسيسها، وأفكارها تفكيرها، وحركتها سكونها... وكل التفاصيل والجزئيات والكليات المتعلقة بها..

أما كيف أعرفها؟ أو تعرَّفت عليها؟ ومتى، وأين، وكيف؟ وكل هذه الأسئلة وغيرها، فلا ضرورة لطرحها، ويكفي فقط أنَّني أعرفها، وأنَّني لا أستطيع أن ألبِّي إشباع شغف مريدي معرفة ذلك، وكيفية معرفتي لها.

وبعد شهرٍ واحدٍ تقريبًا، أصبح ارتياد (مريم) للمكان من دوريٍّ إلى شبه دائم، وكان حضور (مريم) غير منتظم في بعض الليالي وفي

البدايات ولم يتعدَ لحظات قلائل ليصبح في الفترة الأخيرة منتظمًا ودائمًا، كانت (مريم) في هذه الفترة تغلق محلها في الساعة التاسعة مساءً، خلاف عادتها، فمحلها عادة كان يغلق أبوابه في الحادية عشرة مساءً، وتكمل سهرتها رفقة قريبتها (ميمي) في مقهانا الليلي في الغالب، وأحيانا تكمله في مكان مجهول أعرفه، فأنا كنت أعرف كل الأمكنة المجهولة في حيي، وتساعد (مريم) رفيقتها وتجلس في كرسيها وتوزع الفناجين، إذا كانت لدى (ميمي) مهمةٌ وضرورةٌ مُسْتَعجَلَة، مثلًا: عيادة مريض، أو حفل عرس، أو مكان مجهول حتى، وأحيانا كانتا تختفيان معًا وتتركان مسئولية المقهى على إحداهن أو أحدهم، المهم أن يظل المقهى مفتوحًا ليلًا إلى موعد إغلاقه، وتساعد (مريم) كذلك قريبتها وصديقتها في نقل معدات المقهى إلى بيت (ميمي) في طرف الشارع، وكذا يقومان بإدخال وتخزين بعض معدات المقهى في دكان (مريم) كل ليلة وإلى مساء اليوم التالي.

وبعد شهر ونصف من التحاق (مريم) بمقهانا الليلي، وفي ليلة من لياليا الأخيرة في حينا ووطننا، وليلة صيفية حارة تحمل بقايا تمردنا وذيول شيطنة المراهقة، جاءت (مريم) برفقة أحد زبائن مقهانا، كان ذلك الشخص يظهر دومًا عدم ارتياحه لمجموعتنا،

وبطرق غير مباشرة، وربما كان ذلك غيرة مجنونة منه، ولربما كان قريبًا لهما، وربما كان أيضًا يريد الارتباط بإحدى هاتين الشابتين، هكذا تخيلنا في البداية، وبما أننا لم نكن ننوي خوض تجارب عاطفية وخوض منافسات معه هنا، أو ربما لا يريد أحدٌ منا خوض ذلك الآن بالمرة، أو كان بعضنا مرتبطًا بعلاقاتٍ في أماكن أخرى، أو خِلْتُ ذلك، لذا لا يمكن أن نكون طرفًا في صراعه الوهمي، ولم نعد نهتم لمشاكساته وبعض تصرفاته الرعناء، وعلى العكس كنا نشفق عليه في بعض الأمور التي يفعلها والتي يقوم بها أحيانًا. وفي كل الأحوال لم يكن مؤذيًا لنا ما يفعله ولا يصلنا شيءٌ من نيران غيرته.

***

«طيعو- مقهى سنايت»

وبعد أيام من تلك الحادثة سمعنا أن ذلك الشاب توفي، والتحق بالرفيق الأعلى، والتحق بمحبوبته.. والموت كان موجودًا بفنجانه، وتعمدت (سنايت) أن تدفن تلك الحقيقة مؤقتًا، أو أخبرتهم بطريقة ضمنية:

- لا أراه، لا شيء بفنجانه، لا خطوط، لا بقايا قهوة..

كان ذلك موتًا!

ربما كان ذلك الفنجان فنجان وطنٍ وأمَّةٍ، ربما كان ذلك الشاب وطن، ومحبوبته هي أبناء هذا الوطن، وطنٌ رحل عنه كل أبناؤه وتركوه ينزف دمًا، وجعًا، وألمًا، فقرر الالتحاق بأبنائه، وأدركه الموت في الطريق، ورحل لا إراديًا إلى عالم الخلود..

ومن يومها وبعد ذلك الفنجان حلفت (سنايت) بكل ما كان مقدسًا، حلفت بالثلاثة، (سميرة)، و(برهاني)، و(سامي) أن لا تفتح بعد اليوم فنجانًا آخرَ..

كنتُ كافرًا كل هذه السنوات بفنجان (سنايت)، وكانت تقرأ هي فنجاني وفناجين أصحابي وأنا معها في تلك القعدات المسائية، ولم أنتبه يومًا لما قالت، وبما أنَّني لم أكن مهتمًا به، ربما كانت خطوطه بالنسبة لي ضبابيةً غير واضحة وقراءته صعبة. آلمتني حالة ذلك الشاب، كنت ليلتها بقرب (سنايت) كالعادة، وكغير العادة كنت أهتم بفنجانٍ واحدٍ من بين آلاف من فناجينها التي كانت تقرأها مساءَ صباح، وآلمتني أكثر الطريقة التي آلت إليها وانتهت بها حياة ذلك الشاب..

طلبت منها أن تقرأ فنجاني أنا هذه المرة.

قالت:

– فنجانك مقلوب، ومقلوب منذ ارتشافك لأول فنجان هنا.. منذ سبع سنوات منذ مجيئك هنا، فدعه مقلوبا، وعش حياتك دون أن تحاول معرفة المجهول وسرقة جزءٍ من مستقبلك، إذا كانت أمنية وحلمًا، سيفقدان رونقهما وبريقهما، وإذا كانت نكسة سيسبق لونها الأسود على أيامٍ تستحق أن تعيشها بكل فرح وسعادة، «عش ليومك وبكرة على الله!»، كما كنت تقولها دائما يا (محمودة).

فكنت مُصِرًّا ذلك اليوم، وطلبت منها أن تقلب للأعلى فنجاني المقلوب للأسفل وتقرأه هذه المرة..

وافقت (سنايت)، وفعلت ذلك وما أريده، ثم قالت:

– طائر النورس مرسوم على فنجانك!

تابعت قراءته:

– أنتَ لا تستطيع الابتعاد عن رقعة والفتها، لا تستطيع الابتعاد عن وطنكَ وحيِّكَ به، هو من يعيشك، وإن فرض عليك الضد، مثلما فرض عليكَ الآن، تبحث حيث تكون عن وطنكَ، تصنعه لتعيشه في مكانٍ آخرَ كما تفعله الآن، وجدت في مطعم ومقهى «سنايت» وطنك، فهو يحمل مثله أجناسًا مختلفة أعراقًا مختلفة، ثقافات متعددة، فهذا سر ارتباطكَ بمطعمها ومقهاها.

في النهاية، لاحظت أن فنجاني مقلوبٌ للأسفل، وتأكدت أن (سنايت) رفضت أن تفتح فنجاني وتقرأه.

(سنايت) كانت تقرأني أنا وليس فنجاني.

***

«أرحبا- جيبوتي»

وفي ليلتنا الأخيرة في مقهى (ميمي) و«أرحبا»، أظهر ذلك الشخص موقفًا لا يليق. وقع ورفيقة صاحبة المقهى الآنسة (مريم) في خطأ أخلاقي أساء لهما، قبل أن ينقل ذلك الموقف إساءة لنا، كانت الآنسة (مريم)، ربما أرادت بذلك أن نلتفت إليها، وبطريقة تقليدية مستهلكة وساذجة، تشبه تمامًا تلك الطرق الغبية التي حفظناها عن ظهر قلب من الأفلام الهندية، وأرادت بذلك وبطريقتها إثارة أحدٍ من مجموعتنا الصغيرة التي اختارت زاوية يمنى للمقهى واعتادت الجلوس بها كل مساء، نعم كان أحدنا أو رفيقنا ميالًا لـ(مريم)، دون أن نشعر نحن في البداية، وأحست به هي منذ البداية، شعرت (مريم) بشعور رفيقنا بل اقتنعت مئة بالمئة أن صاحبنا «وقع وقعة سوداء»، وتأكد لنا تلك الليلة أن صاحبنا دخل بكلِّ جوارحه، ولم يبقَ منه شيءٌ في الخارج، ولم يترك لنا ذيله أو حبلًا أو حتى خيطًا لنسحبه به.

آه لو انتبهت للحكاية قبل أن يمتلأ بها صديقنا، وقبل أن يختار لي القدر الرحيل والانتقال إلى مكانٍ آخرَ فُرض عليَّ، مكان اختارته عائلتي ووالدي لي، فأنا أعرف (مريم) حق المعرفة وأعرف أيضا صديقنا (محمد).. كنت وهي على علاقة، لم تستمر، وما كان لها أن تستمر أيضًا، فأنا أوقفت علاقتي بها، واستطعت الإفلات منها بصعوبة.. وكانت تطاردني ليلَ نهار بعد علاقتنا تلك، طاردتني في منامي وحلمي أيضًا، وكان يراودني شيئًا ما ربما كانت قوى خفية وربما كان حنينًا إلى استئناف تلك العلاقة واستعادتها ولشهور عدة، لكني كنت أجبر نفسي لعدم العودة إليها، حتى لا أغرق، فهي أشبه بشيطان وأخطبوت، لا يستطيع أيًّا كان الإفلات منها بسهولة، حتى ليلة ظهورها الأول في مقهانا الليلي عاودني الحنين والشوق إلى أمسياتنا الحالمة والدافئة تلك، لكني استطعت أن أسيطر على شيطانٍ زارني تلك الليلة ويزورني دائمًا عندما أراها أمامي، فوالله لقد كان (محمد) إنسانًا مسكينًا، طيبًا، وسويًّا، وأليفًا، يسمونه في حيِّه شيخ (محمد)، لم يكن يعرف شيخ (محمد) سوى بيت مدرسة ومسجد بيت، وهذه أول سنة يخالف فيها دستور حياته، و(مريم) أول امرأة يعرفها ويعشقها.

وكم تحب المرأة، و(مريم) بالذات أن يكون الرجل هو من يقع في الغرام أولًا، لتتلذذ في تعذيبه وإذلاله وتفعل ذلك عندما تحس

أنَّه سكر بها وشربها حد الثمالة، وعندما تحس أنَّه وصل إلى نقطة معينة، تؤكد وتصر بأن عليه ألَّا يقترب من تلك النقطة، ويظل قابعًا وغارقًا فيها، وهذه النقطة تشبه بحيرة عسلٍ صافٍ، لا يشبع منه المرء، ولا يستطيع أن يخرج منها أو يسبح بها أيضًا نتيجة لكثافته العالية، التي تصعب وتعيق عملية الخروج أو السباحة، وتؤدي به إلى الغرق.. وصلت أنا معها إلى هذه النقطة، لكني ولله الحمد، كنت حالةً خاصةً ولم أغرق.

في النهاية كانت رفيقة سمراء القهوة تمارس على صاحبنا المسكين سادية وغطرسة..

وبعد معرفتنا لذلك حاولنا والرفاق أن نبعد صاحبنا عن آتون تلك الحرب غير المتكافئة، وعن سيدة أعرفها، ذكية ستأخذ منه دون أن تعطيه، وستربطه بقيود، وهي حتمًا ستمارس هي وحدها الحرية، حريتها وحريته معا، ورفيقنا المسكين صار خاتمًا في إصبع (مريم) وأصبح يقاطع، بل ويخاصم كل من يحاول أن يقول له الحقيقة، وأنها ليست خيارًا موفقًا، وأنها تفعل بعض المرات أمورًا لا تقبل القسمة على اثنين، وللأمانة لم تكن تقصد بذلك خيانة وهبوطًا أخلاقيًّا من الدرجة الأولى، وإنما كانت محاولة منها لاستفزازه وإثارته، وهي تحاول أن تشعل نار غيرته..

وعلى كلٍّ كانت تستفزنا نحن أيضًا وتشعل غضبنا، لأجل رفيقنا الذي لا يعرف كيف يتعامل مع النواعم، ولا يعرف أنهن أيضًا قوارض أحيانًا!

كانت (مريم) تأتي إلى مقهانا الليلي لذات الغرض، وأنَّها كانت تحاول إثارته وهي تثير غيره، ومن ناحية أخرى تتحول كل مساء إلى أميرة أحلام وملكة جمال، وهي تزيد إلى جمالها الطبيعي جمالًا آخرَ مصطنعًا، بكريم «دورنوفاد» الشهير، وكريمات أخرى لتبييض وتنعيم بشرتها، وإلى جانب هذا وذاك كانت تشكل (مريم) في ذاتها معرضًا للملابس، فهي تأتي بكلِّ ما كان جديدًا وموضة، وبعطور فرنسية ترغمك على الالتفات إليها مجبرًا ودونما شعور، وتختار كل هذا بعناية وبذكاء كبيرين.

واقتنعتُ أنا منذ معرفتي بوقوع صاحبنا، أنَّه كان محقًّا ليركع ويغرق، فهي تستطيع بطريقتها تلك وبأسلوبها ذلك تركيع قبيلة بأكملها وليس رجلًا واحدًا لا حول له، فما بالكم إذا كان الخصم وطرفُ تلك المعادلة البائسة رفيقنا المسكين الذي لا حول ولا قوة له، ليتحمل كل ذلك القهر والاستبداد، فقد كان شابًا مغمورًا لا يجيد التعامل من الأساس مع الجنس الآخر، ويشبه مع رفيقة سمراء القهوة تلميذًا يرتاد الفصول التمهيدية للعلاقات الغرامية. وفما بالكم إذا

كان الطرف الثاني لتلك العلاقة رفيقة سمراء القهوة الآنسة (مريم)، وشابة تحمل الفتنة والفطنة، وفتاة أشبه بسيدة معلمة وخبيرة..

تركت جيبوتي و»أرحبا» مرغمًا، وتركت صديقي (محمد) على فوهة بركان وفوق صفيحٍ ساخن، لا يستطيع (محمد) الانفكاك والالفات منه، ولا أستطيع أنا فعل شيءٍ سوى الدعاء لحيي، وجيبوتي، و(محمد)..

***

نقاليد نقنل ملكا

عمتي (فاطمة) فرحت بقدومي ومجيئي لـ«طيعو»، رغم أنه كان فرحًا ممزوجًا بخوف علينا، كان خوفها له أساسٌ، وممَّا هو موجود في الوطن من حالات غموض ومعاناة يعيشه من سنين طويلة، وفي مقدمة تلك المخاوف والهواجس والمعاناة التجنيد الإجباري الدوري والدائم والذي لم يكن لديه، لا ملة ولا دين، وليس له عرف وتقليد متبع ولا إطار وسقف معين، لا ينفع معه توسل ورجاء ولا وساطة، ولا اعتبار في الوطن لوجهاء الأمة وعلماء دين، ولا لأي شيءٍ آخر، وكانت عمتي تتمنى دومًا عودتي حيث كنت مع عائلتي في جيبوتي وتواصلت من أجل ذلك مع والدي الذي رفض عرضها وأصر على إقامتي هنا في «طيعو»، ولا يعبأ بما قد تشكله إقامتي وخطورة ذلك في محيط يُحكم بالحديد والنار، ولا يعرف الرأفة والشفقة، وحوَّل البلد الي عساكر وجنود، فالمعلم يصيبه التجنيد، والطبيب، وكل موظف حكومي، والصياد والمزارع، فكل هؤلاء والوطن لا يمكن لهم اختيار ما يناسبهم بل النظام يختار لهم. بقاءك في الجيش وتحريرك المؤقت منه بأمرهم أيضًا.

عمتي كانت خائفة عليَّ، مثل كل الأمهات وأسرها على أبنائها في «طيعو» والوطن بشكل عام، وكل مرة كانوا يأخذون دفعات من «طيعو» قسريًّا ويتم تركي وإهمالي، وربما كان سبب ذلك دعاء عمتي، فهي تدعو لي في كل صلواتها دومًا.

كنت رفقة (قعص) و(أحمد) نشرب ونرتشف في بيتنا، بيت عمتي (فاطمة) قهوة «الجبنة» التي كانت تعدها (صالحة) زوجة (أحمد) وابنة عمتي (فاطمة)..

والجبنة عبارة عن وعاء مصنوع من الفخار نعد بها قهوتنا التقليدية، وتوضع القهوة بعد تحميصها وطحنها داخل ذلك الوعاء أو «الجبنة».

وللقهوة وارتشافها عندنا.. طرق وطقوس وشروط. نقوم أولًا بإحضار حبيبات البن أو القهوة بعد تنظيفها ونضعها على وعاء تحميصها.. ونقوم بإحضار موقد الفحم التقليدي الذي نطلق عليه «فرنيلو»، وكذا المروحة اليدوية التقليدية ذات الشكل الدائري، والمصنوعة من السعف وتدعى بلغتنا «ماسرفا».. وإحضار طاحونة القهوة أو ما نسميها «المدق»، ووعاء «الجبنة» وصينية عليها فناجين القهوة التقليدية الصغيرة الحجم، ويكون اللبان حاضرًا مع مبخرته التقليدية ويملأ بخوره، ورائحته الندية الأجواء

في مكان ارتشافنا للقهوة، ويكون الفشار المغلي حاضرًا ويُقدم للجميع مع فناجين القهوة، والزنجبيل المطحون ونكهته المنعشة حاضرة كذلك ليضاف إلى القهوة، وأخيرًا تكون الأدعية حاضرة وهي نوعان، الأول دعاء اللبان، والثاني دعاء الفنجان الأول، وقبيل ارتشافنا القهوة يصب اللبان على المبخرة، ويدعو أحدنُا للولي الصالح الشيخ عيدروس هذا الدعاء:

«عيدروس بحر النفوس ساكن عدن تنفعنا بركاتكم، وبركات علومكم»، ويختم الدعاء بفاتحة الكتاب.

ودعاء آخر عند تقديم الفنجان الأول، وهو للشيخ الشاذلي:

«يا شيخ الشاذلي بحرمتك وبحرمة كل ولي.. الفاتحة»

وتقرأ سورة الفاتحة كذلك بعد هذا الدعاء ويتم بعد ذلك مباشرة تقديم القهوة للحضور، وتقدم تباعًا من الكبير إلى الصغير.

ونرتشف كذلك فناجين قهوتنا بطريقة خاصة وتقليدية، تبدأ بـ«الشاذلي» وهي الدفعة الأولى لفناجين القهوة، وهذه الدفعة تكون مركزة جدًا، وبعد الانتهاء منها يتم إعادة «الجبنة» إلى «الفارنيلو» أو موقد الفحم التقليدي، ويضاف الماء إلى مسحوق القهوة المتبقي داخل «الجبنة» ليكون تركيزها أقل، ونطلق على هذه الدفعة «رجعة»،

وبعد الانتهاء منها، تُعاد القهوة لثالث مرة إلى «الفرنيلو»، وتُضاف إليها كمية من الماء، وهذه الدفعة تسمى «بركة»، والرابع والأخير دفعة يطلق عليها «إلياس» وهي قليلة التركيز..

وعلى الجميع ارتشاف فنجانٍ واحدٍ على الأقل من كل هذه المراحل والدفعات.

كانت (صالحة)، تعد لنا قهوة «الجبنة»، رفقة جارتيها (حواء)، و(عائشة)، وصديقة أخرى ثالثة يبدو أنَّها ريفية تمدنت سريعًا، وكانت (سعيدة) تأتي لغرض ونوايا اكتشفناها لاحقًا وكذا لغرض شكلي آخر كان مكشوفًا منذ البداية، والسبب الأخير كان ثانويًّا وربما كان تمثيلًا في البداية، وتحول بعد ذلك إلى شعورٍ حقيقيٍّ، كانت تأتي من أجل (قعص)، أوحى لنا بذلك حركاتها، وارتباكها ونظراتها، وهمسات وغمزات البنات لبعضهن وضحكاتهن من حركاتها وتصرفاتها، وخصوصًا جارتي (عائشة) و(حواء)، كان يبدو ذلك جليًّا عندما تقدم القهوة لنا وتحديدا لـ(قعص)، لاحظ ابن عمي ذلك مثلي، وعرف نواياها الطيبة، وربما لم تكن طيبة، وعلى كلٍّ لم يكن (قعص) يرتاح لاهتمامها، لم يتجاوب معها، ولم يكن ينوي بالمرة خوض تجربةٍ عاطفيةٍ أو ارتباطٍ عاطفيٍّ معها، وهذه الفتاة كانت ناقلة أخبار وأسرار، وتحاول وتجتهد لتعرف كلَّ ما كان خافيًا

في المدينة من أمورٍ، بعض ما كانت تنقله حقائق، وأخرى مزيفة، تنقل (سعيدة) كذلك في أذن (صالحة) كلامًا بشأن ذلك المكان، أقصد مقهانا، وتقول لابنة عمتي أنَّني مغرمٌ بـ(سنايت) وأنَّها ساحرة، لا يستطيع كل من يرتاد مقهاها المكوث في بيوتهم، أو ارتياد مطاعم ومَقَاهٍ أخرى بالمدينة.

لم يكن ذلك صادقًا بالمرة، كان بهتانا في بهتان، (سنايت) كانت لطيفة، ومحترمة، وطيبة معنا، ومع كل من يرتاد مقهاها ومطعمها... تعرَّفت على (سنايت) في بداية قدومي إلى هنا، وأقدرها وأعِزُّها مثلما أعزُّ بنت عمتي (صالحة)، وزوجها (أحمد) و(قعص)، وكل عزيز هنا.

كانت زوجة (أحمد) تسعد كلما تزورها تلك الريفية، بما تملكه من قصص وروايات جديدة عن (سنايت)، وعن مقهاها، وعنا نحن، وكان اتهام زوجة (أحمد) لنا أساسه غيرة ليس إلا، فهي تغار على زوجها من مقهى «سنايت» ومن (سنايت) وربما من ابنتها، ولذا كانت تجبرنا على ارتشاف القهوة في بيتنا، وكنت أوافق أحيانا إرضاءً لـ(صالحة)..

كان (أحمد) يقول دومًا لزوجته بأنَّه لا يرتشف قهوة أخرى سوى فنجانها، وقهوة أمِّه، هذا ما كان يقوله (أحمد) لزوجته، ليثبت لها

إخلاصه، وولاءه، وعشقه لها، ووددتُ ذات مرة في جلسة ثلاثية جمعتني بهما، أخبار (صالحة) مزحة، بأنَّ (أحمد) ارتشف معنا قهوة في مقهى «سنايت» أكثر من مرة، لم أقل ذلك بعدما رأيت جدية (صالحة) وعدم رغبتها ارتشافنا قهوة «سنايت»، كانت (صالحة) لا تستسيغ بل وترفض ارتشافنا فناجين القهوة في مقهى «سنايت» وخصوصًا مع زوجها (أحمد)، وماذا لو قلت لها أنَّ زوجها احتسى شيئًا آخرَ رفقتي والعقيد (كيداني) في ذلك المكان وأكثر من مرة، مؤكدًا كانت ستجن وتقيم الدنيا وتقعدها، ومؤكدًا لن أقول لها أنا ذلك أبدًا في كل الأحوال..

وربما عرفت (صالحة) ذلك بنفسها وفطنت له، وأقامت الدنيا وأقعدتها تلك الليلة وانتهى الأمر.

كانت ثالث ليلة يرافقنا فيها (أحمد) سهرتنا وهذه الليلة لم يكتفِ (أحمد) بعلبة واحدة من البيرة، كما كنت أفعل أنا دائمًا، ونبهته أنْ يفعل ذلك في السابق وفي ليلته الثالثة والأخيرة تلك.. بالغ (أحمد) ليلتها في احتساء البيرة ورفض نصحي واحتسى ست علبٍ منها.. بالغ ابن عمي في الشرب كما كان يبالغ تمامًا في التدخين، فهو يدخن علبة ونصف العلبة يوميًّا من السجائر...

لم يستطع (أحمد) ليلته الثالثة أن يراوغ زوجته، كان مخمورًا تلك الليلة لدرجة أنَّه فقد الوعي بداية في مجلسنا، وسكبنا هناك على رأسه جردلًا من الماء البارد، وبعدها تحسَّن قليلًا، وغادرنا واتجه إلى منزله، ووصل منزله في حالة صعبة لم يعرف معها موقع باب بيته، كان يطرق نافذة بيته متخيلا أنَّه الباب، وفوق هذا وذاك كان ينادي زوجته بصوتٍ عالٍ ومزعج، وكانت (صالحة) نائمة وفي عالمٍ آخرَ منذ أكثر من ساعتين، والوقت كان متأخرًا في حدود منتصف الليل، حيث ينام الجميع في مدينتنا، وأيقظ صوته وصياحه المزعج عمتي والجيران، كان ذلك أيضًا بعدما استطاع أن يقبل رأس (صالحة)، ويغشها، ويراوغها ليلتين متتاليتين، وعلى كلٍّ انتهى ذلك الأمر سريعًا، وفي صبيحة تلك الليلة توصلا إلى حلٍّ للقضية وديًّا، وانتهى على ألَّا يعود (أحمد) إلى ذلك ثانية، وأن تعود (صالحة) إليه بعدما غادرت ليلتها عشَّ الزوجية إلى منزل والدتها الملاصق لبيتها، كان رفض (صالحة) لسلوك زوجها تلك الليلة أكثر من رفضها لاحتسائه ذلك الشراب، كانت محرجةً للغاية، أحرجها (أحمد) مع الجيران وأهل الحيِّ، وتمنت ليلتها أن تنشق الأرض وتبتلعها..

عمومًا اتفقا (صالحة) و(أحمد) وتصالحا سريعًا، ولم يعد هو فعلًا منذ ذلك اليوم إلى مجلسنا، وأنا ولله الحمد لم أعد

يومًا إلى بيتنا في حالة صعبة.. فلم تشك عمتي بي يومًا.. وأمَّا (صالحة) فكانت تشك بي أحيانًا، لكنه مجرد شكٍّ، وكنت أفنِّده، وكانت تصدقني، وربما كانت تفهم ذلك وتتفهمني وتغض الطرف عن أمري، فما دمت لا أسبب ولا أتسبب في إزعاج الآخرين ونفسي، وما دمت منتبهًا وحريصًا على عدم تفطُّن من حولنا بالأمر فلا مشكلة ولا يهم، كان ما يهمها الناس وكلامهم ونظرتهم لنا ولعائلتنا، ولم أكن أيضًا مدمنًا للكحول مثلما كنت مهووسًا به في مسقط رأسي، وهنا لا أسعى إليه، إلَّا إذا سعى إليَّ هو بنفسه، والأمر الأخير نادر الحدوث في مدينتنا، أمَّا صديقي (قعص) فكان لا يستسيغ شيئًا آخرَ غير الفنجان فهو صديق القهوة ووفيًّا لها...

وكنت أوافق (صالحة) أحيانًا رغبتها في ارتشافنا لفنجان البيت و»جبنة» البيت معها و(أحمد)، ورفقة جارتيها في بدايات قدومنا، وجارتي كانتا لطيفتين، ومشاكستين، وودودتين، (عيشة) و(هاوا)، ربيعيتين عشرينيتين..

كانت (حواء) تشعر بشيءٍ ما أو شعرت بنا نحن أنا و(عائشة) خلاف (صالحة)، و(قعص)، و(سعيدة)، وأيًّا كان في «طيعو»، وربما كان ذلك فضولًا منها لمعرفة ما يدور في دواخلنا، على كلٍّ

لست متأكدًا من ذلك، وتفكير (حواء) وشعورها، فقط ما أعرفه أنَّها كانت تقول لي في تلك القعدات التي تجمعني بها و(عائشة)، أنَّ رفيقتها (عائشة) تشبه هلالًا، وبدرًا مكتملًا، وقمرَ ليلة الرابع عشر، ضياءً وبهاءً، وتشبه وردة الربيع الحية والمتفتحة، علينا ان نصنع الصعاب واللاممكن، ان نصنع ربيعا بألوانه المتعددة، او شتاءا تمطر ثلجا، هنا في طيعو اذا ما اردنا وصالها وقربها.

يا سيدي (عائشة) غزالًا شاردًا، وعناقيدَ عنبٍ متدلية اكتمل نضوجها وحان قطافها، هي فاتنة قانية، لا يحتاج جمالها إلى تطعيمات وإضافات خارجية كالمجوهرات ومواد التجميل، فتمتلك رفيقتي جمالًا خالصًا طبيعيًّا ربانيًّا، لا يحتاج إلى تحايل، فهي بتفاصيل وهوامش تحير العقل والمنطق، وقوامٍ ممشوقٍ، وطلةٍ بهية، وعيونٍ عسلية، ووجنة نضرة، وبشرة ناعمة نعومة الحرير.

(حواء) كانت تقول لي ذلك بصمت، وتقول أيضًا وبصمتٍ:

– ألا تجبرك رفيقتي بكل ما تمكله من جمال متدفق وأنوثة طاغية على الإنحناء لها والركوع؟! أو لا يكسر كل ما لديها أنفك المرفوع دومًا؟ ولِمَ لا تطأطئ رأسكَ العالي لتنظر إليها يا (محمودة)؟

أو يعقل ألَّا يغريك الملاك الساكن في عينيها؟!

فهي بلون الشيكولاتة البني والقمحي، بخصرٍ رشيق، وشعرٍ حريري مرسل، وخطوات لولبية.. يا سيدي، كان يكفى نصف ما تملكه رفيقتي ليذيب جمادًا وحجرًا، ناهيك عن رجل عادي مثلك!

(عائشة) قصة جمال خيالي يـروي حكاية عشق قـادم من «الماورائيات»، هي وطن الإحساس ومنبع العشق ومدرسته، هي شلال من المشاعر الملتهبة ، وبحر من الدفء والحنان، والأبهى يا سيدي وجهها «الموناليزي» الحائر، وشامة خدها المدهشة، والأروع ابتسامتها السحرية القاتلة، و(عائشة) لعلمك يا سيدي رفضت عروض نصف مدينة قدمت منها، ويتمنى بل يحلم شباب هذه المدينة نظرة من عينها، فأصرت على ألَّا تلتفت لأحدٍ هناك وهنا.

أولا يلهمك الإلهام بعينه؟ أولا يغريك الإغراء ومنبعه، و(عائشة) يا رجل؟!

أليست (عائشة) أجمل، وأرشق، وأحلى ممَّن تعطيهم وقتك واهتمامك؟

وأنا بدوري كنت أقول لها:

- حقيقة لا توجد في «طيعو» وفي أيِّ مكانٍ في العالم من تقاربها ومن تشبهها.. ولعلمك أيضًا يا آنستي رأيت أكثر من هذا في (عائشة).. ولي أسبابي لعدم الاقتراب منها، ولأعيش غربة إلزامية قاهرة، ولرفيقتك (عائشة) أسبابي وأسبابها.. ولعلمك في النهاية، ليس لدي اهتمام وخيارات عاطفية في مقهاي، وأن بعض الظن إثم.. يا سيدتي!

وكل ذلك بكلام صامت دون كلام ولا حديث مباشر جمعني بـ(حواء)، كانت (حواء) تقول ذلك لي مواربةً، وأنا أقولها مثلها مواربة، فالكلام والحديث هنا مشفَّر، وبالكود، لاسيما إذا تعلق بالمشاعر.

كانت عمتي (فاطمة)، و(أحمد)، وزوجة (أحمد) لطفاء وكرماء معي، كانوا يمنحونني كل ما أحتاجه، وحتى إن لم أكن محتاجًا، وإن كان لدي ما يكفيني، وكنت بتلك المنح والهبات مَلِكَ مجموعتنا الذي لا يفارق جيبه المال، كان يكفي إيقافُ تلك الهبات حتى أكون وفيًّا لقهوة البيت، ومقاطعة المقاهي، والمطاعم التجارية كان يكفي إبعادي عن مقهى ومطعم «سنايت» بهذه الطريقة، لكنهم لم يفكروا يومًا بذلك.

لم تكن تحب زوجة (أحمد) ارتيادنا لذلك المكان وخصوصًا (أحمد)، وزوجها يبحث عني دومًا لنجلس معًا في مكان اخترته أنا، كان ذلك يزعج زوجته، ولذا كنت أفضل البيت على المقهى إذا كنت رفقة (أحمد) أو أطلب منه أن يغادر مجلسنا ومقهى «سنايت» مبكرًا حتى لا نتعرض لهجوم زوجته.

كثر عتاب (صالحة)، ورأيتها ذات مرة تبالغ في ذلك، فقلت لها:

- يا أختي أنتِ مسئولة عن زوجك وعن تصرفاته، أما أنا و(قعص) فلسنا مقيدين، نحن طلقاء نجلس في المقهى، في القمر، ونختار الجلوس أينما نريد ونحب، ومن الآن فصاعدا أنا وزوجك «عيسى بدينه وموسى بدينه»، بمعني هو من طريق وأنا من طريق آخر بعد اليوم، كان ذلك أول مرة أتحدث مع بنت عمتي بهذه اللهجة السوقية..

صمتت (صالحة)، لم تقل لي شيئا ليلتها.. وفي صباح اليوم التالي، كانت تنتظر خروجي من غرفتي.. وفي حوش منزلنا وأنا متجه نحو الباب، وقفت أمامي، واعتذرت، ومع الاعتذار منحتني ورقةً نقدية، كان مصروفي اليومي أو الأسبوعي.. منحتني مائة نقفة، رفضت هذه المرة اعتذارها والنقود، قلت لها:

لست محتاجًا للمال، اعطها لغيري، ابحثي عن معوزٍ أو محتاجٍ آخر غيري، واعطه له!

ما كان ينبغي أن أقول لها ذلك بالمرة، هي أختي الوحيدة هنا، فعمتي ليس لديها أبناء سوى (صالحة) وأنا..

المشكلة أنَّني لا أسيطر على أعصابي عندما أغضب وأثور، ولا أستطيع السيطرة على مشاعري وعواطفي عندما أعشق وأهوى، ولا أسيطر على دموعي عندما أحزن وأحنُّ، مع كل ذلك، ومع كل ما قلته لها من أمور لا تليق، إلَّا أنَّها كانت تحاول إرضائي، وأصرَّت أن أقبل منها المال، رفضتُ عرضها من جديد، وخرجت من بيتنا صوب مقهاي، وفي طريقي إليه تعوذت من الشيطان وشعرت بالخجل من تصرفي، عاتبت نفسي ولمتها..

أهذا أنا؟؟ وهل يجازى إحسان عمتي، وابنتها، و(أحمد) بهذه الطريقة يا (محمودة)، عيب، ولا يليق ما تفعله، قلت هذا لنفسي، وهذه المصطلحات السوقية التي تفوهت بها، لم تكن تعرفها (صالحة) نهائيًا، ولا يعرفها أحدٌ هنا، أتيت بها من مكانٍ بعيد وزمن بعيد، ولم تفهم كذلك شيئًا من كلامي.. كانت تفهم وتعرف فقط أنَّها أغضبتني وأخطأت في حقي، وربما تخسرني، وعليها أن تعتذر وتعيدني..

جاءت (صالحة) إلى مقهى «سنايت» تبحث عني، وأصرَّت ثانية هناك أن أقبل عرضها، وأكدت لي أنَّها لا تتركني لا في المقهى ولا حتى في القمر إذا لم انصاع لأوامرها وأسمع كلامها وأضع الفلوس في جيبي، فقلت لها ما بين المزح والسخرية:

- يا اختي انت اتيت الي المقهى وربما تصعدين الي القمر كذلك!

ضحكت هي، وضحكت أنا، لأنَّها كانت تحاكيني، فأنا من قلت لها (مقهى وقمر) مساء البارحة.

في عامي الثاني في «طيعو» سافرت جارتي (عائشة) رفقة جدتها إلى جيبوتي أو بالأحرى عادت إلى بيئتها وبيتها ومن حيث أتت، وولدت، وترعرت، خطبت غيابيًّا هنا في «طيعو»، وأقيم عرسها هناك، رتبت العائلة لها حفلًا مهيبًا كبيرًا لعقد القران، وبعده بأسبوع واحد تم حفل زفاف مهيب ورائع، يضاهي بهاء العروس وروعتها في قاعة حفلات محترمة وأنيقة في العاصمة جيبوتي، يبدو أن كلَّ شيءٍ كان جاهزًا لكرنفال (عائشة) وكانوا في انتظار العروس، (عائشة) تربَّعت وبجدارة على عرش جمال مدينتنا، ومؤكدًا أنَّها ستتربع اليوم مجددًا على عرشه في جيبوتي كما تربعت عليه قبل قدومها إلى هنا، ربما تنافسها (حواء) وتقتسم معها جمال المظهر

والجوهر، إلَّا أنَّ (عائشة) تتفوق على رفيقتها (حواء) بأمورٍ جوهريةٍ لم تكن تملكها رفيقتها بالمرة.

أمَّا جارتي الثانية (حواء) كانت ترفض منذ سنوات عريس عائلتها وابن خالها (سعيد) رغم كان أنَّه ميسور الحال، يملك سفينة صيد لائقة، ويعمل بكلِّ جدية، وبحري أصيل، لا وقت لديه للهو وللعب، ومكوثه وإقامته في «طيعو» كانت نادرة وقليلة، وإن حدث ذلك فهو في بحرها وليس في برها، لا يبرح سفينته ليلَ نهار، فهو صاحب المال (السفينة) وهو بحارٌ عاملٌ وهو «ناخوذة» (قبطان) ليس لديه وقت ليتغزل بـ(حواء)، ولا يستطيع أن يجلس في وجهها طوال النهار يرتشف معها فناجين القهوة الصباحية والمسائية ويتجاذب معها أطراف الحديث، هي تقول عنه، أنَّه خُلِقَ للبحر، ورغم أنَّه ميسور الحال فهو بخيل، يبخل حتى على نفسه، فتقول (حواء) كيف أعيش مع رجل بخيل كهذا؟ وتقول أيضًا إن أكله تقشف وملبسه بسيط، أما هي فكانت آخر «دلع»، وقمة الدلال، متعالية متكبرة ونُخْرَتُها في السماء، تسلِّم على الجميع بأطراف أصابعها، ولحسن حظها أو ربما لسوئه، فهي وحيدة أبويها، وفروا لها كلَّ ما تحتاج إليه، فكل طلباتها مجابة، فهي تلبس الأغلى وتأكل الأشهى دائمًا، وربما كانت تحلم (حواء) بأبطال تلك المسلسلات

المكسيكية والهندية التي كانت وفيَّةً لها وتتابعها كلَّ مساءٍ من العصر إلى منتصف الليل، كان عليها أن تفهم وتدرك أنَّ أبطال تلك المسلسلات هم على مقاس بطلات تشاركهن البطولة ويشبهونهم، أمَّا هي لا تشبه أبطال تلك الأفلام وإنَّما تشبه (سعيد)، و(قعص)، وتشبهني أنا أيضًا، وأنَّ رائحة السمك التي تعيبها على (سعيد)، والتي تقول أنَّها تفوح من جسمه وترفضها، هي نفس تلك الرائحة التي كانت تفوح يومًا من جسد والدها، ومن أجساد آبائنا وأجدادنا، فمن لا أصل له لا فصل له، رفضت (سعيد) ذات يومٍ وربما كانت تلاحقها لعنته، منذ رفضها له، فلم يتقدم لها بعده عريس آخر، رغم أنَّها أجمل شابة في المدينة رفقة (عائشة) التي سافرت وتزوجت خارج «طيعو».

أخبرني (قعص) ابن عمي لاحقا وفي عامي السابع في «طيعو»، أنَّه كان معجبًا بها، وأراد ذات يوم الارتباط بها، لكنه قال أنَّه كان مخطئًا في ذلك، وحمد الله أنَّه اكتشف خطأه بسرعة، واكتشف أنَّها لا تناسبه رغم جمالها الأخَّاذ والساحر، فقال (قعص):

– إن تلك الشابة مزاجية لا تعرف ماذا تريد وماذا يناسبها بالضبط.

هي لا تريد (سعيد) الميسور الحال وخسرته، وخسرت (قعص) الطموح الذي درس الميكانيكا في معهد فني ميكانيكي في «مصوع»،

ومجند يعمل مع القوات البحرية، ويقوم كذلك بإصلاح مكنات معطوبة للصيادين، ويكسب من عمله قوت يومه وزيادة. (حواء) خسرت (سعيد)، وخسرت (قعص)، لا هذا ولا ذاك ولا غيرهما أيضًا، وتقدم لخطبتها كثيرون فهي جميلة فاتنة، لكنها أصيبت بلعنة (سعيد)، لذا فهي إمَّا أن ترفض كلَّ من يتقدم لها بطريقة سعيد ، وإمَّا أن يرفضونها بطريقة (قعص).

ما الذي كانت تملكه تلك الأربعينية (سنايت) لتحدث كل هذه الضجة، والقلق، والغيرة، والقذف؟ لماذا هي وأنا مثلا؟ ولماذا لا أكون أنا وابنتها؟ لِمَ لا يتهمونني و(سميرة) مثلا؟ فـ(سميرة) مثلي عشرينية، كان كل ذلك بهتانا، ولكني كنت أفضَّل البهتان الثاني على الأول.

سألتني جارتي (حواء) ذات مرةٍ وفي بدايات قدومي، ونحن نرتشف معًا رفقة (عائشة) و(قعص) قهوة أعدَّتها لنا ابنة عمتي في بيتنا:

- ألا تلهمك وتغريك إحداهن أو واحـدة في «طيعو» غير (سنايت)؟ وماذا تملك هذه الأربعينية من أدوات الإغراء والانجذاب نحوها، وماذا لديها لتفضِّلها على الجميع هنا؟

وقرأت سؤالًا آخر في عيني (عائشة) يختلف تمامًا مع سؤال رفيقتها، كانت (حواء) تعتقد أنَّها متأكدة وواثقة من كلامها، وكلها

إيمان أنَّني واقع في شراك صاحبة المقهى، وأنا كنت واثقًا من شيءٍ آخر، ووقوعي في شراك آخر قريب من (حواء) وبقربنا الآن، وتسحرني اللحظة تلك الروح وهي تخفي ووجهها وتنظر للأسفل حياءً وخجلًا، من سؤال رفيقتها.. كانت (عائشة) تخفي خلف صمتها الدائم أمورًا مهمة، وتأسرني بصمتها وحيائها الجميلين، وحضورها وشخصيتها الملفتتين للغاية، على كلِّ حالٍ كانت جارتي (عائشة) شبه مرتبطة، «محجوزة» منذ أن كانت طفلة، و«حُجزت» قبل قدومها إلى «طيعو» وفي سنٍّ مبكر، لـ(عبد الله) ابن خالها، لذا فالحديث المطول معها كان ممنوعًا أدبيًّا، وألزمتُ نفسي بذلك منذ أن سمعت بالأمر... وقبل سماعي من الأساس بموضوع «الحجز» الظالم هذا، كنت أخجل منها، مثلما كانت هي تخجل مني، فكنت أسحب نظرتي سريعًا إذا تصادمت بنظرتها، وألتفتُ سريعًا صوب (حواء)، و(سعيدة)، و(قعص) وأيًّا كان..

السبب لديَّ أنها تشبه شمسًا..

ولا أدري السبب لديها!

ويا الله، كم كانت تلك الشابة مفعمة بالحياة! لم تشغل بالي ولم أهتم يومًا ولهذه الدرجة بآنسة، لم تثرني امرأة هنا ولا في بلدي مثل

(عائشة)، واكتشفتُ معها أنَّني لم أقع طيلة حياتي فريسةً للحب، وإذا وضعتُ في كفةٍ كلَّ من عرفتهن في حياتي و(عائشة) في كفة أخرى، مؤكدًا أن كفة عائشة سترجح بلا شك.. اكتشفتُ معها أيضًا أنَّني لم أعرف امرأةً، لا عشقًا، ولا شيئًا بالمرة قبلها.. فأنا كنت أمارس أنصاف الحب، وأشباه العشق، وأمارسه على طريقتي.. ربما ما كنت أفعله قبل لقائي بـ(عائشة)، إعجابًا أو تمهيدًا، أو تدريبًا للعشق، لا أكثر من ذلك، لم أقع في حياتي في غرام امرأة سوى لحظات، و لبعض الوقت، وأكثر تلك العلاقات والتي سأسميها اليوم اللاعلاقات، علاقتي بـ(مريم)، كان ذلك بعد تخرجي من الثانوية العامة، وامتدت وتواصلت علاقتنا تلك لعامٍ كاملٍ، وبعده، نُقلت سفارتي إلى مدينة أخرى وهكذا.

في «طيعو»، وكذلك في مدينة «دخل» الواقعة جنوب جيبوتي، وعلى بعد مئة كليلومترٍ من العاصمة جيبوتي، وهي المدينة التي ينحدر منها (موسى إبراهيم) والد (عائشة)، ففي محافظة «دخل» أيضا يطبِّقون نظام «الحجز» ويسمى بزواج «أبسوما»، ويعني ذلك أنَّ الفتاة «تحجز» لابن خالها، وقد يكون الخال مباشرًا أو بعيدًا، المهم الفتاة تزف لابن الخال، والعادات هنا وهناك تفرض احترام ذلك وإلزاميته، وعمومًا تقرُّ التقاليد والعادات في عرف العفر ذلك ولا يقتصر ذلك على «طيعو» و«دخل».

كنت أستغرب وأمقت هذه العادة القاتلة لمثلي ولمثل (عائشة)، وكنت أرى فيها ظلمًا وإجحافًا، ويعني ذلـك، أنـتَ وحظك ونصيبك.. ربما تفرض عليك التعاسة الأبدية، وتزف إليها مرغمًا وأنت تراها والعالم معك، فالتقاليد أو العائلة هي من تختار لك وتزفك إلى من تحبها أو تختارها هي، وليس من تحبه أنت أو تود الارتباط به، و«الحجز» يبدأ مبكرًا وفي سن الطفولة، ورفض ذلك والعودة ممنوعان في الغالب.

(عائشة) ستكون من نصيب ابن خالها (عبد الله).. سيزفون الملاك الي الجن، ولله في خلقه شئون، صحيح أنَّ عم (محمد) والد (عبد الله)، رجلٌ شهمٌ وكريمٌ، ولا يختلف اثنان حول شخصيته، فهو ذو شخصية قوية جدًا، رجلٌ بمائة رجل، وربما لم يترك عم (محمد) شيئًا من الرجولة لـ(عبد الله)، نستطيع القول بأن عم (محمد) لم ينجب رجلًا بالمرة، فلديه خمس بنات و(عبد الله) سادسهم، لا يختلف بشيءٍ عنهن، اللهم لا شماتة.

كان والد (عائشة) ووالدتها وإخوتها و(عبد الله) ابن خالها يقطنون بجيبوتي العاصمة، ويعيشون في حي «انقيلا» الشهير في وسط العاصمة وشهد ذلك الحي ولادتها ونشأتها، وأقامت هنا في «طيعو» مع جدتها وجدها، وتعتبر هذه المدينة البحرية مسقط رأس

والدتها، وبلدة أمِّها. وانتقلت عائشة إلى «طيعو» قبل مجيئ اليها بثلاثة أعوام، كانت في ربيعها التاسع عشر عند قدومها ومجيئها «طيعو»...

وفي العام الثاني من لقائنا عاد ملاكنا إلى موطنه الأصلي.. وربما عاد إليه ليموت قهرًا فيه، فزواجها من (عبد الله) يعتبر بطريقة ما وبأخرى موتًا..

كانت (عائشة) وفيَّةً لأهلها وأصيلة، فهي لا تستطيع أن ترفض شيئًا لهم، ولا أن تقول لعائلاتها كلمة «لا»، لم يكن ذلك خوفًا منها وإنَّما حياءً، واحترامًا، وتقديرًا لأهلها، لا تستطيع أن تقول لا، حتى وهي تقاد إلى القبر.

غريبٌ أمرك يا موروثنا، ويا عرفنا، فـ(عائشة) مثلي أنا تمامًا ضحية أعراف ظالمة وتقاليد مجحفة، فلطالما خبأت هذا العشق من الجميع حتى من أقرب المقربين، ومن صديقي (قعص).

حطموا حياتها، قبل تمزيق قلبينا..

وجعي أنت يا وطني

وجع يقطن نفسي وقلبي

يسكن قربي، وحولي، ومحيطي.

وجعي توليفة أحزان

سرب مآسي

مواجع بالجملة

وجعي ليس له حد وفواصل

وجعي مكتوب في لوحي

منقوش في قلبي

مرسوم في الفنجان.

عمومًا انتهت حكاية ذلك الوجع وقصتي مع (عائشة موسى) منذ ست سنوات..

لماذا (سنايت)؟

(حواء) كانت قد تساءلت وسألتني، وجاء وقت التصريح كذلك بعد زمن من اللف والدوران، (عيشة)، و(هاوا)، وصديقة أخرى كن يتحدثن معي بالمواربة وبالكود وبالرموز.. لم أكن أفهم ذلك في بداية قدومي إلى هنا، لكني والفته مع مرور الوقت وسريعًا.

كانت (عائشة) تكبر في نظري من يوم إلى آخر، فهي نادرًا ما تتحدث معنا، بخلاف (حواء) الجريئة والكليمة والتي تصدِّع

رءوسنا بصراخها وحديثها المشفَّر. وكذا خلاف صديقتها الثالثة (سعيدة) التي تسرد لنا دومًا قصصَ هذه المدينة وحكاياتٍ نائمةً خلف أسوارها، وأحاديثَ يُفترض أن لا تخرج من أسوارها وتظل مكانها، وأحاديث لا نحب أيضًا سماعها..

أجبت على سؤال (حواء)، وقلت لها وبسرعة ودونما تفكير:

- (سنايت) لديها قهوة تعدها بطريقة مختلفة، فإذا لم أرتشف مثلًا، يوميًا فنجانًا واحدًا من قهوتها، أمرض وأصاب بصداعٍ نصفي، ولديها كذلك في مطعمها طبقٌ ولا اشهى! هو طبق «الزقني» المفضل لدي، هذا ما لديها وهذا ما دعاني أزور وأتردد على مقهاها ومطعمها دوريًّا، واكتشفت هناك مع مرور الوقت أمورًا أخرى استهوتني، وألهمتني، وجعلتني أتعلق أكثر بذلك المكان.

أمَّا أنتِ يا (حواء) فلديك أمورٌ مهمةٌ، أكبر، وأكثر، وأهم من (سنايت)، فإلى جانب جمالك المبهر والآخاذ، فبسم الله ما شاء الله فأنت أولا صغيرة السن، ومقبلة على الحياة وفي بدايتها، وألف ألف من يتمناك، وثانيًا أنتِ يا أختي تنعمين بصحة جيدة ولله الحمد، أمَّا (سنايت) هي سيدة تجاوزت سن الأربعين وتتجه نحو الخمسين، هل تعرفين معنى ذلك يا (حواء)، وأخيرًا، ما أعلمه عنها وما لا

تعلمونه أنتم عنها، أن (سنايت) تعاني من مرض السكر، وعانت من أمورٍ أخرى كثيرة مؤلمة في حياتها.

كنت ألاحظ وأنا أجيب على سؤال (حواء)، أنَّ رفيقتها (عائشة) أكثر تأثرًا بما كنت أقوله لهم..

تغير وجه (عائشة) وأحست بالذنب وتأنيب الضمير وكأنها كان عليها أن تسكت رفيقتها، فضمير (عائشة) حيٌّ وروحها جميلة أيضًا، مثل وجهها المتلألئ، القمري، والقوس قزحي، وبدا لي كذلك أنَّ (عائشة) تمنَّت أن لم تسأل رفيقتها ذلك السؤال، وليت صديقتها لم تعقد تلك المقارنة السخيفة، وليتها لم تتهمنا أنا و(سنايت)، وكل ذلك وأكثر قرأته في عيني (عائشة) وفي دمعة عينيها التي بدأت تزيد وتكبر في مقلتيها قبل أن تسقط في فنجانها، ومع سقوط دمعتها في الفنجان جاءني هاتف (أحمد)، قمت من مكاني وأنا أتحدث معه، واتجهتُ نحو (عائشة) وربت على رأسها، وغادرت المكان، و(أحمد) كان في الشاطئ وعليَّ أن أقابله، فهو مسافر إلى «بر العرب»، وعلينا أن نلتقي قبل سفره، كان ذلك في عامنا الثاني وقبل سفر (عائشة) ورحيلها..

***

أنيسة ام خرافة

مر عامان على افتراقنا أنا وهي، واختفائها عنا، لكنها كانت حاضرة ماثلة أمامي رغم غيابها عني كل هذه المدة.. كانوا يسألونني عنها، وسألني عنها بداية من (قعص)، و(سنايت)، و(عبده)، وجاء دور البراءة (برهاني) الصغير سألني عنها مثل غيره في مقهى والدته وببراءة، سألني إذا كنت أهواها؟

أجبته باقتضاب وباختصار:

- نعم يا ولدي يا (برهاني) أحبها.

ربما لا تدرك البراءة ولا تستوعب ما أقوله، لذا أبقيت جلَّ الإجابة في داخلي، قابعة في أعماقي، وأبقيت الكثير من رسائل شوقي إليها، وشلال مشاعري تجاهها، وأمواج الشجن العارمة التي تختلج الروح والفؤاد، ليت (برهاني) كان كبيرًا ليعرف مقدار عشقي لها. فكيف لا أعشقها وروحي متعلقة بروحها؟! واسمي مرتبط باسمها؟! فأنا من يمثلها اليوم هنا، ووحدي، بعد رحيل (عائشة)،

وأنا كذلك من يروي للجميع هنا حكاياتها وقصص أهلها: فنونها، تراثها، وبشرها، أرضها، معالمها، تاريخها، وحاضرها، وعن كل تفاصيلها وكل شيءٍ يتعلق بها، وتتعلق به.. عن محيطها أرضًا وشعبًا، عن الصومال مثلًا، و»أوغادين»، و»أوروميا»، عن «هرر»، و»زيلع»، و»ديردوا» أيضا.

ويطلق علينا الشارع هنا في «طيعو».. (محمودة – جيبوتي)، منذ أول يوم وطأت قدمي ترابها، ودشن فنجان (صالحة) هذا الاسم بداية، وافتتحه صديقي (قعص)، وبعد ذلك صرفته (سعيدة) تلك الفتاة التي كنا نسميها وكالة أنباء المدينة، وتداوله الجميع هنا سريعا، أمَّا مقهى «سنايت» وفنجانها يطلق علينا و»دي جيبوتي» ««waddi jabouti بمعنى ابن جيبوتي، لا يعرفني أحد هنا بمعزل عنها، وبالمقابل كنت في مسقط رأسي معرفًا مسقط رأس والدي، فبالأمس هناك.. كنت هنا، واليوم هنا، أصبح هناك! عجيب أمرك يا زمن!

عمومًا هذه التسمية تريحني جدًا، وتسعدني للغاية، فهي بمثابة رابط روحي ووجداني لي، ربما يهدأ ذلك ويقلل من لهيب شوقي وحنيني الجارف إلى وطني مسقط رأسي..

فهي مهبط عشقي، أيقونة شعري، حلم صباي، ومن تهواها روحي وتعشقها، وهي من أكتبها في كل قصة حب، ورواية عشق،

وهي من ترحل معي أينما أرحل، وتحل معي أينما أنزل وأستقر، وعبير عطرها الأزلي لم ولن يغادر أجوائي مطلقًا.

مر عامان على افتراقنا وكان ذلك أول مرة أخرج فيها منها، وأول مرة أفارق فيها أمي وجيبوتي، فأنا لم أبتعد عنهما كثيرًا، ولم أنم أسبوعين كاملين في حياتي خارج بيتي ومدينتي، كانت صعبةً ومؤلمةً تجربتي اللاإرادية هذه..

وكلَّما يأتي ذكر معشوقتي أو كلَّما سألوني عنها يرتبط بذهني نغمٌ جميلٌ حالمٌ، بصوتٍ شجيٍّ ندي وملائكي صباحي للسيدة فيروز، ويحمل كلمات تشبه ينبوع خيالٍ صافٍ عذبٍ، وللموسيقار زياد الرحباني، وفي واحدةٍ من أجمل روائع الثنائي فيروز والرحباني، ورائعة «سألوني الناس» 1971، و2011..

«سألوني الناس عنك يا حبيبي

كتبو المكاتيب وأخدها الهوى

بيعز علي غِنِّي ياحبيبي

لأول مرة ما بنكون سوا»

(فيروز)

يحكى ويروى أن السيدة فيروز أول ما غنت هذه الرائعة ذات مساء، وبعد وفاة زوجها الرحباني، بكت بحرقة وألم، ولم تستطع مواصلة الغناء ليلتها، واكتفيت أنا الآن أيضًا بهذا المقطع من ذلك النغم وبشعور مماثل لها، فثمة تشابه، أراه أنا كليًّا، وقد يكون نسبيًّا، ما بين حالتي عندما يزورني مسقط رأسي ووطني هنا، وبين حالة السيدة فيروز في تلك الأمسية، رغم تباين واختلاف الأزمنة والأمكنة والشخوص، أبكاني النغم فعلًا «وهب الهوى، بكاني الهوى، لأول مرة مابنكون سوا».

وأبكاني النغم بعد أربعين عامًا من عمره الفنِّيِّ، وبعد أربعين عامًا من عمر نقله ذلك الشعور لكل أولئك الذين يتقاطعون معنا تلك الحالات الوجدانية الشعورية.

مر عليَّ عامان ثقيلان رتيبان على كلِّ المستويات، وآمل أن يجلب لنا عامي الثالث في «طيعو» تغييرًا ما.

ومر عامان..

وأنا أعيش هنا، كان يعيشني هناك، فكنت أعيش بمدينتي بأحاسيسي وجوارحي، كيف لا أعيشها؟ ففيها مدفون حبل سرتي، كيف لا؟! فيفها ذاكرتي وذكرياتي، وعائلتي وكلُّ أحبتي، وكيف لا؟! فهي ساحرة أسرت قلوب الجميع بسحرها، وكبَّلت أرجلهم، فتسكن

في ربوعها منطقة القرن الإفريقي، والهنود، والملقاش، والسودانيون، والفرنسيون، وغيرهم، بالمختصر المفيد نستطيع أن نقول أن العالم بثقافاته المتنوعة يقيم في مكان واحدٍ وفيها تروي مدينتي للعالم كيفية فن التعايش السلمي الحضاري والخلاق، فهي رغم صغر مساحتها وإلى جانب مكوناتها الرئيسة ولوحات فسيفسائها الثلاث العفر، والصومال، والعرب تحتضن أعراقًا شتَّى وألوانًا مختلفة، وتبهر الناظر والزائر بتاريخ تسرد حكايته مبانيها القديمة وآثارها التاريخية العتيقة، التي تبدأ من زمن الحقبة الاستعمارية الفرنسية، فمبانيها ذات طراز معماري عثماني (القبب)، وبزخرفة يمانية (القمريات)، وبديكور أوروبي ممثل بالنحوت الجبسية..

قمة الشقاء والبؤس حينما يخالج الإنسان شعور اليأس والوحدة مع وجود الجميع معه وحوله وبجانبه، لا يشعر بقربهم، لا يثيرون اهتمامه، فضوله، انتباهه، لا يشعر بكل ذلك مهما حاولوا جاهدين مساعدته حتى، وإخراجه من حالته النفسية السيئة تلك، وربما كانوا يحاولون أيضًا إسعاده بطريقتهم المعهودة والخاصة، وربما لم يألف هو أسلوبهم وطريقتهم، وكان ذلك دافعه وعذره كي لا يشعر.

وهو بالضبط ما حدث لنا وما كان يفعله (أحمد)، و(قعص)، و(سنايت)، وغيرهم معي، وهذا الشعور خالجني وأنا في وطني

والجميع بجانبي، والمسافة الذهنية كانت سببًا في ذلك، وكانت هي من تباعدني عن المحيط.

كان اهتمامي في بيئتي التي قدمت منها غير هذا الاهتمام، ولغتي تختلف عن لغة الجميع هنا، وعاداتي وطباعي يختلفان أيضًا، والذوق العام بمفهومه كان يختلف تمامًا عن محيطي الجديد، وحتى معايير الموضة لم تكن واحدة.

وكلي اكتئاب ورفض للأشياء من حولي

يا الله ما هذا، أنا أم الجميع؟

لا.. الجميع وليس أنا..

فلا يعقل.. أن يكون.. أنا..

لا يعقل أن يكون الجميع كذلك؟؟

لم أكن وحدي من عانيت ومررت بهذه الحالة، شاطرني حالة الغموض والرفض تلك كثيرون، ربما كانوا ألوفًا مؤلفة وربما أكثر، وشهدت بداية استقلال البلاد عام 1991 هذه الحالة وعاش حينها هنا هذه الحالة كثيرون..

الشتات أو الاغتراب كان سببًا، فهو من صنعَ هذه الحالة، فالشرق عاد إلى الوطن بعاداته، والغرب بمفاهيمه، والعرب بطباعهم، فالأذواق اختلفت والبصمات تعددت..

وهو ما حدث معي في بدايات قدومي، ما كان يجمعني بـ(سنايت) هو علاقة شعورية ذهنية، فكنت أرى فيها نفسي وصورتي، كانت تبدو مثلي، شاركتني الوحدة وحالة الاغتراب تلك، رغم وجودنا الحسي هنا، فالعلاقة بيننا كانت علاقة روحية، فهي عادت إلى الوطن مؤخرًا بعدما عاشت لثلاثين عامًا ما بين السودان وليبيا، فكانت رحلة (سنايت) قد بدأت من مدينة «أسمرة» حيث شهدت المدينة ولادتها وفترة قصيرة جدًا من طفولتها، ومع ذلك تعرف عنها الكثير، وأكثر مما تعرفه عن السودان، وليبيا، و»طيعو»، فكانت معها في كل هذه الأمكنة، تمامًا مثل ما يسكنها «بورسودان» وهي هنا، فالعاصمة «أسمرة» هي كما كان يحلو للإيطاليين قديمًا، واليوم (سنايت) تسميتها بروما الصغرى..

كانت (سنايت) تحكي لنا دومًا عن جمال الطبيعة وما صنعه الإنسان في مدينتها، وعن الطراز المعماري الأوروبي لها، عن الشوارع الواسعة والأرصفة الأسمنتية فيها، وعن بنية صرفها الصحي وتقول إنَّ الأمطار تتهاطل على مدينتها صباحَ مساء ودومًا، و بشبهٍ يومي في موسم الصيف ومع ذلك لا يقع نظرُكَ على قطرة ماء في شوارعها، وروت لنا عن فنادقها، ومتنزهاتها، وعن قاعات حفلاتها، وعن سينما روما، وسينما «امبيرو».. وحكت لنا كذلك

عن أول سكة حديد شيدها المعمر الإيطالي هناك بين عامي 1890 إلى 1944، والرابطة بين العاصمة «أسمرة» وميناء «مصوع» وبطول مائة وعشرين كيلومترًا، وروت لي عن أمرٍ آخر حيرني وأدهشني وأضحكني أيضًا، إلَّا أنَّني أبقيت حينها على الحيرة والدهشة، وسحبت ضحكتي وابتسامتي سريعًا حتى لا أحرجها وأفسد نشوة الفرح والسعادة اللذين كانا يغمران وجهها في تلك اللحظات، فلم يستطع كذلك عقلي الصغير استيعاب ذلك الأمر، وقلت لنفسي إنَّ المرأة جُنَّتْ وإنَّها تبالغ في الأمر وإنَّ عشقها لمدينتها أعمى بصرها.

يا إلهي ماذا دهاها وأصابها؟ وعن أيِّ «تليفريك» تتحدث (سنايت)؟ هل تتحدث الليلة عن إيطاليا أم عن إريتريا؟ وهل صدقت فعلًا أنَّ مدينتها روما؟

لم قل ذلك لها، لكنها شعرت بما كان يدور في رأسي لحظتها وفهمت سبب ابتسامتي الماكرة والبريئة، وتأكد لنا بعد ذلك أنَّ ذلك الأمر واقعٌ، وحقيقيٌّ، وصحيحٌ، وأنَّها كانت صادقة ومحقة، فشيَّدت إيطاليا قاطرةً هوائية، وما يعرف بـ»التيلفريك» في مستعمرتها إريتريا، وكانت هذه القاطرة الهوائية تربط بين «أسمرة» و»مصوع»، وتم افتتاحها والعمل بها عام 1938، وهو أول «تليفريك» في إفريقيا، وأول وآخر «تلفريك» في المنطقة وما

جوارها إلى يومنا هذا، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية نقلته بريطانيا إلى باكستان..

كانت «أسمرة» إحدى محطاتي الحياتية، فكانت فعلًا روما الصغرى شكلًا، ومضمونًا، جوهرًا، ومظهرًا، جسدًا، وروحًا، فأنا قد زرتها في العام الرابع من قدومي لـ«طيعو»، وقضيت فيها شهرًا كاملًا رفقة (قعص)، مضى وكأنه يومان أو أسبوعٌ واحدٌ، كنا نقيم في فندق مغمور صغير ربما، لكنه كان أنيقًا. وأقمنا في نزل «ميراسول» الواقع في شارع متفرع من شارع «كمبشتاتو» الشهير والرائع، وما لفت انتباهي فيها، نظافة شوارعها ومحالها، وأماكنها العامة والخاصة، كل شيء كان نظيفًا وأنيقًا في «أسمرة».

وصف (جان ريتشاد)، الباحث الغربي المهتم بالشئون الإفريقية «أسمرة» قائلا:

– «منذ عام 1890، وهو بداية اعتبار إريتريا مستعمرة إيطالية، بدأت تتشكل خصوصية «أسمرة» بالنسبة للإيطاليين كمدينة أريد لها أن تشبه روما عاصمتهم الأم، وساهم في ذلك اعتدال مناخها، وامتداد تضاريسها. النقلة الكبرى في بناء «أسمرة» الحديثة كانت في طراز «آرت ديكو» الذي اعتمده الإيطاليون في البناء، إذ شهدت بدايات القرن الماضي ثورة في التصميم المعماري اعتمدت على الطابع

الاحتفالي الغني بترف التفاصيل، وكانت «أسمرة» محظوظة بأن أصبحت ساحةً مفتوحةً لإبداعات المصممين، حتى قيل إنَّ الإيطاليين فعلوا في «أسمرة» ما لم يتمكنوا من فعله في روما. ولا تزال إلى اليوم أحياء إيطالية «كزبندا طليان» و«ترافولو»، تحتفظ بأسمائها وطابعها القديم. كما لا يزال «كمبشتاتو»، الشارع الرئيسي في «أسمرة»، شاهداً على الحقبة الإيطالية، ذلك الشارع الذي كان محظورًا على الإرتريين ارتياده، لكونه كان درة العاصمة وحكرًا على المستعمر. ومع تغيير اسمه إلى شارع الحرية، ورث الإريتريون عن الإيطاليين عادة المشي بعد العصر على جانبيه المرصوفين بأشجار النخيل. وفي وسط الشارع تقريبًا تقف شامخة كاتدرائية القديس «جوزيف» للمسيحيين الكاثوليك، وهي تحفة معمارية تختصر جمال العاصمة «أسمرة»، وغير بعيد منها ترتفع هامَة مئذنة جامع الخلفاء الراشدين شاهدة على مئة عامٍ، هي عمر هذا الجامع الذي جاء بصبغة تركية واضحة. ورغم اشتهار «أسمرة» بمأكولاتها المحلية مثل «الزغني»، فإن سكانها يفاخرون بجودة مأكولاتهم الإيطالية، وهم دائمًا يرددون أن ثاني أفضل «بيتزا» وثاني أفضل «كابتشينو» ستجدهما حتماً في أسمرا».

وبطريقة ما وبعد سبع سنواتٍ أصبحت اليوم فردًا من عائلة (سنايت)، ورغم كثرة الشائعات التي روجت لنا وقيلت بأنني

على علاقة خاصة بها، إلَّا أنَّني لم أهتم، لم أعبأ بذلك كثيرًا وكذا (سنايت)، وأدرنا ظهرينا ولم نلتفت إليها وإلى أصحاب تلك الشائعات، وفي الأخير كذلك لا يصح إلَّا الصحيح، ومع الوقت اتضح أنَّ كل ما حيك، وصيغ، وقيل، كان كلامًا فارغًا لا معنى له، وفي النهاية كان كلُّ ذلك بضاعةً فاسدةً، وخبرًا مفروغًا من مضامينه، ولا علاقة عشقٍ وحبٍّ تجمعني بأحد في تلك العائلة التي صارت أسرتي بالرضى والقبول منا، وباهتمامهم بي وأنا كذلك، وبحكم تواجدها في «طيعو» كانت (سنايت) وأولادها يتحدثون العفرية وعلى الأقل يحسنون حدًّا أدنى منها، وبدأت من جهتي أتعلم «التغرينية» والتي تعتبر اللغة الرسمية في البلاد، وتعلمت حدي الأدنى، لاسيما أنني كنت رفقة هذه العائلة التي لا أفارقها سوى في الليل.

لم يكن لديَّ عملٌ ثابتٌ لكنني كنتُ أدبر نفسي وأسيِّر أموري، وكنت أعمل محاسبًا للصيادين، يأتون إلى مطعم «سنايت» أو إلى منزلها الملاصق للمطعم، فهناك يسلمني صاحب المال (السفينة) حسابات «الجوش» أو جولة العمل..

ومخرجات «الجوش» هو كل ما يحتاج إليه الصيادون وسفينتهم من وقود ومشتقاته، والتموين وكل ما تحتاج إليه البحارة أكلًا وشربًا وكيفًا..

ومدة «الجوش» هي فترة عملهم في البحر وذهابهم بحمولتهم إلى «بر العرب»، وينتهي «الجوش» في «بر العرب»، ويبدأ بعودتهم من هناك إلى البحر، وتُخصم مخرجات «الجوش» من مدخوله، وما يتبقى من هذه العملية يعتبر ربحًا، ويُوزع الربحُ كالتالي: النصف لصاحب المال (السفينة)، والنصف للبحارة، أي: سهم لكلِّ بحارٍ وسهمان للناخوذة أو القبطان..

ويمتد «الجوش» من يومٍ واحدٍ إلى شهرٍ كاملٍ.

وفي شتائي السابع في «طيعو» جاء ضيف صاحبة المقهى وصديقة (سنايت)، كانت سيدة تحفة، آية، ملاك، كانت أشبه بحورية لا وجودَ لها في عالمنا الفاني، نظريًّا أو ما كنت أسمعه من (سنايت)، يختلف تمامًا وكليًّا عنه تطبيقيًّا أو ما أراه بعيني.. قالت (سنايت) إنَّ (إستير) أربعينية، وأبصم أنا بالعشرة أنها عشرينية، ولم أدري كذلك ماذا قالت لي (سنايت) وقلت لها ذلك المساء، ففي تلك الأمسية كنت أصب تركيزي على الضيف.

قالت إن (إستير) صاحبتها وصديقتها.

فقلت لها مازحًا:

– ربما ابنة صديقتك يا (سنايت) أو صاحبة ابنتك.

لم تستسغ (سنايت) كلامي فداريت ابتسامتي خلفي فصمت وأغلقت فمي.

ضحكت هي وابنتها وضحكت أيضًا، ولم تفهم الضيفة القادمة كلامي، لكنها تأكدت أنَّ ذلك وابتساماتنا لم تكن سوى استقبالٍ وجمل استلطافية، وابتسمت بدورها، ورحبنا بها جميعًا، وكنت أكثرهم ترحيبا وحماسًا بها.

(إستير) سيدة إثيوإرترية فهي من أبٍ إريتري يدعي (قبري سيلاسي) من قرية «سيجينتي» الواقعة في الإقليم الجنوبي في إريتريا، وعلى الطريق الرابط بين العاصمة «أسمرة» ومدينة «صنعفي»، ومن أمٍّ إثيوبية تدعو (سيبيلي) من إقليم «أمهرا»، ولدت (سيبيلي فاسيل) في قرية «كافي»، وهي بلدة ريفية جميلة، ماطرة، غائمة طوال العام، وتعتبر قرية «كافي» أول منطقة ومكان زرع فيه البن وعرف به أو «الكافي» في إثيوبيا وفي العالم، إلَّا أنَّ نشأة (سيبيلي) الحقيقية كانت مدينة «بحر دار» عاصمة إقليم «أمهرا»، والقريبة من قرية «كافي» التي انتقلت منها مع عائلتها إلى «بحر دار» في مرحلة مبكرة من عمرها، وارتبطت الآنسة (سيبيلي) بالدكتور (قبري)، الطبيب الشاب الذي نُقل حديثًا الي مدينة «بحر دار»، والقادم إليها من مدينة «أسمرة» قبل سنتين من ارتباطه

بـ(سيبيلي)، وعُين (قبري) مديرًا للمستشفى نظرًا لكفاءته العلمية النادرة في ذلك الوقت، وكان يعمل ويشتغل أيضًا طبيبًا جراحًا في القسم الجراحي لمستشفى المدينة، وكانت (سبيلي) مساعدة طبيب وممرضة في ذات القسم، و(إستير) نتاج تلك العلاقة في الرابع عشر من فبراير 1974.. وبعد شهور قليلة من ولادة ابنته، اعتُقل الدكتور وسجن لوقتٍ قصيرٍ بتهمة تبنيه لأفكارٍ انفصالية، وانتمائه إلى تنظيمٍ محظور، وبعد شهرٍ وبضعة أيامٍ من اعتقاله افرج عنه بعد تحقيق مطول معه، ووضع بعد ذلك قيد الإقامة الجبرية في منزل إقامته بالمستشفى، وفي النهاية استطاع (قبري) بطريقة خاصة نُفِّذت وفق عملية نوعية من ثوار جبهة التحرير الإريترية الهرب من مدينة «بحر دار» إلى السودان، ومنها التحق (قبري) بالكفاح المسلح.

وبعد أشهر عدة من التحاق الدكتور (قبري) بالكفاح المسلح واستطاعته الإفلات والهرب من «بحر دار»، وبنفس الطريقة استطاع الثوار إخراج أسرته من ذات المدينة، ورحَّلوا (سيبيلي) و(إستير) إلى السودان، فاستوطنت عائلة الدكتور مدينة «بور سودان»، فكان يزورهم هناك من حين لآخر، وتوفي (قبري) في الميدان عام 1980، وبعد عامين من وفاة زوجها، توفيت (سيبيلي)

في «بور سودان»، وعاشت (إستير) هناك رفقة أسرة إريترية كريمة قامت بتبنيها وتربيتها، كان عمرها في ذلك الوقت ثمانية أعوام.

(إستير) سيدة إريترية بعبق السودان وكانت أغنية الوردي، وقمر بوبا..

بوبا عليك تقيل

يا قمر بوبا عليك تقيل.

كنت أفتش منذ أن سمعت هذه الأغنية عن معنى «قمر بوبا».

أحلف أنها كانت (إستير)، وحسب ما روته لي (سنايت) أنَّ «قمر بوبا» نوعٌ من أحذية نسائية خفيفة جدًا كانت قد ظهرت كموضة في فترة الستينات في السودان، وجملة «تقيل عليك» كناية ومبالغة أن محبوبته رقيقة جدًا، ومن شدة رقتها، أن ذلك الحذاء رغم خفته ثقيل عليها وهي تنتعله.

يا سلام على شاعرية أغنية بوبا، ورقة (إستير)!

(إستير) قدمت من السودان التي رحلت إليها في أواخر السبيعينات وهي دون العاشرة وعادت منها قبل ثمانِ سنوات، وكانت تقيم في «مصوع»، وجاءت لزيارة (سنايت) صديقتها المقربة في السودان فربما ستقيم معها أو ربما ستمكث معها بعض الوقت.

عادة كنت أغادر منزل (سنايت) في حدود الثامنة ليلًا، بعد انتهائي من ارتشاف فناجين القهوة المسائية معهم، ولم أستطع منذ أن وطأت قدم (إستير) منزل (سنايت)، مغادرته أبدًا، حتى وإن غادرته مرغمًا، يظل برفقتي منزل (سنايت)، وعطر (إستير)، الليل كله.

هل أنت يا (إستير) تفاصيل امرأة قادمة من السودان، وقصيدة للأديب الإرتري أحمد عمر شيخ؟

فأنا قرأت تفاصيل تلك السيدة ولديك شبه كبير منها

وهل كنت يا (إستير) قصيدة وفاء، وعربون محبة، وقصيدة شاعر سوداني ثائر مهداة إلى ثوار وشعب إريتريا في فترة كفاحهم المسلح؟

و»عرفتك يا عربية العينين والكلمات

عرفتك مسلمة

تصلي منذ نشأتها

عرفتك يا أختي المسيحية

ويا قديسة السمراء يا روحي»

فأنت تشبهين قطعًا تلك القصيدة، وأنت مؤكدًا تلك الفتاة ذات الملامح والثقافة العربية.

أم كنتِ يا (إستير) في النهاية، «مادلينا» للشاعر محمد سعد دياب؟

وأنا قرأت كذلك يا سيدتي تلك القصيدة التي تشبهك تماما... والقصيدة التي تصف تلك الفتاة الإثيوبية أو الإثيونانية الفاتنة (مادلينا) الأمهرية ذات الأصول الإغريقية، وربما كانت (مادلينا) يا (إستير) والدتكِ (سيبيلي فاسيل) الأمهرية، فـ(سيبيلي) صادف تواجدها في السودان ميلاد هذه الأغنية... وتتقاطع (مادلينا) معك يا (إستير) شلالات «بحر دار»، وبحيرة «تانا»، ومزارع البن، فهي مثلك توليفة جمال مدمج ومركز، هي وأنتِ تشكيلة مختارة من الحسن والبهاء، وهي وأنتِ كوكتيل فسيفساء تحملان دماء مزدوجة.

إستير مادلينا، ومادلينا إستير..

*الأم سليلة «أمهرا»

والوالد من قلب أثينا

وبرغم رزاياه يكفي...

أن أهدى الدنيا.. (مادلينا)...»

(إستير) هي (مادلينا) وتلك الأغنية السودانية للنور الجيلاني..

هل من الممكن أن نصادف رواية أو أبيات شعرية نثرية كُتبت واستهلكها القارئ زمنا؟ وهل من الممكن أن يعيد الزمن نفسه إلى

الواجهة صورًا مكتوبة لتتصدر عناوينه وواجهاته على شكل صور أخرى حية أو رقمية؟

على كلٍّ لا فرق عندي إذا كنت يا (إستير)، امرأة إرترية، أو إثيوبية، قادمة من السودان، أو كنت أغنية سودانية حالمة، فأنت في كل هذه الحالات، نيلية بنت النيل، وبنكهة بنٍّ حبشي، وبعبق عطر بخور سوداني، وبصفاء خليج «زولا» و«بر عصولي» وأشقائهما من خلجان إريتريا.

فما نراه جمال مدمج ومعقد للغاية.. فرجاءً رجاءً! وبالله عليك يا (إستير)، لا تظهري ثانية..

لا تظهري ثانية سيدتي

ظهورك المجدد سيخلط الأوراق

فأنت يا سيدتي

تبعثرين أمنية

تضيعين منطقًا

تشوشين العقول

وتعبثين بالقلوب

لا تظهري بالله يا سيدتي

ثانيةً

فأنت يا سيدتي تهيجين عواطفًا خاملةً

وتربكين مشاعرًا ساكنةً

وتقلبين بالظهور

طاولةً

تنعم بالهدوء والثبات

وتحرقين بالحضور

دفاترًا

على رفوف مكتبة

سيدتي فأنت تنزعين عنوةً

أوردةً بالغة الحساسية

فأنت يا سيدتي تمزقين أشرعةً

لسفن تبحر في المحيط

وتفتحين دونما شعورٍ

نوافذًا مغلقةً مؤمَّنةً

وأنتِ لا محال لا محال بالحضور

توقفين

صيرورة الحياة

لا تظهري مجددًا بالله يا سيدتي!

(محمودة)

***

ثرائيل الألم

وفي عامي السابع آخر عام لي في «طيعو» والوطن بشكل عام، عاد (أحمد) من رحلة عمله وسفره إلى اليمن، وكنت كالعادة يومها مبتهجًا وفرحًا بعودة ابن عمي (أحمد) من «بر العرب» سالمًا غانمًا، فعودة (أحمد) والصيادون بشكل عام من رحلاتهم البحرية، من هنا وهناك، ومن «بر العرب» أو من الجزر البعيدة نوعًا ما، يجسدها ما قيل عن البحر قديمًا: «من دخل فيه مفقود، ومن خرج منه مولود»، فالبحر صديق دائم للأهالي هنا، وعدو قاتل لهم في بعض الأحيان، فهو يرسم السعادة على وجوههم ويحييهم في مرات كثيرة، ويرحل أحلامهم وأمانيهم كذلك بلا رحمة ولا شفقة في بعض الأحيان، وقبل خمسة أشهر من عودة (أحمد) الأخيرة هذه، خرج من «طيعو» قارب صيد صوب ميناء «المخا» (اليمن) القريب من باب المندب، وقارب يقل خمسة بحارة وأربعة من الصبية يدرسون التعليم الأساسي في اليمن، انتهت إجازتهم الصيفية وكانوا عائدين

لمقاعد دراستهم.. لم يعد ذلك القارب.. ولقي سبعة من بين تسعة أشخاص كانوا على متنه حتفهم، ولم يعثر حتى على جثمانهم، فقط استطاع بحاران منهم الوصول وبصعوبة إلى جزيرة «زقر»، الواقعة في منتصف الضفتين الشرقية والغربية جنوب البحر الأحمر، بعد نصف يوم من غرق قاربهم ومن مواجهتم ارتفاع الأمواج وجبروتها، وممانعة المد البحري ومعاكسته لهم.. كان سبب تحطم ذلك القارب، سوء الأحوال الجوية والعاصفة البحرية التي باغتتهم تلك الأمسية في عرض البحر..

حمدًا لله على عودة (أحمد) الميمونة.

من المؤكد أن (قعص) شقيق (أحمد) الأصغر هو صديقي المقرب، إلَّا أنَّ ما يجمعني بـ(أحمد) كان كبيرًا أيضًا، أنا وابن عمي (أحمد) نقيم معًا في بيت عمتنا (فاطمة)، فـ(أحمد) زوج بنت عمتنا الوحيدة، فحسب العرف السائد والتقليدي في «طيعو» ومحيطها، يُبنى منزل العريس في محيط أو داخل حوش منزل والدة العروس وملاصقًا له.

جاء (أحمد) إلى منزل (سنايت) باحثًا عني كالعادة، وكان يفترض أن لا يبرح اليوم منزله، لاسيما بعد قدومه من رحلة سفر طويلة ومتعبة من اليمن، استمرت عشرة أيام، ذهابًا وإقامة

في «الحديدة» وعودة، لكن ابن عمي كان مصر كالعادة أن يكون برفقتي، يجلس معي لبعض الوقت، نتناول أوراق الكيف (القات) الذي جلبه لنا من (الحديدة) ونتجاذب أطراف الحديث معًا، وعلى كلِّ حالٍ اتفقنا ألَّا يطول حديثنا ويعود (أحمد) بعد ساعة واحدة إلى بيته.

جلس (أحمد) مقابلًا لـ(سميرة) وبينهما فناجين القهوة كالعادة، وعلى يميني أنا، كان جالسًا ومتكئًا مثلي على وسادتين، ناولتنا (سميرة) منشفتين صغيرتين مبللتين لنضع فيهما أوراق القات حتى لا يجف، وصينية عليها أكواب ماءٍ وطفاية سجائر، وبجانبهما ثلاجة ماءٍ بارد. تشبه أوراق القات إلى حدٍّ ما أوراق الجرير والبقل.

الرحلة من «الحديدة» ميناء اليمن الثاني ومرسى «طيعو» تستغرق ما بين أربعَ عشرةَ ساعةً الي ستَ عشرةَ ساعةً تقريبًا في السفن التقليدية، أمَّا في الـزوارق البلاستيكية الحديثة أو «فيبرجلاس» تستغرق رحلته ثمانِ ساعاتٍ فقط، وإذا ساءت الأحوال الجوية تتوقف رحلة الصيادين في إحدى الجزر الكثيرة على البحر بين المدينتين، ومن الممكن أن تطول العاصفة البحرية ويستغرق مكوث السفينة وبحارتها في تلك الجزر أو الجزيرة لساعات أو لبضعة أيامٍ.

ظلت سفينة (أحمد) راسيةً على الشاطئ لعامٍ كامل وقبل أربعة أشهر من اليوم، عادت إلى البحر، بعد إعادة إصلاحها التي كلفت (أحمد) الكثير من المال وديون مثقلة على كاهله من وكيله اليمني في «الحديدة»، و(أحمد) يعيد إليه في كل «جوش» أو جولة من العمل البعض من دينه..

حكى لي (أحمد) بعضًا من معاناته ومعانات الصيادين الإريتريين اليومية ومنها، ما حصل معه في سفريته الأخيرة، من مسئول الأمن في ميناء «الحديدة»، وكيف أتعبهم، وأخَّر سفرهم لثلاثة أيامٍ كاملة.

كان يقول ذلك الشخص أنَّ (أحمد) لم يكن معهم صادقًا وواضحًا، واتهامات أخرى ملفقة، كان يدور ويلف، ولا يستطيع (أحمد) أو غيره أن يعرف ماذا يقول ذلك الشخص، لكنهم كانوا يعرفون جميعًا ماذا يريد..

كان يريد المال بالحق أو الباطل، فهو لم يعطه رخصة السفر.. لم يسمح بمغادرة السفينة، ولم يرفض ذلك بصريح العبارة أيضًا، فقط كان يماطل ويتلكأ، ويتحجج بأمور واهية.

(تحدث مثل هذه المعاناة لـ(أحمد) و للصيادين هنا في «طيعو» ومن نظام بلدهم، والفرق بين «بر العرب» وشواطئ

«دنكاليا» هو أنَّكَ هنا لا تعرف ماذا يريدون، وهنا يصادرون كلَّ متاعب البسطاء وعرقهم مع قواربهم التي تشكل مصدر رزقهم الوحيد، ويعني ذلك إيقاف حياتهم ولقمة عيش أطفالهم.. لا أهمية ولا عزاء لتعبهم وغيابهم الطويل أيامًا وليالٍ عن أسرهم ولا لمواجهتهم كل تلك الصعاب واحتمال اللاعودة من البحر.. هنا لا ينطبق ما كان سائدًا في الضفة الشرقية، فهي أرحم آلاف المرات من شقيقتها الغربية، هنا لا ينطبق مصطلح «حقًّا أو باطلًا» ما يقع هنا «باطلًا أو باطلًا»، وباطلًا فقط.. لا المنطق ينفع معهم لا التوسل ولا الرشاوي.. وأكثر من هذا وذاك، ما يحصل للبحارة والصيادين الإرتريين من تهديدٍ وإهانات هنا، تطال حتى الشيوخ منهم، ومن بحرية بلدهم.. وإطلاق النار على بعض الصيادين من بوارج حربية وطائرات «أباتشي» تابعة لقوات أجنبية، ومن قواعدها التي ترابط في موانئ وجزر وطننا، وتصطاد هذه القاعدة الصيادين وبشكلٍ يوميٍّ، وبرصاصات حية في بعض المرات.. ربما كان ما تفعله معنا تلك القوات تدريبًا ومناورات بحرية، وربما كنَّا أهدافًا وهميةً كتلك المصنعة أو المصطنعة بالنسبة لها، وأنَّنا لا شيء بالنسبة لهم، فهم سيدفعون قيمة عشرة قوارب مقابل قارب أحرقوه في عرض البحر، ودية عشرة قتلى لصياد

قُتل عمدًا برصاصات حية في بحره، وسيمولون النظام، ويرمون فتاتا لأسر الضحايا، وستهمل القضية ويتم نسيانها، لا ولن يسمع العالم بالحدث، لك الله يا وطني!

كان على (أحمد) التواصل مع وكيله ويطلب منه مساعدته في حل مشكلته، لكنه رأى أن المسألة لا تستحق ذلك، فهو وأمثاله يواجهون أمورًا أكبرَ من هذا بكثير، ولذا لم يرد إزعاج وكيله بأمر لا يرقى كهذا.

الوكلاء في ضفتي البحر الأحمر كانوا ولا يزالون يحاولون مساعدة موكليهم قدر المستطاع، وبكل أمانة، سواء أوكلاء الصيادين في «بر العرب» كانوا أم نظرائهم في مدن شواطئ «دنكاليا».

في النهاية وككل مرة تنازل (أحمد)، ودفع المال ثانية، فعل ذلك حتى لا يخسر مالًا ووقتًا آخرَ في «الحديدة»..

وكيل (أحمد) اليمني استلم كل حمولته، ولا يستطيع (أحمد) أن يسلم شيئا لغيره، حسب العرف السائد بين البحارة أصحاب سفن الصيد والتجار في «بر العرب»، فالوكلاء في «بر العرب» يزودون وكلاءهم ويدينونهم أحيانًا أموالًا، وغالبًا أجهزة صيدٍ، ووقودٍ، وأغذية، وأجهزة إلكترونية، أي كل ما يحتاجون إليه.

حصة (أحمد) وسفينته من جولة العمل هذه وثلاث جولاتٍ قبلها ذهبت لوكيله اليمني وبقي عليه ربع الدين تقريبًا، وسيسدده في «جوشين» أو جولتين قادمتين بإذن الله، فالصيف على الأبواب ففيه يكون البحر معطاءً، والطريق إلى «بر العرب» آمنًا، حيث الصفاء البحري وسكونه، أو يأتي موسم «الحوال» في الصيف، و«الحوال» هو مصطلح البحارة في ضفتي البحر، عن سكون البحر..

وقبل أن نكمل حديثنا دخلوا علينا، دون سلام.. كانا رجلًا وامـرأةً.. وأدركنا أن من يدخل بهذه الكيفية والطريقة المزعجة والغبية والمخيفة أيضا، هم الشعبية.

كنت جالسًا مع (أحمد)، وكانت (سميرة) تعد لنا القهوة وبقربها أخوها (سامي) يلعب على جهازه الصغير، ألعابًا إلكترونية، في حين كانت (سنايت) و(برهاني) قد خرجا قبل مجيئ (أحمد) بوقت قليل.

قلت لهما:

- مرحبا، تفضلوا!

لم يردا السلام، ومن الباب طلبت السيدة من (أحمد) أن يرافقهما، كانت محققة أمنية، يهابها الجميع في «طيعو»، ولم تكن تحمل من الأنوثة شيئًا سوى اسمٍ فقط، وقالت لنا:

– سيعود، لا تقلقوا!

اخذوه من بيت (سنايت) إلى مقر الأمن العام والشرطة.

لم يستطع أحدٌ أن يسأل بدقة وحزم عن سبب اعتقاله وسبب سجنهم له، البعض يقول إنَّه هرَّب شخصين من القوات البحرية إلى اليمن في آخر سفرايته، والبعض يفند ذلك ويقول إنَّهم رأوه يدر ربحًا وفيرًا في الآونة الأخيرة وبدأ اسمه يتصدر باقي الأسماء، كان موسمًا جيدًا له ولسفينته وبرز اسمه ولمع، وشعار الشعبية لا اسم يعلو في البلد عليه، واذا حدث ذلك عليه أن يعود فقيرًا بائسًا، وعمومًا اختفى (أحمد).

***

اعتقدنا في البداية أن الأمر مجرد روتين يوميٍّ تعودنا عليه، نمسي ونصبح عليه في يومياتنا البائسة مع الجبهة الشعبية، هكذا يخطفون من يشاءون، ويستجوبون، ويسجنون كما يشاءون ويرحلون البعض إلى عاصمة الإقليم وإلى معسكر الخدمة الإجبارية «ساوا» وإلى سجن «عدي خالا» الشهير، أو معتقل ما في «نقفة»، أو على الساحل، أو في أي جحرٍ آخرَ حفروه في مكان ما في طول البلاد وعرضها، وبما أنَّنا نعرف (أحمد)، لم نكن نتوقع سيناريو معقدًا، كنا نعتقد مثلما قالت لنا المحققة في البداية:

- لحظات وسيعود، اطمئنوا سيعود إليكم سريعًا!

ولسهولة الأمر قلت لنفسي ربما سيعود من منتصف الطريق وقبل أن يصلوا إلى مخفر الشرطة، لأنّي أعرف (أحمد)، فهو مسالم، وطيب، ومسكين.. أنا وسميرة خرجنا معهم لكنهم طلبوا منا الهدوء، والعودة إلى أماكننا حيث كنا، وإلّا سيصطحبوننا معهم..

لم أعد إلى حيث كنت، وقلت لها ذلك، ولم أنصاع لأوامرهما، وذهبت مباشرة لأخبار أهلي، وذهبت إلى بيت عمنا (موسى) كان قريبنا ومسئولًا محليًّا لمدينة «طيعو» لكنه كان محسوبًا على الجبهة الشعبية ويشبههم في كلِّ شيءٍ، واختلفت معه... ولجأت إلى عمنا (قمحد) وأخبرته بما جرى.. كان مسنًّا كفيفًا، لكنه كان شجاعًا ولديه حضور وقبول في مدينتنا من قبل أهالي مدينتنا، فذهب عم (قمحد) رفقة شخصٍ آخر إلى مقر الأمن وذهبت معهم، واستفسر وطالب هو ومن معه بحزم إطلاق سراح (أحمد)، وتوسل بعضهم مثل العم (موسى)، فقالوا للجميع إنَّه مجرد تحقيق أمني روتيني، وفي صباح غد سيفرجون عنه، لكنهم لم يفعلوا ذلك، كانت لديهم أوامر، أو ربما فبركوا هم أنفسهم الأمر، وقاموا بترحيله ليلًا بسيارة قدمت من «مصوع» ذلك اليوم وعادت بالليل، ربما قدمت لمهمة ما، وربما فشلوا في مهمتهم، وعليها أن تعود إلى قيادتها بنبأٍ عظيم وعلى طريقة هدهد نبي الله سليمان.

عمومًا لم يعد (أحمد) إلينا، ولم يعد في «طيعو»، ولم يخبرونا إلى الآن أين ساقوا ابن عمي المسكين وأخذوه.

أنا الوحيد ومن القلائل أعرف أحواله.. إذا اعتقدوا أن حالته المادية جيدة فهم مخطئون، صحيح أنَّه لا يشتكي أبدًا، ولا يحكي همومه لأحدٍ، لكني أعرف (أحمد) وأعرف حالته المادية، وأنها سيئة، كان مدينًا لوكيله اليمني في «الحديدة»، وإذا اعتقدوا أنَّه سيصبح رقمًا ماليًّا فهم مخطئون، فهو سخيٌّ لأبعد الحدود، ويساعد قدر ما يستطيع فقراء أهله.. وإذا اعتقدوا أنَّه هرَّب شخصين مهمين من القوات البحرية إلى اليمن، فهم مخطئون وظالمون أيضًا، كان (أحمد) مسئولًا عن عائلتين و يتفادى كثيرًا من هذه الأمور ومنتبهًا لها.

بعد ثلاثة أشهر من اختفاء (أحمد) سافرت رفقة العم (قمحد) ووالدة (أحمد) إلى «مصوع» بحثًا عن (أحمد) وعن أخباره وبحثًا عن خيوط تقودنا إليه أو إلى إمكانية وجوده في الحياة من الأساس، وصلنا بعد رحلة سفر شاقة من «طيعو»، استمرت ست ساعاتٍ بالباص إلى «مصوع» وإلى بيت العم (سرو).

السيد (سرو حمدو إسماعيل)، شخصية نضالية وطنية معروفة لدى الجميع في الوطن، والسيد (سرو) ارتبط اسمه بالشعبية أو

التنظيم السياسي الوحيد والحاكم للبلاد، عاش حياته كلها خادمًا لهذا الفصيل الإريتري الذي أبعد بقية رفقاء النضال من الساحة، يحكم ويتحكم منذ الاستقلال إلى اليوم في مصير البلاد والعباد بمفرده. كان يجب على الجبهة الشعبية فتح باب الشراكة لبقية رفقاء الوطن وأن تتخلى عن ممارسات الإقصاء، والتهميش، والظلم التي تمارسها منذ الاستقلال إلى اليوم.. ولا يحق لها الانفراد بالسلطة والتسلط كونها فصيلًا وطنيًّا حرَّر الوطن من الاستعمار مشكورة، وعليها أن تعلم أنَّ التحرير جاء نتيجة نضالات، وتضحيات، وعطاءات لفصائل إريترية أخرى شريكة لها، حيث بدأ النضال والثورة الإريترية منذ عام 1961 إلى استقلال الوطن عام 1991، ما يعني أنَّه سبق ميلاد الجبهة الشعبية عام 1977، ومع ذلك لا يمكن نكران ودحض دور الجبهة الشعبية في معركة التحرير والاستقلال، ولا يمكن فعل ذلك نتيجة أخطاءٍ وقع فيها تنظيم الشعبية بعد تحريره للبلاد وممارساته المرفوضة كمًّا وكيفًا، شكلًا ومضمونًا، وهذا الفصيل الوطني للأسف أيضًا لم يكن وفيًّا للشعب ولا لمناضليه بعد تحريره للوطن..

لم تقدر الشعبية كذلك وفاء هذا الرجل وصنيعه مثلًا وعلى كل المستويات، كان ونظراؤه مهميَّن في مراحل، ورجال محطات معينة فقط، فهو مثلًا كان مهمًا هو فترة تواجد الجبهة في منطقة «دنكاليا»

وبعد انسحابها منها، والتحاق الجبهة بجبال «نقفة» قل دوره، وانخفضت برصته.

ومع أن تنظيم الجبهة الشعبية لفظ العم (سرو) طيلة خمسة وعشرين عامًا خارج الخدمة، وليست لديه اليوم أيَّة صلاحيات رسمية وإدارية ومسئولية مباشرة منذ ذلك الوقت، إلَّا أن وفاء الرجل للتنظيم غير طبيعيٍّ، كما لو كان التنظيم ابنًا له أو قطعة منه، أو كما لو كان وطنه، لا يمكن أن نعرف أو يعرف أحدٌ سرَّ ذلك وسببه، ولا نستطيع كذلك أن نتخيل سبب تعلق هذا الشخص وأمثاله بتنظيم لفظهم خارجًا، وحكم عليهم بالموت وهم أحياء، والعجيب لا أحد يجرؤ على التحدث أمامه بسوءٍ عن الجبهة الشعبية، عدا عم (قمحد)، ويعتبر العم (سرو) أنَّ كلَّ ما تفعله الجبهة جيدًا، وآرؤاها صائبة دائمًا، هكذا كان العم (سرو). والعكس تمامًا لدى عمنا (قمحد)، فهو يرى أن كلَّ ما يفعله تنظيم (سرو) خطأٌ وجنايةٌ، لا وسطية بين الرجلين، عم (قمحد) يمين اليمن، وعم (سرو) يسار اليسار..

وأنا كنت استمع إلى نقاشهما الساخن باهتمام.

فمثلما كان عم (سرو) وفيًّا لها، كم كان جميلًا لو كانت الجبهة وفيةً له أيضًا، أو كانت الجبهة وعم (سرو) أوفياء لوطنهم ولشعبهم، مثل وفائهم لتنظيمهم هذا!

كم كان جميلًا لو كنا، أنا، و(سرو)، و(قمحد)، وكل أبناء هذا الوطن أوفياء له! البعض يحمِّل الشعبية كل أخطائها وأخطائهم معها، فالوطنية لم تعد هنا ورحلت، ولا يحملها هنا أحدٌ، رحلت عن الجميع وغادرتهم دون استثناءٍ ومنذ زمن بعيد، فالتنظيم الحاكم لا يعترف ولا يعرف أحدًا غيره عن هذا الوطن، وغيره لا يعترف بهم وبوطنيتهم ولا يعترف بما فعلوه في السابق، والتنظيم الحاكم فاشلٌ ومستبدٌ، وغيره قبليون وجهويون، وأمراض وعلل بالجملة تفشت ونخرت عظام هذا الوطن..

آخر منصب للعم (سرو) كان رئيسَ بلدية «مصوع» قبل خمسة وعشرين عامًا وأُحيل بعده إلى التقاعد، واتُهم بأمورٍ تتعلق بالفساد وبضياع أموالٍ عامة. أكلها الكبار أو الجنرالات واتهموا بها (سرو) أو أوقعوا فيها بذكاء رئيس البلدية، ويدفع العم (سرو) ضريبة فساد مركبة معقدة إلى اليوم.

المهم أنَّ العم (سرو) ليس لديه أقوالٌ وإفاداتٌ تدين تنظيمه منذ خمسة وعشرين عامًا، وإن كان تنظيمه ظالمًا له..

(سرو) كان في الصفوف الأمامية في المؤتمر التأسيسي الأول للقوات الشعبية في عام 1970 في منطقة «سيديحا عيلا» في وسط «دنكاليا»، وعندما انفصلت الشعبية عن القوات الشعبية عام 1977

انفصل معها (سرو) أيضًا، وفقد موقعه القيادي واسمه الفعلي بداية من عام 1987، ووفاة الرئيس إبراهيم عافة رئيس المكتب العسكري للجبهة الشعبية والشخصية الأولى المكررة مع الرئيس أسياس أفورقي رئيس المكتب السياسي للجبهة الشعبية آنذاك، وفقد الكثيرون من جناح عافة سلطلتهم ومواقعهم مثله ومنهم السيد حسين عمرو، والسيد صالح بلح، وآخرون.

يقيم (سرو حمدو) منذ عام 1991 وزوجته المناضلة في بيت متواضع في مدينة «مصوع».. وصلنا بيت العم (سرو) في حدود الواحدة ظهرًا.

وبمجرد وصولنا حكينا له القصة بتفاصيلها، كان يعرفها هو أيضًا ويعرف بعضَ تفاصيلها، المهم كان كلامه معنا قليلًا ومختصرًا، والسبب أخته أم (أحمد)، كان على لسانها دعاءٌ واحدٌ:

– اللهم عليك بهم، أو خلصنا منهم!

كانت تدعو على الشعبية، على تنظيم أخيها وتصب جام غضبها عليهم.

قال لنا العم (سرو) بأنه سينظر في الأمر، وعلينا أن نرتاح اليوم من عناء السفر وإرهاقه، كانت زوجته (فاطمة) وأبناؤه أكثر ترحيبًا بنا وسعادة بقدومنا وإقامتنا معهم.

والدة (أحمد) تمتمت بعبارات لا يحب سماعها أخوها (سرو)، قالت له بحزن وبيأس وبصوت منخفض:

- أعرف يا (سرو) أنَّك لا تستطيع فعل شيءٍ لنا، ونعرف أن ما تستطيعونه فقط هو القضاء علينا، فوالله مجيئنا كان من أجل عمنا (قمحد) وإلحاحه الشديد علينا، وليس لقناعتي بأن نجد عندك حلًّا أو أن تكون حلًّا لنا يا (سرو).

قال (سرو):

- سأعود في المساء.

ولم يقل لها وللعم (قمحد) شيئًا آخرَ، وتركنا ولم يتأثر كذلك كثيرًا بالأمر، فلربما قال شيئًا ما للعم (قمحد) الذي تحدث معه على انفراد، وعلى كلِّ حالٍ لم يقل شيئًا لأم (أحمد).

كيف لا يفعل ذلك يا عمتي، أو كيف يقول لنا شيئًا، فهو مناضل عاش كل حياته في ساحات الحروب، والقتال، والدماء، والموت، والفقد، والأسر.. وكيف سيكون رحيمًا يا عمتي؟!

لم أقل لها ذلك، ولم أقل شيئًا حتى؟

منذ وصولنا لـ»مصوع» ولقائنا بالعم (سرو) في محطة الباصات تلك لم أرتح له، فوجه العم (سرو) لم يطمئني ولم يبشر بخير أيضًا،

وتمنيت أن تكون بداية معرفتي به خاتمة وأن تكون آخر لقائي معه، فهناك مثلٌ شعبيٌّ يمني متداول في مدن وقرى شواطئ «دنكاليا»، كان إيماني بهذا المثل ضعيفًا في السابق وفيما مضى وقبل لقائي بالعم (سرو)، لكن إيماني به تبدل معه، وتغيرت قراءتي لهذه الحكمة: «شوف الوجه واطلب المروءة»

فكان أول كلام وسؤال وجهه لي، وبعدما عرفتني عليه أم (أحمد):

– هل أديتَ واجبكَ الوطني يا شابُّ؟ يقصد الخدمة الوطنية العسكرية الإجبارية.

فقلت له:

– وماذا عنه هو؟ قصدت الوطن أيضًا.. وهل أدى واجبه هو، لمن أدوا واجبهم الوطني في السابق واليوم؟

نظر إليَّ بعمق، وبتمعن، وبنظرة فاحصة، ونظرة متأمل، تحمل العتاب والعقاب، وابتسم، وصمت... وبعد ثوانٍ قليلة من الصمت قال لي:

– لا عليك يا ابني، فأنت محقٌّ!

وابتسم مجددًا دون أن يرد على تساؤلاتي، والتفت إلى عمي (قمحد)، وتحدث معه، وربما ابتسامته الثانية كانت جوابًا لأسئلتي.

فلم يكن وجهه سبب رفضي له، ولم يكن سبب تشاؤمي منه أيضًا، وإنما ابتسامته تلك هي التي لم تعجبني وتشاءمت منها.

في ثالث يوم لنا في «مصوع» لفت نظري وجود فئة الشباب بكثرة فيها، عكس العاصمة «أسمرة» وكل مدن الوطن، سألت رفيقي (إسماعيل) ابن العم (سرو) ونحن نخرج من مخبئنا في بيته بحي «عداقا»، ونتجه إلى «مصوع» كبير بعد تفكير طويل ودعوات وصلوات لله، بدءًا بخطوتنا الأولى ومن عتبة باب بيت عم (سرو) وفي كل خطوة نخطوها، حتى لا تقع أيديهم على رقابنا، صراحة لم أكن خائفًا ولا مباليًا بـ(ساوا) والتجنيد قبل رؤيتي ولقائي بالعم (سرو)، وبعد لقائي به غمرني إحساسٌ رهيب بالخوف، من التجنيد والترحيل إلى معسكر «ساوا»، كان مخبأنا وبيت العم هو الآخر غير آمن فهو مخبأ مفخخ، وكنت أدعو الله كذلك ألَّا يقبض علينا العم (سرو) بنفسه، ويقذف بنا إلى ذلك الجحيم، فهو كان نظامًا بعينه، والجبهة الشعبية بلحمها وشحمها، وكل هذا كان يدور في رأسي وأنا أتساءل وأسأل نفسي والصغير (إسماعيل) عن أمرٍ محير وهو ما آراه هنا في «مصوع»:

– هل نحن في إريتريا يا (إسماعيل)؟ وهل هذه المدينة تابعة للشعبية ونظام بلدنا؟

أَفَرغتْ كلُّ مدن الوطن من عناصر شابة؟! فهم ما بين مجندٍ في معسكرات التجنيد وفي الخدمة العسكرية وشبه العسكرية وبين هارب من الوطن وعائش في الشتات..

كانت «مصوع» مدينة استثنائية تعج بالمارة من الشباب، والمقاهي، والمطاعم، والمحال، عامرة بهذه الشريحة من المجتمع..

اتضح لي مباشرة، أنَّهم لاجئون فروا من حالات حرب وفوضى في بلدهم، واختاروا العيش هنا في «مصوع» الإريترية التي وفرت لهم مناخًا آمنًا وهادئًا، وكانوا أشقاء صوماليين وشبيبة من الجالية الصومالية التي اختارت العيش هنا.

كان أمرًا محيرًا ذلك هو الآخر، فهناك من يهرب من هذا البلد، وهناك من يهرب إليه، بحثًا عن نفس الشيء المفقود فيه، والممنوح فيه، ما يحدث هنا وما رأيته شيءٌ غريبٌ وعجيبٌ! لا يصدق أحدٌ ذلك إلا إذا وقف أمامه وشاهده بنفسه، وربما لا تصدق العقول ما تراه العين، وواقع هنا في «مصوع»!

في صباح خامس يوم لنا في «مصوع»، كذبت نبوءتي وصحونا على خبرٍ سار ومفرح.

العم (سرو) (إسماعيل) فعلها، وجاء برفقة (أحمد)، جاء بسيارة «تايوتا» ذات كمرتين بلا هوية ورقم، نزلا منها وغادرت سريعًا،

كان بداخلها شخصان آخران لم يلتفتا إلى (سرو) ولم يودعهما هو كذلك، ونزل (سرو) ويده على كتف (أحمد) أمام دهشة الجميع وتكبيرهم ابتهاجا بظهور وقدوم (أحمد)، وفرحنا بذلك كلنا، وفرحت أمُّه به كان فوق الوصف..

هل كانت تلكم مسرحية جديدة من الجبهة الشعبية؟ أم كان الرجل عم (سرو) رغم تقاعده يدير شئون ما، أو شئون أهله من الكواليس؟ أم هل كان اعتقال (أحمد) تعسفًا وبدون جرم وجناية؟؟ أم هل يعيدون اليوم (أحمد) إلى «طيعو»، ويأخذون غدًا منها ألف (أحمد) بدلًا عن أحمدنا الواحد؟ أم هل كان الأمر تمهيدًا لعودة دور العم (سرو)؟

كان العم (سرو) سبعيني، ولذا لا أرجح وقوع السبب الأخير.

على كلٍّ، طلب منا ألَّا نسأل أسئلة كثيرة، وأن لا نسأل عن كيف ولماذا، وأين، وأي سؤالٍ آخر يتعلق بـ(أحمد)، وأن لا نثرثر كذلك، علينا أن نعود إلى «طيعو» بـ(أحمد) وبصمت.

وآخر يوم لنا في «مصوع» شاركنا العم (سرو) مائدة القهوة والحديث كان مبتسمًا كعادته.. فعادةً يبتسم وهو يتحدث مع أيٍّ كان لكنها في العادة ابتسامة صفراء، وربما كانت حمراء قاتلة،

لكن ابتسامته في أمسيتنا الأخيرة تلك اختلفت، أو هكذا تخيلت، فكانت تبدو لي أنَّها صادقة، وعفوية، وتلقائية، ومرحبة بنا، بتواجدنا معه.

ارتشفنا معًا وجميعنا قهوة «الجبنة»، وفوق هذه المائدة أيضًا حكي لنا العم (سرو) عن تجربته النضالية الطويلة التي امتدت لتسعة وعشرين عامًا في الثورة وفي صفوف جبهتي التحرير الإريترية والجبهة الشعبية لتحرير إريتريا إلى مايو عام 1991، بدأ التحاقه بها في عام 1962 حينها كان (سرو) طالبًا في مدينة «بحر دار» الإثيوبية، ويقول العم (سرو) إنَّ المرحوم (ياسين محمودة) – رحمه الله – ممثل مدينة «طيعو» في البرلمان الإريتري في تلك الفترة، كان سببًا في التحاقه بها في عام 1954 هو ومن كانوا معه من أبناء «طيعو» و»دنكاليا»، لينالوا فرصة التعليم في وقت صعب وعصيب، لم يكمل عم (سرو) تعليمه، والتحق بالثورة وبدأ وعيه النضالي والثوري مبكرًا، فمنذ البداية وُجِّه (سرو)، أو اختار بنفسه الانضمام إلى المجموعة السرية (الفدائيين) لجبهة التحرير الإريترية. كان شجاعًا لا يخشى الوغى أبدًا، وقام في موقعه في الخلايا السرية بعدة عمليات سرية فدائية بطولية نوعية، وكان العم (سرو) مشرفًا ومنفذًا مع شخص آخر على عملية إخراج الدكتور

(قبري) والد (إستير) من مدينة «بحر دار» عام 1974، ومشرفًا على عملية إخراج عائلة الدكتور (إستير) ووالدتها من ذات المدينة وفي ذات العام.

(إستير) مرت من هنا، وكانت هنا قبل ثلاثة أسابيع من وصولنا نحن لـ«مصوع»، وحي «عداقا»، وبيت عم (سرو)، كان (سرو) رفيق وصديق والدها، ودائم التواصل بها ومعها وهي في السودان، وعندما عادت إلى الوطن توطدت العلاقة بينهما أكثر، ظلت قريبة منه منذ قدومها فهي تشم فيه رائحة والدها، وهو يشفق ويحنُّ عليها، لمحبة وصداقة جمعته زمنًا مع والدها، كانت (إستير) تسكن في «مصوع» كبير، وتمر على بيت عم (سرو)، على الأقل مرةً أو يومًا واحدًا في الأسبوع.

ويا لتعاسة الصدف وظلمها لي! تأكدت اليوم أن للصدف وجهان، وجه حسن، ووجه آخر سيئ، أن لا ألتقي اليوم في «مصوع» بـ(إستير) فلنقل صدفة، أو فلتكن عكسية، لكنها صدفة.. كانت هنا قبل أقل من شهرٍ من قدومنا وسافرت إلى بلدة «انقل» جنوب شرق «مصوع»، كان ذلك شيئًا غير متوقعًا بالمرة.

وفي آخر يومٍ لي أيضًا في «مصوع» بدأت حملة التجنيد الإجباري رقم واحد وعشرين ومداهمة البيوت والقبض على الشباب في

«طيعو»، وغادرنا «مصوع» في اليوم التالي لسماعنا ذلك الخبر وبعد تسعة أيامٍ من مكوثنا بـ«مصوع».

في مرسى «فاطمة» بين «مصوع» و«طيعو» توقف الباص، ونزلتُ منه، وابتعدتُ، وتواريتُ عن الأنظار، فـ«طيعو» لم تكن آمنة والحملة مستمرة لأيامٍ أو لشهرٍ تقريبًا كما أخبرتني بذلك (سنايت)، وقالت هذه المرة الأمر مختلف، وأنا كنت سابقًا في ذيل لائحة البحث، وبعد حادثة (أحمد) واختلافي مع المحققة اعتليت قائمة المرحلين إلى «ساوا»، ونصحتني (سنايت) ومعها (قعص) هذه المرة أن أبتعد، وأختبئ، وأختفي لبعض الوقت، وكان ونزولي من الباص في مرسي «فاطمة» تمهيدًا لمغادرتها إلى جزيرة «بكع».

«طيعو» ليست آمنة، ليست بخير ولا على مايرام، فهل من حلٍ آخر سوى الانفصال القسري عنك يا وجعي يا وطني.. قالها (محمودة) بوجع..

وجعي أنك أغنيتي

تسرد حرماني

تحكي عن يتمي

عن ذاكرتي

وجعي أنك قيثارة عشقي

وأنك بري بحري، وهواي هوائي.

وجعي أنك لحن مسائي

وصباحي

وأنك معزوفة أعراسي

وأفراحي

وجعي أنك مسجون

خطك مفصول

أخبارك مقطوعة

أحلامك كابوس

ويومياتك آهات وعذاب وجراح

سأقدم ما عندي فداءً لعريني

سأقدم رأسي حرفي كلماتي.

قدري أهديك رواية

وكتابًا آخر يشبهك

يا وجعي يا وطني....

***

رحيل إجباري

(قعص) و(سنايت) تواصلا معي واتصلا بي في آخر يومٍ لي بـ«مصوع»، ورتبا معي ولي فكرة انتقالي المؤقت لجزيرة «بكع»، وعبر زورق لصياد يعرفه (قعص) يقوم بنقلني من شاطئ مرسي «فاطمة» مع أذان الفجر، إلى بيت (عبده ورسما) في تلك الجزيرة، تمهيدًا للرحيل إلى خارج الوطن وللفرار من حالة انسداد أفق الخلاص من نظام مستبد لا يحسن سوى الظلم .

كان حلم الإنسان الإريتري كبيرًا بكبر هذا الكون، وتلاشى هذا الحلم لدرجة أنَّه يتمنى اليوم أن يكون له قبرٌ، مجرد قبرٍ، أمَّا الحرية، والعدالة، والحياة الكريمة، بل أبسط حقوق العيش، وحتى تلك الحقوق التي ينالها الحيوان هنا وهناك صارت ترفًا وبزخًا بالنسبة له..

وها هي حادثة «لمبيدوزا» 2013 قبل عام وبضعة أشهر من اليوم، ماثلة ومعلقة في أذهانه والعالم.

في كارثة مروعة لسفينة محملة بالبشر يفوق عددهم الخمسمائة مهاجر إفريقي، غرق جلُّهم وافترست لحومهم أسماك البحر، وحصة شعبنا الإفريقي الإريتري في كارثة «لمبيدوزا» فاقت مجموعَ نسبِ منكوبي إفريقيا كلها، ووصلت إلى ثلاثمائة غريقٍ ومفقودٍ إريتري..

«لامبيدوزا» هي جزيرة إيطالية صغيرة، تقع قبالة سواحل إيطاليا على البحر المتوسط، كانت جزيرة مسالمة هادئة وشاعرية، ومغمورة لا يعرفها أحد، وارتبط اسمها اليوم أو صارت تعرف بهذا الحدث المفزع، واشتهرت بموتانا، وللتأكد من ذلك حاولوا فقط الدخول إلى «جوجل» وكتابة «لامبيدوزا»، ستكون نتيجته ضحايانا وسفينتهم.. وشهدت هذه الجزيرة فقط جانبًا بسيطًا من معاناة شعبنا اليومية، فهناك ألف «لمبيدوزا» شهدت، وألف أخرى تشهد هلاك شعبنا وبشكل دائم ومستمر، منهم من يهلك عطشًا في الصحاري وهو يفر بجلده من وطنٍ صار سجنًا وعبوديةً، ويحاول العبور بطريقة مذلة مهينة لدول الجوار، ووقوع الكثيرين منهم في رحلات معاناتهم تلك في أيدي تجار البشر وأناس منزوعي الرحمة والإنسانية، وتعرضهم من قبل هؤلاء لإهانات، وابتزاز، وتعذيب، ويفوق الأمر كل ذلك ليصل إلى نزع أعضائهم البشرية (كلاهم) ووفاة بعضهم نتيجة للظروف السيئة جدًا لإجراء تلك العمليات،

ووصول بعضهم معطوبين مرضى نتيجة لفقدانهم أعضاء بشرية، إلى إسرائيل وليبيا، ومع علمنا بوجود هذا الواقع المؤلم، وتجاربنا المتكررة معه، واحتمال انتظاره لنا أيضًا... لا حل لنا سوى أن نسلم أمرنا إلى الله والمجهول، ونفر ونرحل أملًا في الوصول إلى ما يشبه حياة وحرية، أو الوصول إلى الموت بحثًا عنهما.

بالمقابل هل كانت تستحق حياتنا وحريتنا هذا الثمن الباهظ من إهانات وابتزازت وفقدان أعضاء، وغرق، وهلاك؟ وهل هناك شيء يستحق كل هذه التضحيات العجيبة وهذا الانتحار المؤلم والمؤسف وبهذا الشكل وبهذه الطريقة؟

وهل كان ذلك تضحية للوطن ومساهمة منا في إخراجنا وإخراجه مما نحن وهو فيه من تعب ومعاناة؟ أم كان كل ذلك وما نفعله هروبًا من وطنٍ بائسٍ وشقيٍّ وتبديله بآخر مريح ومرفه؟

أعتقد أنَّه كان علينا أن نبحر بسفينة «لمبيدوزا» وأخواتها ونغرقها في الوطن، وننتحر جماعيًّا وغرقًا بذخيرة حية، فعلى الأقل كنا نضمن لجثماننا قبورًا أو قبرًا جماعيًّا واحدًا حتى!

وكان علينا أيضًا أن نهدي الوطن أعضاءنا البشرية بدل تركها لعديمي الإنسانية في صحراء سيناء والصحراء الغربية، وكنا على الأقل شعرنا براحة نفسية كلما زارنا ألمُ فقدانها، وسؤال عنها،

ولتباهينا أيضًا أمام أطفالنا والعالم بأنها استشهدت وبترت لتزرع في مكان يستحق.

في النهاية نحن جميعًا وكلنا عارٌ على الوطن، نظامًا، وشعبًا، ومعارضةً، لا أحد يفكر مطلقا في الوطن.

(عبده ورسما) صديق مقرب منا أنا و(قعص)، كانت «طيعو» ومقهى «سنايت» قد جمعتنا قبل أن يغادر (عبده) ويتركهما منذ أربع سنوات، فلم يعد هو إلى «طيعو»، ولم نلتقِ به منذ ذلك الوقت.

كنت أخاف دومًا على صديقي (عبده) و(قعص)، وعلى خلفية نقاشاتهما السياسية، الساخنة، والمحرمة، والقاتلة في «طيعو»، وكنت خائفًا من وقوعهما في قبضة النظام وزجهما في السجن، أو على الأقل ترحيلهما إلى معسكرات التجنيد تلك واحتجازهما هناك إلى الأبد، نتيجة معارضتهما شبه العلنية للنظام، كان (عبده) و(قعص) لا يتفقان مع الشعبية ومع بعضهما أيضًا، رغم أنهما كانا صديقين يتفقان في أشياءٍ أخرى كثيرة، سوى في مسائل سياسية، كانا يمثلان تيارين فكريين نقيضين، فـ(قعص) ميال إلى النهج الوطني، و(عبده) يتبني فكرًا وتوجهًا قوميًّا.

اختفي (عبده) منذ فترة عنا، واختار الإقامة في هذه الجزيرة وابتعد عن أجواء مدينتنا وعن مقهانا، نصحه بذلك أحدهم كان شخصية

أمنية معروفة في مدينتنا وضواحيها، هو الرائد (محمد رمضان)، الذي كان طيبًا وأصيلًا وابن حلال، أسدى لنا الرائد معروفًا، وخدمة جليلة ولصديقنا، ومن النادر حدوث ذلك، وأن يفعل كادر من كوادر الشعبية (النظام) ما فعله (رمضان)، ربما كان مسخرًا لنا ولصديقنا، سخره الله لنا، وربما ما فعله لأجلنا إنسانية، ونبلًا، وطيبة قلب، وأصالة، وربما رأى (رمضان) كذلك طيبة (عبده) وسطحيته، وعدم تقديره للأمور، ولربما أيضًا ما كان يقوله (عبده) وما سمعه منه الرائد لا ضرر ولا خوف منه، سوى على شخص صديقنا وعلى رأسه، ولسبب من هذه الأسباب أو جميعها، قام (رمضان) بنصحه، نصحه بأن يبتعد من «طيعو»، وأخبره أن ما يقوله دومًا أو ما سمعه عنه سيعرضه إلى ملاحقات أمنية وإلى عواقب وخيمة..

سمع (عبده) نصيحة (رمضان)، وأخذ بها، وانتقل فورًا إلى جزيرة «بكع» مسقط رأسه، ويقيم بها منذ ذلك الوقت.

صديقي (قعص) و(عبده) أحسَّا اليوم وشعرا بضيق الحال وباليأس وفوق هذا وذاك أحسَّا بخطر يحوم ويدور حولهما وعلى رقابهما هما والجميع في بلدهما، وفكرا بالرحيل مثل الكثيرين من مواطني بلدهم، ورأوا أنه حان الآن وقت الفراق والوداع، وزمن اللجوء إلى عالم آخر أكثر أمنًا، وأمانًا، واستقرارًا، وحريةً..

أما أنا فلم أفكر كثيرًا بالرحيل، لاسيما في السنوات الأخيرة، فأنا والفت الحياة بـ«طيعو» بعد فترة طويلة من رفضي لها، عشقتها وتعلقت كثيرًا بعمتي (فاطمة)، وابنتها، و(أحمد)، وكل الأهل والأحبة فيها.. وكونت فيها اليوم صداقات مع الجميع بمن فيهم القيادات الأمنية والعسكرية مثل الرائد (محمد رمضان) والعقيد (كيداني) وغيرهما، وكان العقيد (كيداني) هو من نصحني باللجوء إلى (سرو إسماعيل) في قضية (أحمد)، والرائد (رمضان) كذلك هو من أخبرني قبل أربع سنوات أن (عبده ورسما) كان متابعًا وأن حديث صديقنا مسجل... ولحسن الحظ لم يكن حديثه ذلك اليوم مع (قعص).. كان حديثه المسجل مع تلك الشابة الريفية التي كانت تشرب معنا القهوة في بيت عمتي (فاطمة)، وهي حقيقة لم تكن ريفية، وإنما كانت سوقية ومدنية حتى النخاع، كانت تتظاهر فقط بدور الريفية وتعمل لجهة أمنية، وكان ذلك سبب كرهي لها ونفوري منها، وسبب انزعاجي وتوتري عندما كانت تشاركنا جلسات القهوة التي كانت تعدها لنا زوجة (أحمد)، وكنت أنصرف بعد تناول أول فنجان من أي مجلسٍ يجمعني بتلك الريفية، ومن المؤكد أن تلك اللقيطة أوقعت الكثيرين في البلد، وحاولت وقتها إقناع الرائد (رمضان) بالعدول عن القبض على صديقنا (عبده)، وأكدت له بأن

ما كان يقوله (عبده ورسما) لا ضرر منه على النظام، ولن يغير شيئًا في أرض الواقع...

أنا فقط كنت متابعًا هذه المرة على خلفية اعتقال ابن عمي (أحمد) واختلافي مع المحققة الأمنية، و(رمضان) خدمنا ثانية وأخبر بذلك (قعص) و(سنايت)، واليوم نحن في طريقنا إلى الهرب خارج البلاد..

ذات مرة وتحديدًا في عامي الأول في «طيعو» وفي مقهى (سنايت) اعتقدت أن (عبده ورسما) يعرف الصومالية فتحدثت بها معه مازحًا، ورد صديقي قائلًا للأسف لا أعرف ماذا تقول.

قلت له ساخرًا ضاحكًا:

– كيف لا تعرفها يا رجل وأنت تحمل اسما صوماليًّا خالصًا قُحًّا، وتفتخر بانتمائك لهوية صومالية.

فرد قائلًا:

– نعم نفتخر بذلك وبماضينا، ونفتخر بحاضرنا وبهويتنا العفرية اليوم أيضًا، فنحن يا صديقي (محمودة) من أصول صومالية، فجدي مثلا من قبيلة «ماجرتان» وهي بطن من بطون قبيلة «دارود» الصومالية، ولغتننا أصبحت عفرية، وصرنا عفر بحكم العيش

والإقامة هنا، فنحن مثلنا مثل قبيلة «قاديدا» (بنو قاضي) التي تقيم في شبه جزيرة «بوري»، وهي ذات أصل «تجري مصوع»، ونحن كذلك مثلنا مثل القبائل والأسر العربية التي تعفرت هنا، وصارت جزءًا من المجتمع العفري بحكم العيش والمصاهرة.

قلت لصديقي:

– اهدأ اهدأ يا رجل! شوشت علي أفكاري، وقُلِّي كيف يكون ذلك يا صديقي؟

صديقي:

– نحن قبيلة صومالية– عفرية، تسكن الشريط الساحلي شمال «طيعو» جزيرة «بكع»، و«معدر»، وجزيرة «حارينا».

قلت له أيضًا:

– لم أتخيل بوجود الصومال في هذا المحيط كنت أعتقد أنَّ أقرب نقطة تجمعهم بنا (العفر) ومن هنا قد تصل لأكثر من ألف كيلومترٍ.

فنَّد صديقي اعتقادي الأخير، وسألني مستغربًا:

– ألم تسمع عن صومالي «بكع»؟

أجبت صديقي بخجلٍ هذه المرة فقلت:

– اعذرني يا صديقي! في الواقع وفي الحقيقة لا، لم أسمع بذلك، هذه أول مرة أسمع بهذا الأمر.

شاركنا الحديث أحد المسنين، وكان الشيخ يتناول العشاء في مطعم «سنايت» ويستمع لحديثنا بصمت، فألتفت إلى وفي عينيه شفقة لحالي وقال:

– يا ولدي، حتى أنتَ تنتمي إليهم بطريقة ما أو بأخرى، عد إلى (حسين) والدك واسأله! هو سيخبرك عن ذلك.

وكان الشيخ واثقًا من كلامه.

تابع الشيخ حديثه:

– لا عليك يا ولدي!

الأشقاء الصوماليون قدموا إلى «دنكاليا» قبل أكثر من مائتي عامٍ ومن محيط «بربرة» وبعدهم من «بوساسو» بشكل كبيرٍ ومكثفٍ، وأغلبهم كانوا تجارًا وحرفيين، واستوطن هؤلاء وسكنوا جزيرة «بكع» على البحر الأحمر في شمال «دنكاليا» إقليم العفر في دولة إريتريا، وامتزجت دماؤهم والعفر في مناطق «بكع»، و«معدر»، و«بحري»، وجزيرة «حارينا»، ومع أن هؤلاء فقدوا لغتهم الصومالية اليوم إلا أن أعراسهم مازالت تشهد الفلكلور الصومالي الشهير

«هوي دودو هوي دودو» ولا يعرف الكثيرون معناها، وصار هذا الفلكلور إرثًا لا تخلوا منه أعراس جزيرة «حارينا» في شمال «دنكاليا» (إريتريا)، ومازال هؤلاء محتفظون بأسمائهم إلى اليوم مثل (ورسما) «wasama» و(سمتر) «samattar» و(عبادو) «ibado» و(إيجو) «iiyo»، وصار بعض من العفر يحملونها بالمصاهرة والتزاوج مع الصوماليين، وإذا سألت أحدًا من هؤلاء اليوم سيقول لك أنا صومالي بلغة عفرية، فمثل هؤلاء يا ولدي ثراء وليس كما يعتقده البعض نقصان أو انتقاص من وجوده وهويته..

كان ذلك الحوار والنقاش في «طيعو» منذ أكثر من ست سنوات.. وها أنا اليوم في «بكع» ومع صديقي (عبده ورسما).

جزيرة «بكع»

طبعت واستوطنت في ذاكرتي هذه الجزيرة وسكانها، وأخذوا حيزًا ومساحة مهمة فيها، وستظل الجزيرة محطة أخرى مهمة من محطات حياتي.

يومان كاملان قضيتهما هناك تحولا من يومي إلى خوفٍ وقلقٍ واختباء في بيت (عبد ورسما) إلى يومين سياحين جميلين ولا أحلى! فلم يبقى من سكان الجزيرة أحدٌ إلَّا وسجل لنا زيارة، إلَّا

وسلم علينا وصافحنا، كانوا يتسابقون في ذلك وكأن زيارتهم لنا تشبه عيادة الأهالي في مكانٍ ما، لمريض، أو تشبه زيارتهم إلى صالة عزاء يحاسب فيها المتخاذل عن تأدية ذلك الواجب الديني والإنساني قبل كلِّ شيءٍ، كانوا يفعلون ذلك مع ضيوفهم مهما كانت ظروف مجيئهم وإقامتهم، لم يتخلف عن زيارتنا أحدٌ في تلك الجزيرة فمعظمهم كانوا يأتون بالليل متخفيين.

قلت لـ(عبد ورسما):

– يا صديقي، الجزيرة كلها عرفت أنَّني مختبئ في بيتك، فلمَ نختبئ إذًا؟ وممن نخاف يا رجل؟

قال صديقي:

– من الأغراب يا (محمودة)، فالأهالي من سابع المستحيلات أن يشوا بنا أو بأحدٍ، يا أخي!

قلت لصديقي:

– ما يميز هذه الجزيرة أيضًا بساطةُ أهلها، وهدوءٌ يعطيكَ صفاءً ذهنيًّا يصل منتهاه.

أخبرني صديقي (عبده) أن هنا في المحيط وغير بعيد من (بكع) توجد جزر أخرى كثيرة آهلة بالسكان، منها جزيرة «حارينا»،

و»نورا»، وجزيرة «دلمي» في شبه جزيرة «بوري»، وكذا جزيرة «ديسي» الساحرة في «بوري» في مدخل خليج «زولا»، وأخيرًا وغير بعيد من هنا أيضًا توجد جزر «دهلك»، وهذه الجزر مأهولة بالسكان أيضًا وبمساحات واسعة وكبيرة خضراء.

تابع صديقي حديثه قائلا:

- يا صاحبي، عشت لفترة محددة قصيرة في واحدة من هذه الجزر هي جزيرة «دلمي»، فهذه الجزيرة قد تخطر على بال بشر، لكن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت في محيطنا على الأقل، عندما تنظر إلى مواشي هذه الجزيرة ستجد الفرق وصحة ما أقول، فهناك فرق في الجانب الصحي لها ووفرة الحليب، مقارنة بمواشي المحيط، تخيل الرعي وتربية الابقار والأغنام في جزيرة في عرض البحر، ستتخيل وغيرك أن يمتهن هؤلاء حرفة الصيد حصريا وفقط.. لك أن تتصور الموقف إن استطعت، وتتخيل معه روعة المنظر، وثنائية الحرفة في «دلمي»، وتتخيل معه حجم مياه هذه الجزيرة ومراعيها الخضراء والغناء! جزيرة «دلمي» هي جزيرة بطول خمسة كيلومترات، وعرض ثلاثة كيلومترات، وأرخبيل «دلمي» يحوي أربع جزرٍ صغيرة، اثنتان منها بينها وبين الشاطئ، واثنتان أخريان بينهما وبين جزر «دهلك»، توجد بالجزيرة الأم «دلمي» أربعة مدافع

إيطالية، يبدو أنها كانت مسرحًا للحرب العالمية الثانية، ويحكي عن ذلك أهالي «دلمي»، وعن تلك المدافع الإيطالية العتيقة بجزيرتهم، وتوجد بالجزيرة غزلان برية وظباء وغيرها من الحيوانات البرية، فما يميز هذه الجزيرة عن غيرها من جزر وشواطئ المحيط هنا، هو وفرة المياه الجوفية، فالمياه على بعد أمتارٍ قليلة من سطح الأرض في «دلمي»، وكذا نوعية التربة وخصوبتها، ففيها تربة طينية خصبة بنسبة ٪70، خلاف الجزر وبعض المناطق الشاطئية في محيطها، وعن الأحياء البحرية، فحدث ولا حرج، فهناك شاطئ الصدف في شمال الجزيرة، و«الصدافة» أو البحث عن الصدف هي حرفة قديمة في «دلمي»، ومدن وقرى شواطئ «دنكاليا» واختفت اليوم، فهناك شاطئ رملي وحيد في شرق الجزيرة تختلف أسماكه وأحياؤه البحرية عن الشواطئ الأخرى للجزيرة، وفيها شاطئ آخر غربي تكسوه الخضرة أو تغطيه الأعشاب الخضراء لتداخل المياه الجوفية السطحية هناك وتغلغل المياه العذبة عمقًا داخل البحر، فأنت لا تصدق يا صديقي أَنَّكَ في جزيرة أو حتى في مدينة شاطئية ساحلية في محيطنا، فكم تحتوى هذه الجزيرة على منظرٍ سياحي أخاذ، يسحر العيون ويدخل المسرة إلى النفوس والصفاء إلى الذهن! فهذه الجزيرة مثلها مثل الواحة تشكل مصدر حياة أخرى

للبشر، فهي كواحة خضراء ببحيرة، تتوسط صحراء رملية لا نهاية لها من كل جهة..

كنت راضيًا عن إقامتي هنا وتمنيت أن يطول مكوثي فيها لوقت أطول ممَّا أعده القدر لنا، ما نريده وما كنا نفتقده كان هنا، فهنا صفاءٌ ذهنيٌّ يصل منتهاه، ونقاء البحر وصفاؤه مدهشٌ في جزيرة هادئة وطبيعية، وما أكثر هذه الجزر عندنا، وكل ما عندنا طبيعي أصلا، لم تُفض بكارته، ويشتكي كل ما عندنا من ظاهرة العنوسة الأبدية، فهذا الأمر هو مطلب ملحٌّ للكثيرين، ولا يستطيعون بل ويحلمون بالوصول إليه، مع أنَّه فائضٌ بالجملة عندنا ولا نعرف ماذا نفعل به..

كان صديقي يائسًا ومحبطًا وهو يجيب على تساؤلي ويقول إنَّه فقد الإيمان بالعذرية أصلًا، وفقدها حتى في التفكير، فبدأ الشكُّ يدب في أوصاله، ويساوره شكٌّ يتغلغل معه اليأس بداخله ويهمس في أذنه، ليرحل عنه فكرة إمكانية الوصول إلى صفاءٍ ذهنيٍّ من ذهنه وتفكيره، ليؤسس إلى عدم إمكانية وصوله ويبرهن بالعكس للوصول إلى اللاوصول؟؟

بالعكس فأنا كنت منتشيًا وسعيدًا بإقامتي هنا، فكانت هذه الجزيرة علاجًا ظرفيًّا ومؤقتًا لحالتي.. كنت بحاجة ماسَّة إلى هدوءِ هذه الجزيرة وصفائها لازاحة جزءٍ بسيط، من كمٍّ هائلٍ من

الهموم والمشاكل العالقة في دواخلنا، ونفض غبار أحزانٍ، وأوجاعٍ عشعشت داخلنا زمنا.

فهناك كمٌّ هائلٌ من الهزائم والخيبات التي ما انفكت عنا يومًا، ورافقتنا أيامًا وليالٍ، طولها طول سمائنا عن أرضنا، وعرضها عرض البحار والمحيطات..

وعلينا أن ننسى للحظات كل ذلك، والألم حتى لا نتألم، أو لا نشعر به، وعلينا أن ننزع عنوة وللحظات صفاءً وفرحًا من فم المواجع والأحزان..

الحسنة الأخرى الوحيدة لنظام بلدنا، أنَّه حافظ على بكارة الأشياء هنا وعذريتها، لم يدع أحدًا يقترب من هذه الجزر والشواطئ، ربما حرَّم وضيَّق النظامُ بذلك على أهالينا، سكان هذه الشواطئ الذين يشكل البحر موردَ رزقهم الوحيد، لكنه بالمقابل منع وحرَّم على «مافيا» البحر وقراصنة صيدٍ قادمين من بعيد الاقتراب من شواطئنا، فهم يأتون ليستنزفوا موارد بحرنا ويجرفوا من الجذور أحياءنا البحرية، رحلت كل الأسماك من المحيط إلى شواطئنا، فالأحياء البحرية تهاجر إليها بحثًا عن أشياءٍ افتقدناها نحن البشر فيها..

صديقي (عبده)، وبشعور آخر مختلف يحمل شيئًا من الأمل والثقة قال:

– نعم سنترك كلَّ هذه الأمور، والعذرية الليلة، وسنرحل إلى عالمٍ آخرَ لا يملك عُشر ما نملكه، لكنه بالمقابل يملك أهم ما نفقتده في عالمنا، مجبورون أخي (محمودة) على الرحيل لكننا سنعود. سنضرب لهذه الجزر موعدًا للعودة، وغدًا سنعود والأمطار، سنعود إليها بالورود والربيع، وسنبرم معها اليوم صفقة الحياة أو الموت، النصر أو الشهادة وسنحلف بالله وبها، بالعودة.. رحيلنا جزءٌ من معركة بقائنا، فهو بمثابة انسحاب تكتيكي للعودة، بعد امتلاكنا للقوة التي تبقينا أقوياء أبد الدهر.. انتهى حديث صديقي..

والليلة آخر ليلة لنا في «بكع» وضواحيها، وفي بر «الدناكل» عمومًا، وننتظر فقط قدوم (قعص) والزورق الذي سينقلنا إلى عالمٍ آخر هذه الأمسية.

مدينة «بورسودان» عروس البحر الأحمر تعتبر الميناء الأول للسودان، أما «بورتسودان» فمدينة ساحلية تقع شمال شرق السودان على الساحل الغربي للبحر الأحمر على ارتفاع مترين (6.6 قدم) فوق سطح البحر، وتبعد عن العاصمة الخرطوم مسافة 675 كيلومترًا (419 ميلًا). وهي الميناء البحري الرئيس في السودان وحاضرة ولاية البحر الأحمر السودانية. يصل تعداد السكان فيها إلى 580 ألف نسمة (تقديرات عام 2011 م)، وهي واحدة من المدن

الكبيرة بالسودان وبمنطقة البحر الأحمر، وتعتبر البوابة الشرقية للسودان. والمدينة غير بعيدة عن الحدود الإريترية، وتسكنها قبائل «سودانوإريترية» وهي قبائل «البجة» التي تسكن شرق السودان وغرب إريتريا عمومًا، فالمدينة لها وجه إريتري وآخر سوداني، وهي أول مدينة ومحطة سكنتها عائلة (سنايت) بعد خروجها ورحيلها من أرض الوطن.

توفي والد (سنايت) منذ صغرها، وتزوجت أمُّها بعد رحيله، برجلٍ آخر جمعها به نصيبها وقدرها، هاجرت (سنايت) رفقة أمِّها وزوجها المناضل (شريف كرار) إلى السودان، كان (كرار) مناضلًا من الرعيل الأول، وعين في المكتب الخارجي لجبهة التحرير في السبعينيات، وفي مكتب مهم للجبهة، وهو مكتب «بور سودان» الشهير، ورزق (كرار) بـ(سعدية)، و(أحـلام)، و(سناء) من أمِّ (سنايت)، والأخيرة صارت ابنته الرابعة بالتبني، وعين (شريف) لفترة في ليبيا، ثم عاد إلى مكتب «بورسودان» بعد فترة قصيرة له وللعائلة في طرابلس الغربية.

في خريف عام 1987 تعرف (كيداني) على (سنايت)، كانت دون الثامنة عشرة وكان (كيداني) ملحقًا أمنيًا في مكتب الجبهة في «بورسودان»، وتزوجها بعد شهورٍ قلائلَ من معرفتهما، وكانت

ثمرة ذلك الارتباط والعلاقة (سميرة) 1991، إلَّا أنَّه لم يُكتب لتلك العلاقة أن تستمر ليتم الانفصال بين (سنايت) و(كيداني) بعد خمس سنوات، عادت (سنايت) إلى وطنها بعد الاستقلال رفقة (كيداني)، إلَّا أنَّها رجعت بعد سنةٍ واحدةٍ وبعد انفصالهما إلى السودان مجددًا، وعادت نهائيًا من المهجر والسودان عام 2003، واستقرت هنا في «طيعو»، ولم تقف علاقتها فقط بـ(كيداني) فارتبطت بعلاقة شرعية بعده بشخصٍ آخر، وكان نتاج تلك العلاقة (برهاني) و(سامي)، وانتهت تلك العلاقة أيضًا بالطلاق وبألمٍ لـ(سنايت)، كان ألمها من زوجها الثاني (برخت) ألمًا مريعًا، فقد كان إنسانًا بلا ضمير وبلا ملة، محتالًا ولعوبًا، مثَّل عليها وعلى الجميع، فمثل عليها (دور) عاشقٍ وسرق قلبها، ومثَّل على الجميع هنا في «طيعو» دور تاجرٍ ونهب أموالهم، واختار الهرب منها وسافر دون أن يخبرها إلى إثيوبيا، وارتبط هناك بامراة أخرى سافر رفقتها إلى كندا، لم يتصل، ولم يتواصل، ولم يقل يومًا لا سلام ولا كلام، منذ أكثر من سبعة أعوام..

(سنايت) كانت دائما تحكي عن السودان وتوزع الفناجين وتقلبها وتقرأها، كان على لسانها (إستير)، أنا و(إستير) كنا وفعلنا.

لم أعر يومًا اهتماما لفنجانها ولصديقتها، فكنت مخطئًا في ذلك.

لا يمر يوم ولا سهرة، إلَّا ويكون السودان حاضرًا فيه، بقصة، بطبخة، بأغنية، أو بنكتة، بـ(إستير)، وأضعف الإيمان كانت تلبس ثوبًا سودانيًّا أنيقًا وجميلًا، وتتحدث معي باللهجة السودانية التي تجيدها وتعرفها جيدًا، وربما تجيدها أكثر من لغتها الأم (التغرينية) التي كانت تتحدث بها معنا أيضًا، وأنا أتحدث معها باللهجة العربية الجيبوتية (وهي لهجة يمنية معدلة أخذت طابعًا محليًّا في جيبوتي) وكذا بلغتي العفرية، وبدأت أتطفل على «التغرينية»، وأرمي كلماتٍ وجملًا منها، تُفهم بصعوبة، كانوا يضحكون عليَّ تارةً ويعدِّلون لي تارةً أخرى، (سنايت)، و(سميرة)، و(برهاني)، وأحيانا البرعم (سامي) يتداخل، ويحاول تقليد الجميع، وأن يعلمني هو الآخر، هههه، كنت أفعل الشيءَ ذاته معهم، مع أنهم كانوا يعرفون لغتي أكثر من معرفتي لغتهم وخصوصًا (برهاني) و(سامي)، عمومًا لم نختلف، فكنا نتحدث جميع اللغات، وكنت أتحدث في البداية مع بعض رواد مطعمها بالإشارات، كلمة عربية وأخرى عفرية و»تغرينية»، وأحيانًا تفلت مني بعض الكلمات بالفرنسية والصومالية، وعمومًا الرسائل كانت تصل، وهو المهم..

تعرف يا (محمودة) نحن في السودان...

كانت تحكي (سنايت) وكأنها سودانية، مثلي تمامًا عندما أحكي عن بلدي جيبوتي.

كنا نمثل الشتات، والاغتراب، والضياع من الباب الواسع...

في السودان وللسودانيين الأصليين كانت تقول (سنايت):

- نحن في إريتريا نعشق قهوة «الجبنة» و«الزقني» و و وهذه الأمور ترافقنا في حلنا وترحالنا، هي جوازات سفرنا، نضيِّع كل الأمور والأشياء كاللغة، واهتمامات أخرى كثيرة، وبعض العادات والموروث، لكننا نتمسك ببعض الأمور ونعض عليها بالنواجذ، لا نتركها ولا تتركنا.

كنتُ و(سنايت) نمثل حالات الاغتراب والضياع من بابه الواسع، بل كنا نمثل الشتات وانسلاخًا من هويتنا الأصلية، هي تجيد اللهجة السودانية دون عثرة وتتحدث بها حتى هنا في بلدها، لكنها عادت بلغتها الأم، وكان ذلك مكسبًا مهمًا ويعد غنيمة.. لم أبتعد أنا كثيرًا عن محيطي لتفرض عليَّ لغةً أخرى تحل محل لغتي.

أنا قدمت من مدينة مفتوحة تعجُّ بالكثير من الأجناس وبالكثير من الأمور، ما يرونه خطًّا أحمرَ هنا هو خط أخضرَ هناك، أو أصفر على أقل تقدير، ولذا لم أكن أتفق مع الكثيرين هنا، وقدمت (سنايت) مثلي من مدينة كبيرة، تعجُّ بالكثير وتحمل الكثير من التناقضات، ويمكن أن تعيش هي، وأعيش أنا هناك، تناقضًا نحبهما ونرتاح لهما.

كان العقيد (كيداني) قد عُيِّن قبل الاستقلال في البحرية وترقى وأصبح اليوم بهذه الرتبة العسكرية، كان يمر على (سنايت) و(سميرة) من حين لآخـر، وجمعته (سنايت) ومقهاها بي وبـ(قعص)، كان يقيم بداية في مدينة «مصوع»، ومنذ أقل من عامين حول مدينة «قلعلو» الواقعة بين «مصوع» و«طيعو»، يخدم ويقيم بها، وجاء لمهمة خاصة إلى «طيعو» بعد سفري أنا إلى «مصوع» مع أم (أحمد)... وخلال تواجدي بـ«مصوع» رتب (كيداني) مع (سنايت) و(قعص) لهذا المشروع، مشروع الهرب والرحيل، وكانت (إستير) بدورها تحاول ذلك، أيضا منذ فترة، و(سنايت) تعرف ذلك، ولذا أخبرتها بالأمر ونسقت معها.

وتواصلت (سنايت) مع (إستير) المتواجدة في بلدة «انجل» الواقعة في شبه جزيرة «بوري» وجنوب شرق «مصوع»، لتتجه فورًا إلى «قلعلو» وتلتحق بـ(سميرة) و(كيداني)، تأهبا للرحيل إلى اليمن.

(قعص)، و(كيداني)، و(سميرة)، و(إستير)، وزوجة العقيد وطفلهما، وخمسة جنود من البحرية، خرجوا في حدود الساعة الثامنة مساءً من «قلعلو»، وكانت في انتظارهم مجموعة أخرى على شاطئ قرب «قلعلو»، كانوا معظمهم من القوات البحرية. بقي من اكتمال العدد ومن عملية الإقلاع صوب المجهول أنا و(عبده)، وفي

مساء اليوم الثاني كان (قعص) والزورق ينتظرنا على الشاطئ الشرقي لجزيرة «بكع»، وكانت على ظهر ذلك الزورق مفاجئة، نصفها سارة ونصفها الآخر محزنة، ففي الزورق، (سميرة) ومعها (إستير) ويا لها من مفاجئة سارة!

وانتابني شعورٌ آخرُ بالفقد، والضياع، والحزن، وعلى عزيزٍ آخرَ كنت أعتقدُ أنَّه معهم، كنت أتمنى لو كان معنا، ورحل معنا.

ولماذا أنت يا (إستير)؟ ألم اقل لك ذات مرة:

- رجاءً، لا تظهري ثانية؟

هل كنت أقول ذلك لاإراديًّا وبفمي، لا بقلبي؟ وهل كان قلبي يخالف لساني وأنا أطالبها وأترجاها بذلك؟ وكنت أدعو من الأعماق قائلًا:

- لا تبتعدي رجاءً (إستير)؟

عمومًا نحن الليلة يا (إستير) نعيش مشاعرَ مختلفة عن تلك التي عشناها وتعيشنا، مشاعرَ أخرى نتقاطع أطرافها مع الجميع على متن هذا القارب الصغير.. إنَّها مشاعرُ خوفٍ، وترقبٍ، وأملٍ.. نعيش ليلةً صعبةً ويومًا صعبًا، أشبه بيوم الحساب، فالزورق مكتظ بالبشر.. يعجُّ بالهاربين، كنا ثلاثين شخصًا تقريبًا، والقارب صغير.. وفي ليلة

الفرار تلك، وعلى متن ذلك القارب كنا عشرة مدنيين فقط، مقابل عشرين عسكريًا من القوات البحرية التابع لنظام بلدنا، والغريب أنَّنا نفر ونهرب من الجبهة الشعبية أو من نظام بلدنا، والغريب والعجيب أن أكثرية الفارين من الشعبية، هم الشعبية نفسها، والله ما يعجبني في هذا النظام عدالته في توزيع الظلم.. يعرفها عندما يتعلق الأمر بالظلم، فقط يعرف العدالة في هذا الموقع، الشعبية لا تحسن سوى التوزيع العادل للظلم، وتوزعه على شعبها ومناضليها، تظلم في الحضر وفي الريف.

كانت ليلة هادئة والبحر هادئ وصافي، و(كيداني) رغم تطميناته وتشجيعه للرفاق كان خائفا مثلي والعساكر، وبعد منتصف الليل وفي حدود الساعة الواحدة اطمأن الجميع، فالبحر كان هادئا تلك الليلة، والقبطان محترف، وسرعة الزورق جيدة، وأخبرنا كذلك القبطان بخروج زورقنا من المياه الإقليمية الإرترية ودخولنا إلى المجرى الدولي.. بعدها رقد بعض رفاقنا نتيجة للإرهاق والتعب، وبعضهم استسلموا للنوم لا إراديا بسبب دوار البحر.

في بداية فرارنا وقبيل الانطلاق من «بكع» كان الجميع خائفًا وقلقًا وحذرًا، ومن المؤكد أن ذلك الشعور كان يساورنا ويزورنا جميعًا، إلَّا أن أفراد القوات البحرية وقتها تعدوا حالة الخوف،

فكانوا مرعوبين جدًا، فلا كلام، ولا معنويات، لا حركة، ولا نفس لهم، كانوا أكثر خوفًا منا، خائفين من الشعبية ومن فرضية ملاحقتهم لنا ومن احتمال إرسالهم زوارق حديثة أكثر سرعة من زورقنا وإفشال مخططنا للهرب وللنجاة، كانوا أكثر خوفًا منا نحن، مع أنهم كانوا يمتلكون أسلحةً رشاشة، أمَّا نحن ليس لدينا سوى سكين بصلٍ واحدة ووحيدة.

أنا و(قعص) و(عبده) كنا قادة تلك الأمسية، والرتب العسكرية الحقيقية لبحرية بلدنا لم تعد نافعة في البحر، (قعص) عقيد، و(عبده ورسما) قبطان، وأنا كنت ملازمًا بحريًّا، فالبحر ونظامه يفرض عليك وضعًا وقانونًا خاصًّا، فمن يحسن التعامل معه، من يعرف دروبه جيدًا ومن يعرف خفاياه دون ريبٍ، هو السيد، فأنا كنت سيدًا على الورق.. وانطلقنا من جزيرة «بكع» صوب ميناء «الحديدة» في حدود الساعة العاشرة مساءً.

ولله الحمد وفقت في مهمتي، ولم أخيب ظن (قعص) بي عندما اختارني مساعدًا بحريًّا ثانٍ له رفقة ورسمًا.

كنت أمثل فقط العارف بدروب البحر، لكني في الواقع كنت مثل (إستير) أستمتع برؤيته من بعيد وأفضل «الزقني» على السمك مثلها، هكذا أنا وهكذا خلقنا الله، فالأذواق لا تناقش، نأكل

ما يعجبنا، ونلبس ونحب ونختار ما يعجبنا.. صراحة عشقت واخترت ولبست (إستير)...

(إستير) لماذا تظهرين في حياتي لحظات وتختفين؟! كانت بداية ظهوركم وطلتكم الأولى في «طيعو»، وفي مطعم ومنزل (سنايت)، وأيام قليلة رغم ندرتها كانت لها إيقاعها الخاص ومذاقها المميز، كانت بإيقاع رقصة «سيليلي»، وبمذاق الزنجبيل، كانت عشرة أيام فقط، واختفت بعدها سريعًا، وبعدما قلبت كل أوراقي وسريعًا، وبعد ذلك تظهرين الليلة في جزيرة «بكع» وليلة الرحيل، وعلى متن زورق يقلنا إلى اليمن في رحلة الفرار من الوطن، وترافقني عيناك يا (إستير) في رحلة سفرنا وفرارنا ومعهما لا أشعر لا بالخوف من الشعبية، ولا من البحر وسفره المجهول بالنسبة لي، وأنا جالس بقربك الليلة، أحادثك وأطمئنك وأمنِّي نفسي آمالا عريضة، وأقول لك الليلة يا (إستير) ما كنت أسمعه دائما عن أمي التي كانت ولازالت تفتخر بانتمائها إلى موطن والدها، وكان اليمن دوما على لسانها، فأمي حكمية يمنية (من قبيلة «حكمي» بين «مخا» وباب المندب)، وأقول لك أيضًا ما أسمعه الليلة عن (قعص) و(ورسما):

- البحر هادئ الليلة، لا رياح، لا عواصف، كلُّ شيءٍ طبيعيٌّ يا (إستير)، وهذه جزيرة فلانية، وذاك جبل فلاني، وهو أول ما يظهر

من الضفة الأخرى ومن «بر العرب»، قطعنا نصف المسافة يا (إستير)، وبقيت ربع المسافة، وخلاص يا (إستير) بقي ساعة ونص ساعة من وصولنا لميناء الحديدة، وهذه هي «الحديدة» يا (إستير)، ظهرت الآن بشكل واضـح.. هذا ميناؤها الرئيس، وذاك ميناء الصيادين، وهذا كورنيش «الحديدة» وخلفه الحي التركي، انظري وشاهدي تلك قلعة (محمود) باشا! كان هذا الباشا من «الحديدة»، ومن هذه القلعة يحكم الضفة الشرقية والغربية للبحر الأحمر إلى إمارة «زيلع» جنوبًا. ومدينة «الحُدَيْدَة» هي عاصمة إقليم «تهامة» وتقع على ساحل البحر الأحمر، وتبعد عن العاصمة صنعاء بحوالي 226 كيلومترًا. ويشكل سكان عروس البحر الأحمر ما نسبته ٪11 من إجمالي سكان الجمهورية اليمنية تقريباً، وتحتل المرتبة الثانية سكانيًا بعد محافظة «تعز»، وتعد الزراعة النشاط الرئيسي لسكان المحافظة، حيث تحتل المركز الأول بين محافظات الجمهورية في إنتاج بعض المحاصيل الزراعية وبنسبة تصل إلى (٪28.6) من إجمالي الإنتاج، ومن أهم المحاصيل الزراعية الخضروات والفواكة والأعلاف، فضلاً عن نشاط الاصطياد السمكي، بحكم أن المحافظة تطل على شريط ساحلي طويل غني بالأسماك والأحياء البحرية كمًّا ونوعًا. والنشاط التجاري في «الحديدة» متميز من خلال عمليتي

(الاستيراد والتصدير) لثاني ميناء رئيس للجمهورية اليمنية، كما يوجد في المحافظة العديد من المنشآت الصناعية من أهمها مصنع أسمنت «باجل»، وبعض الصناعات الغذائية والمشروبات الغازية. وأهم المعادن الموجودة في أراضي المحافظة هي: الجرانيت، الرمال السوداء، الأصباغ، السيراميك، الملح الصخري، الجبس وبعض المعادن الطينية الأخرى، ومعالم السياحة في محافظة «الحديدة» متنوعة بالإضافة إلى معالمها التاريخية أهمها الآثار الإسلامية في مدينة «زبيد» التاريخية، كالجامع الكبير وجامع «الأشاعر» في مدينة «بيت الفقية»، ومدينة ا»لخوخة» الساحلية، والسخنة الطبيعي. متوسط درجة الحرارة في «الحديدة» خلال أيام السنة بحدود 29 درجة مئوية.

في الساعة السابعة صباحا وبعد تسع ساعات من مغادرتنا للوطن ظهرت مدينة «الحديدة» بوضوح، وعادت قطرات الماء إلى وجوهنا جميعًا وفرحنا..

كانت (إستير) تبدو قوية وأكثر تحملًا وثقةً، خلاف (سميرة) وزوجة العقيد، استسلمتا لدوار البحر وللخوف من ساعة ركوبهما في الزورق، ومنذ بدايات رحلتنا وقبيل وصولنا لميناء الحديدة بساعة واحدة، بدأت (إستير) تعاني قليلًا من دوار البحر، كان ذلك

في خواتيم رحلتنا المجهولة، كانت تفاصيل جسدها كذلك يحكي عن أمورٍ غريبة، مدهشة محيرة، كما لو أنها رسمٌ أو لوحةُ خيال، كان التعب باديًا على وجوه الجميع، عدا وجهها، فكان يحمل فقط حزنًا كسالف عهده وطبيعته، وعندما ابتسمت (إستير) لتواسي (سميرة)، شكلت ثنائية حزنها وابتسامتها لوحة أخرى متناقضة، لكنها جميلة..

واتفقنا سلفا مع الجنود والعقيد، أنا ورفاقي المدنيون في شاطئ بلدنا أننا من الآن فصاعدًا عساكرَ وقوات بحرية، سنمثل أدوار أفراد في القوات البحرية ليحولونا إلى السجن المركزي، وتسهيل أمورنا ومهامنا للرحيل إلى بلد ثالث، وجهزنا ورفاقي المدنيون والعقيد، الأجوبة التي سوف نمنحها للسلطات اليمنية وللهلال الأحمر اليمني ولمفوضية اللاجئين.

دخلنا ميناء «الحديدة» في الساعة الثامنة صباحًا.. بعد عشر ساعات من انطلاقنا من «بكع»، وسلمنا أنفسنا هناك وخضعنا للتفتيش وللتحقيق وحولنا إلى سجن «الحديدة» بعد طلوع روح.

وصلنا «الحديدة» ونجونا مع من نجوا ببدنهم من نظام بلدنا، ومن معاناته اليومية لنا، نجونا، وتم إلقاء القبض ليلًا على من تبقى من أهلنا في «طيعو»، وعلى أهالي كل من هرب معنا في كل قرية ومدينة وريف إريتري، وتم القبض على (سنايت) و(أحمد)،

وعمتي (فاطمة)، والعم (ورسما)، وآخر في «قلعلو» كان قد شوهد مع (إستير) و(سميرة) في يوم سفرهما والتحاقهما بنا.

وانتهت رحلتنا الأولى بميناء «الحديدة»، وانتهت رحلة (سنايت) في السجن، سُجنت ظلمًا بتهمة غيرها، كان مطلوبًا منها إعادة (سميرة)، وأنا، و(قعص)، و(إستير)، و(كيداني)، و(ورسما)، كانت متهمة بتهريب ستة أشخاص ونفيهم خارج إريتريا.

أُفرج عن (أحمد)، وعمتي، والعم، و(ورسما)، بينما رحَّلوا (سنايت) إلى «عصب»، وحُبست هناك.. و(سميرة) معنا في الزورق، تبكي لـ(سنايت).. أسفنا لحالتها، وكنت أواسيها رفقة العقيد و(إستير)، وأسفنا كذلك لفراق (سنايت)، وإن لم يصل ألمنا إلى ألم (سميرة)...

(سنايت) تركت المقهي والمطعم ذلك اليوم مفتوحًا، وتركت (برهاني) و(سامي) في بيت جارتها وتركت منزلها مفتوحًا كذلك، وتركت فناجين قهوتها مقلوبة للأسفل.

(سنايت) خلقت لتضحي، وبداية تضحياتها كانت لأخواتها الثلاثة، قدرها أنها كانت الأخت الكبرى والأم الثانية لأخواتها، وعليها أن تغسل ويلبسن، وتطبخ ويأكلن.. وأن ترتب محافظهن

المدرسية وتعدها، وعليهن أن يلبسن الأفضل، ويأكلن الأشهى... درسن جميعًا، وشقوا طرقًا عبَّدتها لهن (سنايت) رفقة والدتهن، توفيت والدتها ولم يعد لديها أحدٌ في السودان وقررت العودة وعادت من السودان، صحيح أن أخواتها يسألن عنها ويهاتفنها من حين لآخر، لكنهن لم ولن يستطعن رد جمائلها، وما قدمتها لهن من تضحيات ليصلن إلى ما وصلن إليه اليوم.

احترقت كمشعة من أجل أن يحيوا هن، وأن نحيا نحن، وبسببهن حرمت (سنايت) من أمور مهمة كالتعليم وتعلمن، وبسببنا سُجنت ورحلنا.

كانت (سنايت) وطنَ الجميع، وقطرةَ شرفٍ في بحور نفاق الكثيرين ممَّن حولها وفي محيطها.

آه لو تدرون والعالم كم حرمت هذه السيدة! وكم عانت من أشياء كثيرة منها حرمان طفولة، وتجارب زيجات فاشلة، وحب وعشق كسرها، وتعرضها لاحتيال، ولسرقة، ولخيانة، واتهامها ظلمًا رفقة مطعمها بالفساد وإفساد المجتمع والشباب؟

كانت عكس ذلك تماما، وكان يفترض جلد كل من حاول إيذائها، ونشر وروج لتهم باطلة ضدها، كان يجب إقامة حد البهتان وتشويه سمعة الغير عليهم، وحد «إن جاءكم فاسق بنبأ» وكان عليهم في المحصلة أن يُجلدوا ثمانين جلدة.

(سنايت) كانت إصلاحية تعيد تربية أبنائهم أو من فقدوا السيطرة عليهم من أبنائهم، وأنا كنت منهم، علمتني الحياة و(سنايت) هنا أمورًا مهمة، كنت بحاجة إليها، وجئت هنا لأتعلمها.

كانت كقصيدة شعر سحرية تحمل كلَّ ألوان الشعر الحديث والتقليدي، والمرسل الحر وشعر القافية، وكانت كذلك بأوزانه وبعروضه وببحوره أيضًا، وكلوحة تشكيلية تعكس كلَّ أبعاد حياتنا وترصد يومياتنا بكل صدق.. وكانت (سنايت) ثوبَ عرسٍ وحزنٍ معًا، نصفه أبيض ونصفه الآخر أسود، (سنايت) في النهاية كانت وطنًا نحمل كل أوجاعه وفواجعه ويحمل كلَّ تناقضاتنا وتناغماتنا، تباعدنا والتحامنا.

كانت (سنايت) بارعة من يومها وفي كلِّ شيءٍ، وأخيرًا أبدعت وتفننت في التضحية، وكانت تأخذ دومًا أقل مما تمنحه للغير، مدينة لي ويشهد على ذلك دفتر حسابي في مطعمها، مع أنه أُغلق منذ أربع سنواتٍ بديون، وما زال دينها مستمرًا إلى يومنا إلى العمر كله.

كانت (سنايت) مثل مصور مهني حر، لا يستعمل مقصًا ليشوه الصور لتوافق رؤية هذا أو ذاك، كانت (سنايت) مثل ذلك المصور حينما رفضت الركوب معنا في الزورق، رأت في ذلك خطرًا علينا وبأننا لن نصل ولن يسمعنا العالم، اختارت أن نرحل نحن، وتصور

هي من بعيد، كانت كمصور محترف وأمين وراوئي مبدع، فالأنظار كلها كانت مسلطة عليها، كانوا يراقبونها، فهي في نظرهم حلقة وصل بيننا وبينهم، كنا بداية خيط و(سنايت) نهايته، واختاروا أن يقفوا عند نهايته وعند سنايت.. لنموت جميعًا في وقتٍ واحدٍ، واعتقدوا أن الحلقة والقصة ستكتمل بدخول (سنايت) على الخط، اعتقدوا أنها آخرُ من سيصعد في ذلك الزورق.

كانت أضحية فرارنا وهربنا نحن الخمسة: (سميرة) و(أنا)، و(كيداني)، و(إستير)، و(قعص)، و(عبده)، وأربعة وعشرون شخصًا آخرَ.

في النهاية كانت (سنايت) رواية مسرحها إريتريا، واهتمامها إريتريا، فهي بلا شك رواية تشبه رقصات تقليدية إريترية، لا يختلف حولها المعارض والنظامي، وإن اختلفوا، وإن وُجد الاختلاف حولها فسيكون اختلافًا محمودًا.

هي مثل تلك الرقصات الفلكورية المتعددة المختلفة التي تختار منها ما تشاء، وترقص فلكورًا يعجبك يوافق هواك، وآخر يعجبك أيضًا، تشاهده باهتمام؟ وآخر لا يعجبك، تتركه دون أذى.

كانت (سنايت) راوية تصور كلَّ شيءٍ، تصور الداخل والخارج، ما يجري هنا وهناك واهتمامات هذا وذاك.

الليلة ليلة الرحيل والفراق ووداعا سنايت سنفتقدكم..

سنغادر وسنرحل بعيدا عن ديارنا، سنغادر إلى «بر العرب».

أفتقد الليلة روحي ومن تركتهم مرغمًا في عالمي الغريب، ومن نفوني إلى عالمهم الغريب أيضًا، سأبكي أبي وأمي وإخوتي وحيي الخالد، سأغادر يا أبي الليلة «طيعو» مثلما غادرتها أنتَ ذات مساء، وسأفرُّ وأرحلُ عنها بطريقة تشبه طريقة رحيلكم وهروبكم ونفيكم عنها، وإن اختلفت الوجهة والزمن..

وسنفتقد وسنبكي الليلة يا أبي برِّي أنا، بر العفر، و»طيعو»، وعمتي (فاطمة)، و(صالحة)، و(أحمد)، وأصدقائي: (حسن)، و(رمضان)، و(إبراهيم)، وكل الرفاق والأحبة..

وسأفتقد يا أبي الليلة وطني الجريح والمنسي ووطني الأصلي، ووطن همي.. إريتريا...

سأبكي الليلة يا أبي توأم وطني، وطني الأول، وطن الذاكرة والذكريات، ووطن اهتمامي.. جيبوتي..

جاء الرحيل وتجددت أوجاعنا وآلامنا المنسية..

حان الفراق وأمسية العذاب وأمسية البكاء

ستهل أحزان الخريف وتعود أمواج الشجن

ستظل يا وطن الحبيب عنوان المحبة والصفاء

ستطل خاتمة الأخلة ونهاية رائحة الرفاق.

ستكون آخرَ كأسٍ وداعنا وآخرَ يوم للقاء

ستغيب يا وطني العزيز، عزاؤنا لأحبةٍ رحلوا

ستغيب أمسية الربيع وآخر أغنية الوفاء

ستغيب ألحان المساء وسيختفي لون الشروق

يا آخر دمعة في مقلتي وآخر أنغام المساء

يا آخر قصة ورواية رقصت على وتر الرحيل

يا آخر قلعة سقطت ورحلت في زمن الوداااع الرحيييل البكاااء

***

فيثارة الشتات

أنا، و(قعص)، والعقيد، وجنديٌّ آخر جمعتنا زنزانة واحدة وصغيرة في السجن المركزي بالحديدة.. و(سميرة) و(إستير) كانتا خارج هذا السجن، كانتا على بالي طول الوقت وتفكيري دائم بهما، حاولت أن أعرف مصيرهما، وأين تكونان.. وسمعت أنهما وزوجة (كيداني) وطفله، يقيمون في نزل الإخوة في شارع «صنعاء» المقابل لحديقة الشعب، وكانت الإقامة فيه على حساب جهة إنسانية، ربما كانت الصليب الأحمر، أو مفوضية اللاجئين أو جهة اخرى، وربما ستكون فرصتنا مثالية وجيدة للهجرة إلى بلدٍ آمنٍ ومرفَّهٍ نحلم بالهجرة إليه، نستطيع منه أن نساعد أنفسنا وأهلنا البائسين في الداخل وفي وطننا، كنا محظوظين، فرَّ وهرب معنا من نظام بلدنا شخصيةٌ مهمةٌ، وكانت تجري عملية ترحيله إلى بلدٍ ثالثٍ بسرعة عجيبة وغير معهودة، وربما سنكون أول دفعة تخرج من هذا السجن بهذه السرعة المجنونة.. فتمت عملية قبوله والموافقة على

طلب لجوئه في الأسابيع الأولى، من إقامتنا بسجن «الحديدة»، ربما كان منسقًا مع إحدى جهات معارضاتنا في الخارج، ومرتبًا معها أمر الهرب من الوطن والرحيل حيث أراد أو أرادوا له هم، والترحيل ربما إلى أستراليا أو ألمانيا.

ومفوضية اللاجئين طالبت تلك الجهات أن تكون وضعية الملفات التابعة لثلاثين شخصًا هربوا من إريتريا في بوتقة واحدة، ويجب أن تأخذ مسارًا واحدًا، ما يعني إمَّا أن تدرس كلها سريعًا، وإمَّا لا وكلها..

يحيا العدل، ويحيا العدل..

نحن والعقيد (كيداني) في سلةٍ واحـدةٍ، في زنزانة واحدة للسلطات اليمنية، واهتمامٍ واحدٍ من المجتمع الدولي (مفوضية اللاجئين) وسنرحل إلى أستراليا معًا أو ألمانيا معًا، «ورجلنا على رجلك يا عم (كيداني)».

ويحيا العدل!

زميلنا الرابع في الزنزانة جنديٌّ فرَّ من القوات البحرية مثل الجميع، كان (عبد الكريم) مسلطًا على العقيد (كيداني) في الزنزانة، وكان يحمِّله والشعبية، ما آلت إليه البلاد.

ويقول للعقيد السابق:

– ولو فعلتم كذا وكذا يا (كيداني)، ولو وقفتم في وجوه بعضكم البعض، لما حصل ولما صار و و و...

كان (عبد الكريم) يتنفس الحرية في هذه الزنزانة الصغيرة والمغلقة بالضبة والمفتاح، كان محرومًا من الحرية ويمارسها في هذا السجن وفي هذه الزنزانة، وعلى العقيد (كيداني)، الذي لم يستطع يومًا أن يرفع وجهه في وجهه في السابق وفي الداخل.

وأنا الذي لم انتقد (عبد الكريم) وأفراد من القوات البحرية الإريترية يومًا، تشجعت وانتقدتهم هنا في سجن «الحديدة»، وانتقد منهم جنديًا مخلوعًا هاربًا مثلنا، فقلت لـ(عبد الكريم) بدوري، وأنا أمارس عليه أو معه ما كان يمارسه هو مع (كيداني).

يا أخي ما ذنب (كيداني) بربك؟! لولاه لما وصلنا اليوم أنا، وأنت، سبعة وعشرون شخصًا آخر غيرنا إلى هنا وإلى بر الآمان! أخي، الزورق ورخصته خرجا باسمه والوقود أيضًا بسببه، والموتور الاحتياطي الذي بفضله نجونا من موتٍ محققٍ.. كان كلُّ ذلك بفضل الله أولًا، وبمجهود ذاتي من (كيداني).

يا أخي أنت مثله كنت جنديًا، فقط رتبكما كانت تختلف، كان بإمكانك أن ترفض طلبه هناك قبل أن تطالبه هنا بأن يرفض طلبه من

قادته هناك.. كنت وهو... في سلة واحدة، ووجهان لعملة واحدة، كنت مثلكما أنا، و(قعص) و(إستير) أيضًا، لم نقل شيئًا لكما هناك، لم نرفض ممارساتكما معنا، ولذا علينا ألَّا نطالبكما هنا في السجن، علينا أن نطالب من بقي منهم هناك.. وليس من هرب، ومن سجن، ومن واجه الموت، ومن مات ورجع من الموت مثلنا.

الزنزانة رقم (66) في السجن المركزي بـ«الحديدة» كانت تجمعني بـ(قعص)، و(كيداني)، و(عبد الكريم)، بينما مفوضية اللاجئين تتفقد دوريًا في «الحديدة» رفقة الهلال والصليب الأحمر أحـوالَ اللاجئين ومنهم نحن نزلاء السجن المركزي.. التقينا للمرة السادسة بمندوب المفوضية السامية للاجئين في لقاءٍ دوريٍّ «ميتينج»، ويبدو أنهم اختارونا في اللقاء السادس الذي جمعنا بهم، ولك الحمد يا الله، فلم تذهب تضحيات (سنايت) سدى، والحمد لله كذلك لأنهم كانوا قد أوجعوا رءوسنا وصدعوها بأسئلة متكررة، كنا ملزمين إجابات كاذبة متكررة، لكننا من كثرة روايتنا لها صدقناها والله! حقيقة صدقت أنني كنت فردًا في القوات البحرية الإريترية، وبدأت أقولها بصدق وعفوية لكلِّ من يسألني هنا في السجن، بل أحدد له موقعًا كنت أشغله، وأين خدمت في رحلة انضمامي الكاذبة للبحرية على مدى خمس سنوات...

أنا، و(قعص)، و(سميرة)، و(كيداني)، وتسعة أشخاصٍ آخرون، سنغادر إلى العاصمة «صنعاء» بعد يومين، وبعد أن مكثنا في سجن «الحديدة» شهرين سنغادر إلى «صنعاء» تأهبًا للرحيل إلى أستراليا وتحديدًا إلى «ميلبورن»، و«سيدني»، ومدينتين أستراليتين أسمع بهما لأول مرة، ما يهمني كان «ميلبورن». مكتوبة المدينة وبعض التفاصيل في الوثيقة التي منحت لنا أنا و(قعص). أنا و(قعص) وجهتنا واحدة، بينما (سميرة)، والعم (كيداني)، وزوجته، وابنه وجهتهم «سيدني»، وسبعة لاجئين آخرين لمدينتين أخريين.

افترقنا و(سنايت).. وافترقنا و(سميرة).. وكذا صديقنا (عبده ورسما) أوقعته القرعة في مجموعة ألمانيا.

أمَّا حالة (إستير) فهي الحالة الصعبة والصادمة لها ولنا أيضًا.. يبدو أن المسكينة تعثرت وتلعثمت، وأخطأت ولم تقل شيئًا واحدًا، أو قالت شيئًا مختلفًا في «الميتيج» الأخير، ذكرت أنها كانت في السودان لاجئة إريترية، لم يكن ذلك جيدًا ولا ضروريًا، أعاق حلمها في الهجرة، وجاءَ ردهم مكتوبًا وصادمًا، مفاده أن اسمها موجودٌ على لائحةٍ لاجئي السودان وعليها أن تعود إلى هناك بمساعدة المفوضية، وتكمل محاولتها مثلما بدأت من هناك.

مصيبة جلبها الحظ العاثر لـ(إستير)، وكارثة أخرى حلت على رأسي كانت (إستير) عزائي في (عائشة) ووطن غادرني بطريقة مؤلمة ذات يوم.. وعزائي أنا و(سميرة) كذلك في «سنايت».. كنت أخاف من شيءٍ واحدٍ، وهو أن ترحل (إستير) إلى ألمانيا، ونحن إلى أستراليا، أو العكس، لم أفكر قط بهذا «السيناريو» البائس والأليم، كانت وجهة مجموعتنا الثلاثين واضحة منذ البداية أستراليا وألمانيا.

(إستير) كانت ألمًا آخرَ جديدًا، وكنت طيلة شهرين في سجن «الحديدة»، أتألم عندما أفكر في الطريقة التي فقدنا بها العزيزة (سنايت)، وأنَّنا سنرحل بعد أسابيعَ قلائل، وهي قابعة في السجن في وطن يلفظ بعضنا خارجًا ويلقي بعضنا وراء القضبان الحديدية، وجرمها أنَّها حررتنا، وجرمنا أنَّنا تحررنا، جرمها أنَّها قالت لنا:

- سافرو أبحروا فأنا وقعت في الكمين، وإذا عدتم وحاولتم الاقتراب مني ستقعون معي في قفص من حديد.

قالت:

- اهربوا وارحلوا! ودعواتكم لنا وللوطن بالخلاص.

(إستير) مثل وطن جاء سريعًا في مايو 1991، وغادر سريعًا مثلما جاء، كانت مثل طيف وسراب، تظهر من حين لآخر وفي كل ظهور لها

تقلب طاولة وتحدث هزة أرضية تدمر كلَّ ما على الأرض وتختفي، ومن ثم تزورنا بدورة زلزالية أخرى تخلف مآسي وجراحات غائرة.

في فندق الإخوة في «الحديدة» التقينا لسويعات، ولمرتين، وليومين لا ثالث لهما، وزيارة خاصة منحت لي، كلفتني الزيارتان الكثير من التعب وأقل تلك التكاليف مائة دولار يرسلها لي أهلي نهاية الشهر، وكنت أنتظر ذلك المبلغ بفارغ الصبر لأشتري به رخصةً غير قانونية، لأشرب بها فنجانَ قهوةٍ معهم.

فعلت الممكن واللاممكن من أجل زيارة (إستير) و(سميرة)... طلبت رخصةً من إدارة السجن لزيارتهما، فطلبوا مني كتابة طلبٍ خطيٍّ لعيادة مريض تجمعني به صلة قرابة وساءت حالته.

فعلت ذلك وكتبت.

ووافقوا على طلبي ومنحوا لي رخصةً وشرطيًّا يرافقني، ويعرف مسبقًا أن المستشفى وعيادة مريض حبرٌ على الورق، وينتظر هو الآخر نصيبه ومنحته، مثلما أخذ رئيسه حصته.

(سميرة)، و(إستير)، وزوجة (كيداني)، كن أفضل حالًا منا في فندق درجة رابعة ولكلٍّ منهن غرفة خاصة، وفي كلا الزيارتين احتسيت فنجانَ قهوةٍ ساخن من يد (إستير)، وفي زيارتي الثانية والأخيرة، وبعد ساعة من الحديث مع (إستير) واحتساء القهوة

معها، وقعت عيني على ساعةٍ حائطية كانت مقابلة لي تعلن انتهاء وقت الزيارة، شعرت بالقلق، والضيق، والضياع، قاطعت الحديث لثوانٍ، ووضعت فنجاني على الطاولة، وفتحت باب غرفة (إستير)، ومنحت مرافقي الشرطي الذي كان ينتظرني على عتبة باب غرفتها ما بقي معي من المال، ليمنحي ساعةً أخرى إضافية بجوار (إستير)، فساعة واحدة بقربها تمر كلمح البصر، وهاهي مرت وعدت سريعا في آخر لقائنا دون أن أكمل فنجاني الأول.

وكانت (سنايت) تحكي دومًا عن (إستير)، لا حكاية لـ(سنايت)، ولا يوميات بسيطة ولا مركبة تخلو من (إستير)، كانت (إستير) بطلة مسلسل يومي تسرد تفاصيله (سنايت) على مدار سبع سنوات من مقهاها ومنه تسرب وتغلغل في كياني، وعروقي، وأوردتي..

بعد أسبوع من ظهور (إستير) الأول اتفقنا على الشراكة في مشروع جديد، وفي مسلسل عمري أزلي، نتقاسم فيه البطولة والتمثيل أنا وهي، مسلسل ثنائي لا تتسع حلقاته لأكثر من شخصين.

أنا و(إستير) ننتمي إلى وطنٍ واحدٍ احتضننا في ربوعه وبين ضفتيه.

برفقة (سميرة) و(قعص) وآخرون، التقينا أنا و(إستير) هناك حول مائدة القهوة التي التقت فيها أرواحنا بداية، وأعقبه لقاء جسدي عفوي فوق مائدة العشاء لم يكن كل ذلك مرتبًا..

كانت (إستير) تنوي الإقامة الدائمة أو لبعض الوقت مع (سنايت) ربما ثلاثة أشهر أو أكثر، لكنها قررت أن تعود حيث كانت سريعًا حتى نستعيد أنا وهي أنفاسنا، ونفكر بهدوء، وبعيدًا عن بعضنا البعض، رأت ذلك (إستير)، أما أنا فلا، لم استسغ ذلك مطلقًا، لربما رأت هي ما كنا نفعله نزوةً أو إعجابًا ببعض... وبتفاصيل معينة، ودون الغوص في الصميم، رأت في ابتعادنا عن بعضنا ولو لبعض الوقت، خيرًا وأنه سيكون أفضل لنا، فستستمر علاقتنا إذا كانت يقينًا، وستذهب بلا رجعة إذا كانت سرابًا.

زيارتي الثانية ولقائي الأخير بـ(إستير) كان في ذلك الفندق، والغريب أن كل ما حدث مؤخرًا لم يؤثر على (إستير)، ولم تختفي ابتسامتها الممزوجة بالحزن الساكن بداخلها، ولم تعر اهتمامًا كبيرًا بنتيجة الفحص المخيبة للأمل، وبنتيجة «الميتينج» الأخير والسالب.

(إستير) هيأت نفسها لمغادرة السودان واستئناف رحلة الميل من هناك، ومفوضية اللاجئين حجزت لـ(إستير) تذكرة سفر إلى الخرطوم على متن الخطوط الجوية اليمنية، اتفقنا على أن نصنع لقاءً مجددًا ودائمًا، وعليه إمَّا أن تلتحق بي في أستراليا، وإمَّا أن أرحل أنا إلى السودان لملاقاتها.

جميع لقاءاتنا كانت صدفًا، ففي كلِّ مرة التقينا فيه لم نرتب للقاء أبدًا، وفراقنا الأخير هذا، ما هو سوى صدفة عكسية وصادمة، فكلينا لم يكن يعتقد أن تسير الأمور هكذا، أو على ما تجري عليه الآن مطلقًا، فالصدف عمومًا ليست أشياء نرتبها، وإنما هي أشياء رتبناها في اللاوعي في اللاشعور، ونسينا أنَّنا رتبناه، وعندما تظهر في حياتنا نسميها صدفًا.. كانت (إستير) تسكن معنا، تعيشني كوطن خلفي يعيشنا دائمًا. وظهر فجأة دون أن أرتب لظهوره..

ونسينا للحظات ما حدث هذا الأسبوع ورمينا كل الخيبات والانكسارات وراء أظهرنا، واحتسينا قهوتنا هذه المرة على إيقاع موسيقى سودانية وعلى إيقاع نغمٍ جميلٍ حالمٍ وعلى رائعة «صدفة» للفنان العملاق محمد الوردي:

صدفة عيوني شافت

ليلي الباقي نور

يا أيام ربيعي

عمري معاكي أسهر

ياما بحبك

باعبد حبك

علشان حبك

روحي فداك

صدفة وأجمل صدفة

أنا يوم لاقيتك...

يومان وسنغادر نحن إلى «صنعاء»، وسترحَّل (إستير) إلى السودان وستستأنف من هناك إجراءات الهجرة..

وعدتها بأنَّني سأحاول كل ما أستطيع وما لا أستطيع لأجلنا.. افترقنا على صناعة لقاء مجدد، وليس على أمله..

(إستير) سترحَّل إلى السودان و(عبده ورسما) كان على قائمة ألمانيا وتأكد رحيله، و(سنايت) سترحل قريبًا من سجن «عصب» إلى سجن «عدي خالا»، وأنا و(قعص)، و(سميرة)، و(كيداني) نتجه بطائرةٍ واحدة صوب أستراليا ونمر على نقاط عبور عابرة،

غادرنا عاصمة اليمن «صنعاء» في العاشر من يناير عام 2015، وكانت قد تحولت هي واليمن مؤخرًا من الخريف إلى الربيع، أو من الرئيس على صالح إلى الرئيس عبد ربه هادي، وتركناها نحن، وهي تحولت من ذلك الربيع إلى خريف آخر، ومن الرئيس عبد ربه هادي إلى القائد عبد الملك الحوثي، فالحوثيون سيطروا على

العاصمة «صنعاء»، واستولوا على زمام الأمور في اليمن، ومدن يمنية في طليعتها «عدن» و«تعز»، يشهدن مظاهرات واحتجاجات عارمة يوميًا، والمحيط اليمني بين منذد للانقلاب على الشرعية في «صنعاء» وبشدة، ويقود هذا التيار المملكة العربية السعودية التي استلم فيها العرش مؤخرًا الملك (سلمان بن عبد العزيز)، وأعطى الملك الجديد صلاحيات حكم واسعة لولده سمو الأمير محمد بن سلمان، وتيار آخر مضاد للتيار الأول، فالثاني مرحِّب وداعم للثوار الحوثيين الجدد أو الانقلابيين الحوثيين في صنعاء، وهذا الجناح تقوده جمهورية إيران، أما الدول الكبرى فصامتة وردود أفعالها محتشمة..

تركنا اليمن في هذه الحالة الصعبة وفي أجواء مشحونة مكهربة، عمومًا لم تطل إقامتنا في «صنعاء»، أقمنا بها عشرين يومًا فقط، وتركناها هادئة نسبيًا ومستعدة لكل الاحتمالات.. ودعوت الله من أعماق قلبي أن يعيد الأمن والأمان إلى اليمن السعيد؛ فهو وطن أمي وجدي (سالم)، ووطن تربطنا به كذلك علاقة جوار، وعلاقة بحر وصيد، وجزر وشواطئ وموانئ شرقية وغربية لبحرنا، وعلاقات تجارية، وعلاقات تاريخية متجذِّرة في الأعماق..

وأؤمن في ذات الوقت أن اليمن كبير وعظيم وأهله عظماء وحكماء، وقادر هو وهم على الخروج من هذه الأزمة، فلِمَ لا؟! فهي أرض الحكمة وهم أهل الحكمة، فقالوا قديمًا أنَّ الحكمة يمانية..

بداية علاقتي بـ(إستير) ولقائنا الأول كان في ذلك المقهى.. أعقبه لقاءٌ ثانٍ في جزيرة بعرض البحر، ونهايتها كانت فندقًا في شارع «صنعاء»، ثلاث محطات وأمكنة مختلفة، في زمنٍ واحدٍ أو متقارب جدًا، ربما لا يتعدى من البداية إلى النهاية ستة أشهر، كنت و(إستير) ضحية هذه الأمكنة، فبقيت كل هذه الأمكنة وعلاقتها ببعضها كما هي، ولم تتبدل هي، لم تتغير علاقتها... فقط لا وجود فيها لـ(إستير) ولعلاقتنا...

«الأماكن اللي مريت انت فيها

عايشة بروحي وأبيها

بس لكن ما لقيتك»

«كنت أظن الريح جابك

عطرك يسلم علي

كنت أظن الشوق جابك

تجلس بجنب شوي

كنت أظن وكنت ظن

وخاب ظني»

(الأماكن لمحمد عبده)

وفي طريق عودتنا جلسنا أنا وحارسي الشرطي في «كافيتيريا» بحديقة الشعب المقابل لفندق (إستير) لنشرب عصير الموز بالحليب المثلج والمطعم بـ«الفينتو»، يا الله، ويا له من مشروب شهي ولذيذ! لم أجد ألذ وأطعم منه في حياتي، وأمامي شاشة مسطحة كبيرة في تلك «الكافيتيريا»، فكانت لحظتها تبث إحدى المحطات الفضائية نغمًا يعكس حالتي ويطابق واقعي الحالي، وكان ذلك النغم أغنية «الأماكن» لفنان العرب محمد عبده..

وعندما عدت من فندق (إستير) إلى زنزانتي كان (كيداني) و(عبد الكريم) في نقاشٍ سياسي محموم، وكالعادة (كان) محور حديثهما النظام الحاكم في بلدنا ويهاجمون الهدف أي الجبهة الشعبية، الحزب الحاكم.. كلٌّ على طريقته، كما أهاجمها أنا بطريقتي وغيرنا بطريقته.

(كيداني) كان يراها عصابة ومرتزقة وجلُّ قيادات اليوم من أصول «وياني تجر» أي (تقر، أي: إقليم إثيوبي على الحدود الإرترية)، ولا يهمهم أمر الوطن، ويقول (كيداني) الحل في بديل وطني، و(عبد الكريم) يقول أنَّها تكرس هيمنة قومية واحدة وطائفة واحدة على زمام الأمور في البلاد، وهمشت هذه الفئة حقوق الآخرين، ويرى (عبد الكريم) أن الحل هو تقسيم البلد طائفيًا (الإسلام والمسيحية) أي يرى الحل الفيدرالي وفيدرالية طائفية..

لست مقتنعًا بما يقوله (كيداني) فهو في نظري لم يضع يده على الجرح، فالتغيير واجب وحتمي، ومتفقون على وجوبه، ولكن ليس لأنهم أجانب يا عم (كيداني) بل لأنهم مفسدون وظالمون.

وصديقنا (عبد الكريم) أعتقد أنَّه يحاول أن يكرس ما يفرضه من الآخر، ويكرس من جديد هيمنة قومية مسلمة واحدة على قوميات مسلمة أخرى، وظهرت اليوم عشرات النظريات والتنظيمات في الخارج، منها جبهة تحرير «الساهو»، و«التغرينية»، و«العفر»، و«البلين»، و«الكوناما»، و«الجبر»، و«العساوورتا»، و«بني عامر»، والحل في نظري أن تبقى الشعبية لأعوام أخرى إضافية في سدة الحكم، مؤكد أننا لا نسقطها ونحن بهذه الحالة... فقط ندعوا الله ألَّا يسقطها الزمن ونحن هكذا.

كنت آمل أن نستوعب دروس التغيير من حولنا في العالم لأنه قادم إلينا لا محالة، وعلينا أن نحمد الله لأننا آخر دولة في المنطقة ستتغير، وستطالها رياح التغيير، وأول دولة منحت لها فرصة الاستفادة من تجارب الجميع، ومن مصلحة الجميع ألَّا نستقبل التغيير بهذه العقليات التي ستؤدي بنا إلى حروب أهلية عرقية وطائفية!

وفي الحقيقة لم أقاطع نقاش رفيقي (كيداني) و(عبد الكريم)، لم أشاركهما الحديث والحوار، بل ولم أقل شيئًا لهما.

أراد (عبد الكريم) أن أمنحه صوتي فهو يعتقد أنَّه يمثلني، و(كيداني) يعتقد أيضًا أنني سأنصفه كالعادة، هذه المرة لم أكن مهتمًا بهما، ولا بحديثهما ولا باهتمامهما، لم أكن وطنيًا هذه المرة، ولا قوميًّا، ولا سياسيًّا حتى، فأنا عدت بوجع في قلبي، ولدي مشكلة أخرى هذه اللحظات، كنت مشغولًا بـ(إستير) والمشغول لا يشغل، توجهت إلى سريري وفتحت كتابًا كان على طاولتنا المشتركة، لم أقرأ حتى عنوانه، فتحته لأختبئ بداخله، لم أقلب صفحاته، ولساعة كاملة لم أنتبه لحرفٍ واحد منه، ولم أنتبه حتى أنه كتاب العم (كيداني) وباللغة «التغرينية»... وكنت يا الله! ويا لله! وبالكاد أتحدث بها، أفك طلاسمها.

فتحته وكنت أقرأ كتابًا آخر تركته خارج هذه الزنزانة، وفيه كلُّ شيءٍ يخصني، فأنا الليلة تركتها، وتركت كلَّ شيءٍ في فندق الإخوة.

وحالتي الليلة تشبه حالة تلك السيدة النزارية التي قالت:

- لا شيءَ معي إلاااااا كلمااااات.

انتهى كلُّ شيءٍ لي أيضًا، وودعت (إستير) وودعتني هي بكلمات، انتهت الأغنية والرقص، وانتهى الحلم والفنجان، وانتهيت أنا واختفت (إستير)، فمثل ما عادت السيدة النزارية بوهم

بعد انتهاء الحلم، والأغنية، والرقص لطاولتها مرهقة، منتشية، ومحبطة، وعادت بوهمٍ، وبوجعٍ، بذكرى، وهي تفكر في ذلك الرجل الغريب وفي الحلم.

عدت الليلة أنا إلى زنزانتي وإلى سريري بوهمٍ وبوجعٍ لفقدان (إستير).

وفي الأغنية الشهيرة «كلماااات».. للمطربة اللبنانية ماجدة الرومي، وللشاعر السوري نزار قباني أبدى الرجل الحلم منذ البداية اهتمامًا بتلك الآنسة، وبادلته هي شعور مماثل، وهو وهي على طاولتيهما، تابعها ولاحقها بنظراته الخنثى التي كانت تحمل النضج والبراءة، وربما كانت تحمل الدهاء، وبادلته هي أيضًا النظرات ولكن بشيءٍ من البراءة والفضول.

وبدأ العزف والأغنية ومعهما، قدم الحلم نحوها، واقترب من طاولتها ومد لها يده، رفقة جملة واحدة كانت تبدو طلبًا، لكنها في الحقيقة كانت أمرًا، لا تستطيع معه صده في كل الأحوال، لا يمكن لها وأد خاطره وخنق حلمها

قال لها:

– أيمكننا فعل ذلك؟ يعني الرقص معه.

كانت قراءتها للجملة مختلفة، ربما قرأتها طلبًا صريحًا وجافًا.. وربما وافقت (على) عرضه دون طلبٍ مادي منه، وكان كافيًا مد يده لها دونما كلام، لتلبي وتوافق فورًا على طلبه.

كانت في النهاية، دعوة منه وإليها للرقص معه.. للارتماء في أحضانه وبين ذراعيه.

كان متأكدًا أنَّها لن ترفض عرضه، كان ساحرًا، أو منجمًا، أو ربما شيطانًا..

رافقته لحلبة الرقص، رقصت معه، انسجمت وتجانست معه، وانغمست معه، تبعثرت، وتحللت..

وأثناء الرقص بدا هو هادئًا، مهذبًا، رزينًا، وقويًّا، وهي رقيقة وناعمة، خجولة، وضعيفة.

كان راقصًا ماهرًا ومحترفًا، وكان يحترف أيضًا فنونًا أخرى غير الرقص، وبدأ يمطرها بوابل من نظراته ليشعلها، ويحرق بها ما بقي معها من دفاترٍ وأوراق، بل أغرقها بنظراته تلك، ووصل معدل الغرق أقصى مستواه، وصل إلى أنفها، وبعد ذلك جاءت كلماته وأغرقت عيناها وأذنها وآخر شعرة من رأسها، واختفت هي مع كلماته كليًّا، وغرقت به..

وبعد ذلك بدأ يلاطفها يداعبها، يتغزل بها. وكان قد بدأ بقتلها وانتهى بسلخها وشوائها.

وانتهى كلُّ شيءٍ بانتهاء العزف الموسيقى.

وبعد العزف الموسيقي رحل ذلك الرجل والحلم مباشرة، ودخلت تلك السيدة في غيبوبة وإنعاش لسنة كاملة، وصامت واعتزلت عن الكلام لسنة أخرى، وفي نهاية السنة الثانية بدأت السيدة في رواية قصتها، في أول ظهور لها بعد حادثة الغرق تلك، وأول ما أفاقت، وفور عودتها إلى وعيها ومن على سرير (طاولة) الإنعاش روت قصتها، وبدت وكأنها تتمتم، تهذي، وتتأوه، وهي تحكي عن حيثيات الرقص معه، وارتشاف القهوة رفقته، وحكت ذلك الموقف بعد سنتين بسكونه، وبحركاته، وبحديثه لها وبصمتها هي.

ثمة أمور تجمعنا أنا و(إستير) بذلك النغم، وثمة تقاطع بين الرقص والقهوة، وبين الموسيقى والفنجان، وبين الطاولة والسرير...

في النهاية رحلت أنا إلى أستراليا، ورحلت (إستير) إلى السودان، ثلاث سنواتٍ منذ لقائنا الأخير في فندق «الحديدة»، انخرطت (إستير) هناك في جمعية خيرية تابعة للصليب الأحمر الدولي، وهبت نفسها لخدمة البشرية، ولنشر السلام والمحبة، كنا على تواصلٍ دائم ومستمر، وكلُّ شيءٍ كان طبيعيًّا في السنة

الأولى بعد لقائنا الأخير، وبعد عام جاءت رسالتها لتخلط كل أوراقنا، كان ذلك في آخر «إيميلها» لي، لم أستطع أن أكمل قراءة تلك الرسالة، واسودت الدنيا بوجهي، صدمت، وصمت عن الكلام، ولم أفق إلَّا بعد مرور حولين كاملين على حادثة الانقلاب والموت تلك!

وبعد سنتين من الحادثة عدت ونطقت، وكتبت لها رسالة، وكانت أول رسالة لها بعد حادثة الموت، أو كانت آخر رسالتي لها بعد البعث.. وفيها تمنيت لها التوفيق والسعادة في حياتها.

كانت قد أخبرتني في آخر «إميلها» أنها اختارت أن تلبس ثوبًا أبيضَ طاهرًا، ومنحت نفسها للرب ولخدمة يسوع عيسى عليه السلام، وأنه لم يكن خيارها، بل كان خيار الرب.. اختارت السلام والرهبنة، ولم يكن ممكنًا ما أردناه وما تمنيناه، كان ذلك مشيئة الله.

وتمنيت الخير والتوفيق للقديسة (إستير)، وودعتها..

منعني موروثٌ تقليديٌّ عرفيٌّ من مواصلة حلمي الأول والاقتراب من (عائشة)، ومنعني موروثٌ عقديٌّ دينيٌّ من الاقتراب من حلمي الآخر.. ورضيت بالمكتوب عنوة.. واقتنعت في النهاية أن الأوطان رغم عشقنا لها، ورغم محاولتنا الالتحام بها، إلا أنها لا تحتوينا دائما، وتلفظنا خارجًا في كثيرٍ من المرات.

اشتباك الهويات

بعد مغادرتنا لفندق الأخوة في «الحديدة» اليمنية، وفي آخر زيارتي لـ(إستير)، سألني مرافقي الشرطي في تلك الزيارة من أين أنا؟

الشرطي:

– من فين أنت؟ من أين أنت؟

آه من هذا السؤال!

سؤال تردد عليَّ، في أمكنة وأزمنة كثيرة مرت، وسيتكرر وسيعاد كذلك مستقبلا.. ويا لوجعي من تردده! وترددي من الإجابة عليه.

سألني إياه مرافقي الشرطي وأنا في حالة ضياع، أندب حظي التعس الذي بعثر أملي، شتت فكري، قسمني شطرين وربما ثلاثة أو عشرة، وجاء سؤال مرافقي هذا ليزيد من ألمي وضياعي.

كدت أن اقول له :

– إلى يومنا هذا أنا كنت منها، وكانت هي وطني، وقبلها كنت لوطن آخر.. وغدًا لا أدري يا أخي لأي وطنٍ أكون وأعيش.

الشرطي:

– من اين انت ؟ ما هو اسم وطنك؟

وكنت أعرف أيضًا ما سيعقبه، دون أن أعرف جيدًا الإجابة عليها وما سيليه هو:

– من أية مدينة، وقرية، وريف أنت؟

الغرض من سؤال مرافقي في البداية، أو من الأساس كان بريئًا وبسيطًا، مع أنه يأتي أحيانًا مركبًا.

أعتقد أنه كان للتعارف وللتقارب، وأرجح أن السؤال وصاحبه كانا فضوليين، وقد يكون سؤالًا عابرًا أراد من خلاله الشرطي فتح بابٍ لنقاشٍ آخرَ يريده، فهو قال عني صومالي قبل ساعة، وسمعته يقول ذلك لزميله الشرطي في طرف شارع الفندق، قبل دخولنا للفندق، وقبل أن يسألني من أين أنا، أو من أين أكون، لكني لم أهتم بذلك، فقلت لنفسي لا فرق بين إريتري، وجيبوتي، وصومالي، وحبشي، وسوداني، وحتى لو قلت له لا، يا أخ، أنا إريتري، سيقول عني بعد ساعة أو صباح غد: «تعال يا سوداني او يا حبشي، من أين أنت؟»

وقفت عليه متأملًا للحظات كالعادة، لربما أعطيته زخمًا وحجمًا أكبر منه ومن قيمته ووزنه الطبيعيين، ولربما كان هو كذلك. وأضخم

من جبال «الهملايا» و«الأوراس»، فالسؤال، قديم، جديد، بديهي، بسيط، والإجابة عليه نظريًا تبدو سهلة، ويفترض أن نجيب عليه دون تردد: شمال، جنوب.. شرق، غرب.. وهكذا.

لكنه بدا بالنسبة لي صعبًا ومحيرًا في ذات الوقت، وتمنيت لو عدل الشرطي سؤاله ليطرحه بصيغة تناسب حالتي وحالات تشبه حالاتي... ويطرحه بطريقة مرنة وديناميكية، مثلًا: الآن أم زمان؟ الرسمي أم العفوي؟ الأمنية أم الواقع؟ الوطن البديل أم الأم؟ وفي الأخير جسدي أم روحي؟

لم يكن السؤال صعبًا بقدر ما كان محيرًا ومؤلمًا..

فحيرة وألم أحمد مطر هي نفسها، حيرتي وألمي وغموضي الآن، وإن اختلفت أسبابنا..

«خيروني بين موت وبقاء

فاخترت البقاء

قلت أعدم

اشنقوا بالحبل صوت الببغاء

فأمدوني بصمت أبدي يتكلم»

(أحمد مطر)

كان الصمت هو بداية الإجابة عليه، صمتي طال، لكن الشرطي لم يصمت، أعاد سؤاله،، وخلت أنه منحني وقتًا للإجابة عليه، ولم أستطيع كذلك خداعه، إلهاؤه والهرب من سؤال إجباري أعاده أكثر من مرة.

ليتني كنت وسؤال الشرطي هذا، في ضيافة برنامج «من سيربح المليون»، ليس ربحًا للمليون، وإنما لمنحي وإعطائي خياراتٍ ثلاثة أو عشرة ويكون الاختيار العاشر، الإجابات كلها، لأختار الإجابة العاشرة، أو لأطلب من السائل حذف سؤاله هذا، أو لإعفائي عنه بطريقة غير مباشرة، وأطلب من مقدم البرنامج والسؤال الاستعانة بصديق، يجيب عليه بدلًا عني ويقول ما يشاء ويريحني.

وتمنيت في النهاية أن أحذف السائل أو أصفعه.

من أين أنا؟

أمن وطن يعيشني أم من وطن اعيشه؟ أمن الجذور أم البذور؟ أمن وطن الهموم أم وطن الاهتمام؟ أمن (عائشة) أم من (إستير)؟

قدري أن أتهرب أو أهرب دائمًا وبعيدًا عن هذا السؤال، وقدري هذه المرة أن أدفن مشاعري، وأحاسيسي التي تجعلني دائمًا وعندما أسأل هذا السؤال أعيش حالةَ وهمٍ رهيبٍ وضياعٍ داخلي، وتجعلني تلك الحالة أيضًا أدور في حلقة مفرغة، وبيدي حبل يلف ويدور معي، ليخنقني في دورة ما من تلك الـدورات، خنقني بداية في

دورة (عائشة)، وخنقي بعد ذلك وأخيرًا في دورة (إستير)، ولطالما استطعت الهرب، والقفز، والتحايل على ذلك الحبل، لكنه استطاع أن يقيدني في دورتين وفي وطنين، وسحبا معه إرادتي.. وها أنا لا إراديًا أستسلم لهما، ولذلك الذي كنت أسميه وهمًا ذات يومٍ، وأعيب صديقنا الذي وقع ضحية عشق الآنسة (مريم)، وكنت أقول عن صاحبنا (محمد) بأنه أصبح خاتمًا في إصبعها، وأنه وقع «وقعة سوداء»، فأنا اليوم أسوأ حالًا منه، فأضعت مفتاح عشقي لـ(عائشة)، وسلمت مفتاح حلقة ضياعي لـ(إستير).

من يقع ينهض من سقوطه، والخاتم ربما يسبب أذًى للإصبع ويفرض على صاحبه خلعه، أما أنا امتلأت بالعشق والضياع فهما غمراني كليًّا، من خصلة شعري إلى أخمص قدمي.. وطنان أرغماني على عشقهما حد الجنون، حد الثمالة، لا أعرف كيف ظهرت (عائشة) في بداياتي، وكيف بدأ يغزوني بعد ذلك عشق (إستير)، كل ما هنالك أن (صالحة)، و(سنايت) كانتا سببًا لفرضهما.

قبل رحيلي ومغادرتي للوطن بوقت قصير طلبت من (سنايت) أن تقرأ فنجاني، مثلما تقرأ فناجين الآخرين وتسرق لهم أشياءً محزنة أو مفرحة من مستقبلهم القريب والبعيد، طلبت منها أن تسرق لي أنا أيضًا.

ليس فنجاني وحده كان مقلوبًا، فنجان «طيعو» مقلوب هو الآخر، وفنجان الوطن مقلوب كذلك، وطلبت منها أن تفتح كل هذه الفناجين أيضًا.

رفضت (سنايت) طلبي وامتنعت عن الإجابة على أسئلتي، فعدلت طلبي، وطلبت منها أن تقرأ فنجاني أنا، بمعزل عن «طيعو» والوطن..

حينها استجابت لطلبي، وأجابتني قائلة:

– فنجانك مقلوب يا (محمودة) منذ زمن بعيد، منذ أن وطأت قدمك أرض «طيعو» وهذا المقهى.. كان مقلوبًا حيث كنت، وجاء مقلوبًا إلى هنا.. فدعه مقلوبا بربك!

استطردت (سنايت) قائلة:

– عرضتُ عليكَ قراءته في ذلك الوقت، فقلتَ لي وبالحرف الواحد: أنا لا أريد، اقرأيه لـ(قعص)، لـ(عبده)، ولـ(حسن)، اقرأيه لـ«طيعو» للوطن! أما أنا فلا أريد. وقلتَ أيضًا، بأن قراءة الفنجان دجل وخرافة، وبأنك لا تؤمن بهذه الخرافات. وقلت ذلك يا عزيزي، لا يمكن لفنجان في الدنيا أن يسع أحلامك وأمانيك، لا يمكن أن يحمل فنجان ما، كل أوجاعك وهمومك، لا يمكن أن يصور ويعكس أيُّ فنجانٍ في الوجود عشقك لـ(إستير)، لا يمكن

له أن يفهم ويستوعب كل ذلك الكم من المشاعر والأحاسيس تجاه (عائشة)، لا يمكن أن تتسع وتسع ذاكرته حجم ما تحس به من ألمٍ ووجع مطلقًا، لا يمكن له أن يعرف من تعشقها أنت، ومن تعشقك، ومن تكون الأولى من الثانية في حياتك..

كيف لفنجان أن يعرف مقدار يتمك وعمق بؤسك، ومدى عشقك لبلدك الأول، ولوطنك الأول مكرر.

وعليه..

هل كنت جيبوتيًّا يا (محمودة) وتعيش في جلباب إريتري كل هذه السنوات، أم كان العكس جاريًا، وأن إريتريا هي من كانت تعيشك من يومك، ويوم ميلادك؟ وهل كانا وطنًا واحدًا ومركبًا وعلى مسافة واحدة من اهتمامك بهما ومن عشقك لهما، وفي مكان واحد في قلبك، فقط كانت إحداهما مسقط رأسك والآخر مهبط رجلك؟ وهل عشت كل هذا الوقت في «طيعو» حبًّا في مقهى «سنايت» وارتباطًا به فقط؟ أم كان حبًّا وارتباطًا بوطن يفوح عطره وبخوره من حارات «طيعو» الشعبية؟ أم كان حبك لوطن استوطن حي «ويستا» بـ»طيعو»، وسكن شوارع قلبك الخلفية ولـ(عائشة)؟ هل كانت تطاردك جيبوتي، وكان ضائعًا ومختفيًا حبك لها ولـ(عائشة)؟ وهل يخرج اليوم كله من مقهى «طيعو»، وفي وقت

واحد وعلى دفعة واحدة وعلى السيدة (إستير)؟ وهل يخرج اليوم كله في ظهور أول لوطنٍ خلفيٍّ غمرك بإحساس غريب، لم تكن تعرفه قبلًا ولـ(إستير)؟

فنجانك مقلوب...

لم يكن مقلوبًا، لم يولد مقلوبًا، قلبِتِه أنتِ يا (سنايت)!

قرأتي فنجاني منذ يومنا الأول وفي لقائنا البكر، ويوم ارتشافي أول فنجان في مقهاك.. قلبتِهِ ذلك اليوم وكان ذلك بعدما قرأتِهِ، وقرأتِه يا (سنايت) بغيابي، وكنت يومها معكِ وبجانبكِ، فقط كان غيابي روحيًّا وليس ماديًّا حسيًّا.

لماذا قرأتِ فنجاني الأول؟ ولماذا قرأتِهِ دون إذنٍ خطيٍّ مسبق مني؟! ولماذا قلبتِهِ بعد قراءتكِ له وخبأتِ معه في داخلك داخلي أنا؟ ولماذا لم تخبريني أنني أسير وطنيين وهمين؟

هل قرأتِني أنا أم قرأتِ فنجاني يا عزيزتي؟

(سنايت):

– فنجانك كان مقلوبًا منذ البداية، جاء مقلوبًا إلى مقهاي و»طيعو»، فدعه الآن بربك كما هو! وسيأتي ذلك اليوم الذي سيُفتح فيه وسيقلب فيه للأعلى وكل هذه الفناجين أيضًا يا (محمودة).

غادرنا، ورحلنا بعيدًا حيث لا ترانا «طيعو» والوطن ولا نراه، أما (سنايت) رفضت أن تغادر الوطن و»طيعو»، رفضت الهرب معنا والمغادرة، حتى تفتح كل هذه الفناجين وفنجاني معهن دفعة واحدة؟

ومع ذلك يراودني الحنين إلى زمنٍ بعيد وتمنيت معه اليوم أن أعود إلى زمن (عائشة)، وزمن ولَّى ومضى، لأطرق بابه المنسي والخلفي والذي ظل مغلقًا لسنوات، عسى ولعل بعودته كنت سأتوب!

ليت ذلك الزمن تمثالًا شامخًا لا يبرح مكانه، ليته كان ضريحَ وليٍّ صالحٍ نأوي إليه لنعالج فيه أنفسنا روحيًّا ونسأله مثل الشاب (خالد):

«عبد القادر يا ابو علام، ضاق الحال علي، داوي حالي يا ابو علام، سيدي رد علي»

ثم نكشف فيه لولينا الصالح ذنوبنا ونبكي في حضرته أو في ضريحه بخشوع لله تعالى.

وأخيرًا ليت ذلك الزمن يعود، ويفتح لنا أبوابه على طريقة سحرٍ أسطورية ويقول لي:

– شبيك، لبيك، (عائشة) بين يديك.. لكن هيهات وهيهات، ولن يعود.

والمؤكد أن ذلك الزمن جميلٌ مثل (عائشة) ربيعي مثلها، أنيق، ولطيف، ووفي مثلها تمامًا، كان يملكني مثلها، وأملك وحدي مفاتيحه، و يشبه ذلك الزمن (عائشة) في لونه وتصميمه، وفي ذوقه واهتماماته.

والمؤكد أنني عدت اليوم بلا عنوان بلا أوطان، بعدهما وبعد فقدهما، وعدت اليوم حرًّا لكن بقيود، وبنفسية منهارة محطمة، وبذاكرة ممتلئة بالأحزان وبالهموم، وبقلب مكسور توقف نبضه من سنين..

كان مقدرًا ونهايتي، أن أكون بلا بابٍ وبلا مفتاحٍ، وحتى بلا عنوان.. لا يفتح لي بابي القديم ولا الجديد.. ولن أستطيع الوصول إليهما، ولم أعد أحاول كذلك الوصول إليهما والاقتراب منهما، فالأول صار وقفًا، والثاني بابًا مقدسًا، وبدأت اليوم أعتاد على غربتي الروحية وهدوء مشاعري وسكونها، وأعود اليوم رويدًا وتدريجيًّا لأمارس حياتي الطبيعية دون حلم.

***

أحلام واقعنا تتصادم مع واقع حلمنا، أحدهما مسقط رأسي والآخر مهبط رجلي، أحدهما وطني وواقعي الرسمي وقدر يربطني به رباط مقدس، وآخر وطني الخلفي وواقعي العفوي الذي جاء ليفرض نفسه وواقعه، ولأعيد أنا النظر في ترتيب وتنظيم علاقتي به وبشريكه، وأتى لأعيد تشكيل ورسم خريطتي الجغرافية

القديمة والجديدة، جاء ليعطينا نفسًا آخر في الحياة، وينعش آمالًا أخرى، واهتماما آخر كان غائبًا عني، فأنا لا أعترف بسلطة أخرى سوى بسلطان مشاعري التي قادتني زمنًا إلى (عائشة)، وزمنًا آخر بعده، إلى (إستير) وإلى وهمٍ آخر لا أمل للخلاص منه والانفكاك من جبروته..

آه لو كان واقعنا افتراضيا، وافتراضنا واقعًا، ليتني اليوم أعيش بلا قيود، ليتني لم ألتقِ بهما ذات صباحٍ ومساءٍ، ليتني لم أعِش بعدهما حتى لا أعيش تعقيدات عاطفتي التي تخيم اليوم على سلوكي الداخلي والخارجي بسبب مرورهما العابر على حياتي، وأخيرًا ليتني لم أعِش حتى لا أرى تفككي، واندثاري، وهلاكي..

كان كل خوفي ومبلغ وجعي أن تكون مشاعري كهواء لا نراه، أو كنجوم لا نصل إليها، وخوفي الآخر، لا حلمًا بلغنا، ولا واقعًا بقي بيدينا!

فأنا في الحقيقة كنت أنسلخ وأتبدل وأنا معهما، لأعيش بدل حقيقتي المزورة التي لا تشبهني، حلمًا طيفيًّا لا يشبهني هو الآخر، وساورني شك وخوف وأنا معهما، وخوفي ألَّا أستطيع الوصول إليهما، أو تختفيان رغما عني، ورغم حمايتي وحراستي لهما، ورغم إحاطتهما بأسوار مشاعري، وتطويقهما بين ذراعي وصدري، رغم استيطانهما في أحضاني واختبائهما به، إلَّا أنهما

تختفيان، واختفتا وانسحبتا مثل الزئبق الأحمر تمامًا، وتركاني أحضن الهواء والوهم..

«وكنت أقمت عليه الحصون

وخبأته من فضول البشر

صنعت له من فؤاد المهاد

ووسدته كبدي المنفطر»

(الموسيقار السوداني عبدالكريم الكابلي)

كان خوفي الأعظم أن يصبح حلمي وهمًا، فحينها سأضيع وسأجن، فحلمي جردني من أخلاقي، وعرى أفكاري، وجعلني كتابًا مفتوحًا لمن حولي والقراء، فأنا ويؤسفني قول ذلك: بعت صفائي وطمأنينتي، وأشتريت بها تعاستي وألمي، وأنا أقع أولا أسير (عائشة) وعشق وطن أحببته حد الوله والهيام، وثانيًا وأنا أعلن ارتباطي والتصاقي بـ(إستير)، وولائي لوطن خلفي غمرني طيف مشاعره وأعاد معه تشكيل خارطتي...

ربما صدق حدسي وخوفي.. وهاهو آخر فصل لقصتي لروايتي يأخذ صورة دراماتيكية ومؤلمة، لتقودني مشاعري في النهاية إلى تشتت وانكسار، فقادني عشقي لـ(عائشة) منذ البداية إلى الوهم، وقادتني

(إستير) إلى الضياع وإلى الاغتراب، كانتا سببًا في ضياعي واغترابي، قادتني الأولى بحضورها الغائب عني إلى ذلك ذات يوم، وقادتني الثانية بغيابها الحاضر اليوم، وقادني إلى كل ذلك وإلى (عائشة) و(إستير) قدري ومشاعري، قلبي وروحي، ضعفي وطمعي، شري وخيري..

كان عليَّ أن أكون مسئولًا وأنتحر وألتحم بوطني، أو أرحل مع وطني الخلفي أو أرحل به، وكان عليَّ ألَّا أعود بعدهما إلى واقعي المبتور والبارد، والذي لم يحتويني وعاطفتي يومًا، ولفظ مشاعري زمنًا، كان واقعي هذا قد دخلته منذ اليوم الأول بسوء طالعي، وكان عليَّ كذلك ألَّا أطلب المستحيل، فأنا لا أستطيع الوصول إليهما، فطريقهما شائك، ومليء بالمتاعب والصعاب.. واستحال في الأخير كذلك، فـ(عائشة) أشبه بخيال وأسطورة، بأغنية وهمسة... و(إستير) أشبه بخرافة أقصوصة.. بضحكة وهمزة، كانت (عائشة) زرقة البحر، وإشراقة الشمس، ولون الغروب.. و(إستير) صفاء السماء، وقمر الليل، وجبلًا عاليًا.. في النهاية كانتا سحابًا، وطيفًا، واختفتا في الأخير وتبخرتا، وكان علي أن أستسلم في النهاية وأعود إلى واقعي، وتعود مشاعري معه، إلى نقطة الصفر حيث كانت محررة من كل القيود ومفلتة تمامًا، وتائهة تجوب كل المدن والأمصار.

كانتا خطيئة غير متعمدة، وجنونًا وطمأنينة وغموضًا، كانتا برًّا وبحرًا، وجبالًا، وأودية، وسهوبًا، ومراعٍ وهضابًا، وسهولًا... فالأولى لطيفة وآسـرة، والثانية ودودة وساحرة، والاثنتان معًا كانتا بتفاصيل وجه يختزل جمال المنطقة، وبمثابة سفير فوق العادة للجمال، يمثل «طيعو»، و«بحر دار»، وجيبوتي، و«بورتسودان»، كان كل ذلك أقدارنا، وقدر آخر إدركهما وإدركني معهما، لنفر من الوطن كلنا ليلًا، ونندب حظنا التعس ونلعن هذا الزمن الجائر.

ماذا نقول عن زمنٍ كهذا

زمن يجور على الزمان

على المكان

وعلى الرقاب

زمن تكحَّل بالسواد

زمن يصادر حلمنا

ويلفنا بغيوم أحزان المساء

أنقول عنك يا زمني:

زمن المواجع و الفواجع؟

أم كنت يا زمني

زمن تخصص بالهبوط وبالفجور؟

أم كنت يا زمني

زمن افتقاد المرء ألوان الحياة؟

كانت (عائشة) و(إستير) قليلتي الكلام، وكثيرتي التأمل، كنت أحكي أنا دائمًا، وكانتا تستمعان دائمًا، كنت في كل مرة، أنا القاصة شهرزاد، وكانتا هما دائمًا الملك شهريار.

كان باديا على محياهما أنهما تحملان حكاية ما، تخفيان وجعًا ما، سرًّا ما، يبدو أنهما كانتا تحملان في كلِّ الأحوال حكاية مؤلمة، وحزنًا غائرًا ممتدًا في الأعماق، لا تستطيعان أن ترویاها لأحدٍ، ولربما كانت ملامحهما هكذا، وخلقتا هكذا بحزن..

هما أوطاننا التي لم تهنأ ولم ترتح يومًا منذ ولادتهما، وقبل ولادتهما حتى..

كانتا في النهاية الأولى وهمًا والثانية فشلًا من بابهما الواسعين والكبيرين..

رحيل (عائشة) كان ألمًا ووجعًا، وخيبة أملٍ... و(إستير) كانت حلمي الخائب الذي وقع بيدي ذات يوم، ومعه وقع من يدي، والوصول والالتفات إليهما وإلى الوراء جنون، فلربما سأعيش بعدهما حقيقة أخرى مغايرة ومختلفة، فخسارتهما في النهاية كانت مؤكدة وحتمية قدري المؤجل، فعودة كل منا إلى حيِّه باتت وشيكة ووقعت، رحلتا إلى الأبد، وصمت أنا عن الكلام.

«سكتت أخيرًا.. شهرزاد

إلى الأبد..

فالصبح لاح.. وشهريار..

مضى بلا عود..

وراح..

فالصبح لاح.. والديك صاح حقيقة..

والقصر عاد له النجاح..

الكل كان مكبلًا في أحكيات من سراب..

ولشهرزاد تكشفت من ألفِ ليلتها...

بقية ليلةٍ... لم تكتمل»

(للأستاذ رفعت غليسي شاعر يمني)

كنت أفتقد للهجرة والرحيل، وأرنو إلى الخلاص والانعتاق، وأتوق للراحة والسكون، وبحاجة إلى تحرري منهما، وإلى فشل وسقوطٍ لعواطفي وإلى هزيمة مبكرة أمامهما، قبل أن أبحر صوب المجهول وأبتعد كثيرًا عن الشواطئ والجزر...

وكنت أحتاج إلى ذلك كله، لأعيش بلا ذنوب بلا ذيول، وبلا آلام، ولأعيش حرًّا من رهن الأحلام، والأوهام، والأوطان، وأعود إلى عالم يخلو من سواي وإلى زمني الجميل.

ستدور لا محالة يا زمان

ستعود يا زمني إلى الوراء

حيث كنت، وحيث كنا..

وتعود يا زمني كما وعدت، كما عهدت

لتعيد أحلام المساء

وألوان الربيع

وأمطار الخريف

لتعيد رائحة الأديم وطيبها

وتعود يا زمني

لتعيد ترتيب الحروف

وجدولة الحياة

لتعيد تقويم الزمان

وبوصلة المكان.

(محمودة)

رحلت (عائشة) ورحلت (إستير)، واختفى الوطنان ورفضا احتوائي، وربما كان قدري ذلك وربما كنت منحوسا وشقيًّا من يومي ويوم مولدي، ربما كان قدري أن أعيش وحيدًا دون أوطان ودون أقدار، وربما لا هذا ولا ذاك، وإنما كانت تلاحقني لعنة وطن ثالث ولعنة هوية ثالثة وقدر ثالث، فهي على كل حال لعنة وليس سواها، ربما أجهل سببها ومصدرها، وربما أعرفها وأحاول تجاهلها، ربما كانت لعنة (عبير) ابنة خالتي (سميحة) المقيمة رفقة عائلتها في وطنها ومدينة «دباب» اليمنية، ولعنة رفضي لإرادة أمي وجدي (سالم) واتفاقهما المبرم في بيتنا قبل عامين من مجيئي إلى «طيعو» وزيارة جدي وأخوالي لنا، ودون إشراكي في أمري ودون إشراك (عبير) ذات الرابعة عشر ربيعًا في أمرها، ودونما اعتبار للبراءة، وربما يشكل ذلك تعبًا وألمًا في قادم

الأيام والسنين! وربما يشكل سرقة وتعدٍ على مشاريع أحلامي! وقد لا أكون بالمقابل حلمها مستقبلا، وربما يكون عكس كل تلك الأمور أيضًا، فأبي وأمي مثلًا يعيشان حالات طبيعية وفوق الطبيعية، ويعيشان حالات توافق وتناغم وحبٍّ، وارتباطهما كان مشابهًا ومطابقًا لارتباطي أنا و(عبير)..

اختفى الوطنان، كان دعاء أمي سببًا في كل ما حدث، فكانت تريد بل وتقول لي دومًا إن مصيري حسم وأنني سأرتبط بـ(عبير) بنت أختها (سميحة) والمقيمة في مدينة «دباب» قرب باب المندب في اليمن، وخطبت أيضًا أختي لابن خالي (عبد السلام)، كان ذلك أيضًا بإرادة أمي...

لا تضعك أمٌّ في رأسها في مثل هذه الأمور، ستخسر مثلي آجلًا أم عاجلًا، وعليك أن تستسلم وتتنازل، وإذا حاولت أن تلعب بذيلك معها، ستلاحقك لعنة خاطرها ورفضك لمرادها.

وضعتني أمي في رأسها، وطيرت كل تلك الأوطان من غصني، كان أبي يعرف ذلك وساندها، وتركها تفعل ما تشاء وترك لها أمرنا منذ البداية ، فهي من اختارت أسمينا، أنا وأختي، أسمتني على اسم خالها (محمودة)، وأسمت أختي على اسم (سلمى) أختها، كانت أمي ذات شخصية قوية، تخالف أبي دائما، وتعيده إلى كلمتها في

كل الأمور، وتفوق عليها أبي وخالفها مرة واحدة وفي قرارٍ واحد في حياته، وهو قرار نفيي وإبعادي إلى «طيعو»..

يبدو أنني سأقوم بزيارة خاطفة إلى جيبوتي في بداية هذه الصائفة ونهاية عامي الثالث هذا في المهجر، وبعد عشرة أعوام من غيابي عنها، ويبدو أن زيارتي هذه المرة أمرًا وليس فضلًا، جبرًا لا خيارًا، وأمي سببها، وأكثر إصرارًا هذه المرة، ويبدو أيضًا أنني كنت مخطئًا عندما كنت أعاتب (عائشة) و(إستير) على عدم رميهما المنشفة في وجوه الحكام، والعادات والأعراف.. وكان ذلك الأمر حينها يمثل الثلاثية الشهيرة.. الحرب.. ومن بساحتها.. ومن يشاهدها من بعيد.. كنت بالأمس مشاهدًا للحرب من بعيد، واليوم في ساحتها، وأعرف اليوم مدى عنفوانها، وقسوتها، ودمارها، وسطوتها، وأعذر اليوم كذلك من كان بالأمس في موقعي اليوم...

***

سنفونية الخلود

كان أسبوع شاطئ «إلوود بيتش ميلبورن» في صيف عام 2017، لا يوصف بكلمات وجمل عادية: «فجمال الطبيعة، والرمال الفضية الناصعة البياض، وزرقة السماء وصفائها ارتفاع الأمواج وهديره، كم كان المنظر رائعًا من حولنا في ذلك الشاطئ، وكذا أشعة الشمس الحانية والدافئة، المتساقطة على أجسادنا، وذرات الرمال الناعمة تراقص أقدامنا وتداعب أصابعنا، وهمسات النسيم الباردة في تلك الأيام الحارة.. كانت كل تلك الأمور لها أيقاع خاص ومتعة مميزة..

وكانت مناظر شاعرية مذهلة وكثيرة من حولنا، فهناك مجموعة حول حفلات الشواء علي الشاطئ، وأخرى تتنزه علي الرمال البيضاء، وآنستان، ربما سيدتان كانتا تقراءان كتابين تحت مظلة شمسية، وعائلة تفترش رمال الشاطئ وتستمع إلى موسيقى حالمة بهدوء، ومجموعة تسبح وتغوص في البحر، وأمامنا مباشرة سيدة

مسنة تأخذ حمامًا شمسيًّا طبيعيًّا وكأنها في حالة إلهام ولحظة تجلي، ومن شدة تركيزها ستحلف بالله أنك أمام راهبة بوذية...

لا أحدٌ هنا في هذا العالم يراقب أحدًا أو يهتم، أو يسلِّم، أو يحيي أحدًا، الجميع مع هواتفهم النقالة، وهي أقرب إليهم من أنفسهم حتى، والكل مع عالمه الافتراضي، عبر شبكات النت والتواصل الاجتماعي، أعتقد أن هذا يناسبهم، فهم عادة لا يهتمون بما وبمن حولهم، ولا يتدخلون في أمورٍ لا تعنيهم أبدا.. فقط أنا وصديقي السوري الظريف (ماجد الحلبي). قدم صديقي هنا بعد وصولنا بوقت قليل قادمًا من تركيا، كنت أنا وهو ننكت على هذا وذاك، وبلغة كنا ننفرد بها هنا، ونقول بها ما نشاء وبصوت مسموع حتى، دون أن يسمعنا أحدٌ في هذا الشاطئ .

سلَّمنا على شابتين تجلسان على ضفة الشاطئ، وقاطعنا خلوة شاب هندي يجلس وحيدًا، وبنينا قصرًا رمليًا مع طفل صغير، وقمنا بكل بذلك دون أن نطيل مع كل هؤلاء وغيرهم، وبعد طلب الإذن بالحديث معهم ومشاركتهم ما يقومون به.

كان منظرًا رائعًا بحقٍّ، وأحالني منظر البحر في «إلوود بيتش»، إلى منظر بحري آخر لا يقل جمالًا، وصفاءً، ونقاءً من شاطئ «إلوووود»، أقسم أن شاطئهم مستهلكٌ وبائرٌ، وأقسم أنه صناعي يفتقد للعذرية

أيضًا، أما مدينتي وشاطئها الخلاب فهما من كانا فوق الوصف والخيال، تمتلك مدينتي كل ما تفتقد إليه «ميلبورن» وشواطئها، فمدينتي هي محطة عبورنا ونقطة انطلاقتنا وذاكرتنا الأولى، هي همنا واهتمامنا الأول والأخير، هي نقاء الروح، عذرية الجسد، صفاء الخاطر، وتدفق لكل معاني الطهر والأصالة.. هي مسك العنبر الندي الممزوج بعبق عطر البحر، وهدير أمواجه المنعش الذي يشكل صوته وصلات موسيقية أشبه بسنفونية الخلود.. هي رقصات أمواج بحرية تلطم خدود صبية أبرياء بلطف وبحنان.. هي امتداد لعطاء البحر، وكرمه، وشموخه، وكينونته، وإحساس بجمال بحري آسر أخاذ، إحساس يلامس شغاف البحر، يعانق الصخور بحرارة ويلبسها ثوب الوقار ويحتضن الجزر بعطف وحنان، وكل ذلك يسري في علاقة عشق سرمدي بينه وبين محيطه، وأحساسين آخرين تعيشهما للبحر، أحدهما بالطمأنينة والفرح، ويمنحك إياه بهدوئه وسكونه، والثاني تعيشه قلقًا وترقب حينما يعلن عن غضبه عن ثورته، وهيجانه، واضطرابه، وإحساس بحري آخر يغمرك بالدهشة، والمتعة، والفضول، حين يبدأ بالإنسحاب والرحيل عن الشاطئ لمسافات طويلة قبيل الغروب، ويعقب ذلك عودته آخر الليل واستعادة مساحاته الطبيعية ليغمرها بالماء مجددًا، وترتبط

تلك العودة بظهور القمر واعتلائه لقمة عرشه، في عملية مد وجزر..
هي شوق وحنين إلى قمر كان يخصنا قبل أن يكون مشاعًا..

هى شوق إلى الجذور، إلى الصدور، إلى الدفئ، إلى سفن الصيد، «الهواري» و«السنابيق»، إلى أدوات الصيد، الشيبكان والسنارات، وإلى الصيد البحري وسمك «الديراخ» و«البياض»، وإلى أحجار البحر المرجانية، وشوق للجزر كـ«حافالي» و«قرب سس» و«هواكل»، وإلى مراسي العبور ومرافئ السكون، إلى شواطئ رمال فضية، إلى بيوت خشبية تراقب البحر في النهار وتحرسه في الليل، إلى مربعات العشق الأزلي، إلى أحياء مدينتي العتيقة، شمالًا «بولو»، شرقًا «لاعو»، غربًا «ساما»، وفي الوسط «وستا»، هي شوق إلى حيث كانت الشمس حانية وإلى حيث كان الوجود لنا وكنا للوجود، وهي حنين إلى الإرث الإنساني، والتاريخي، والسياحي، وشوق إلى ضريح الشيخ إبراهيم الخليل الشامي رحمه الله، ضريح ذلك العالم التقي الورع والقابع فوق تلة صخرية تجاور البحر في حي «بوله امو»، و شوق إلى قلعة ابن ذلك الشيخ الصالح وإلى قلعة الشيخ جمال الدين إبراهيم الشامي رحمه الله في ذات الحي، والواقفة بشموخ وإباء، متحدية غدر الزمان والحياة، هي شوق إلى قلاع حجرية قديمة وفية هي

الأخرى للمكان وإلى قلعة الشيخ ياسين محمودة رحمه الله في «لاعو» أو حي الشروق، وإلى قلاع أخرى رافضة للانحناء والزوال كقلاع تجارية مصطفة تعانق البحر، وللشيخ عثمان حامد رحمه الله، هي حنين إلى البعث، إلى بعث الأشياء، كل الأشياء، وحنين إلى رقصتي «اللالي» و«الكيكي» الفلكولوريتين والتقليديتين وإلى موروث شعبي أدبي وإنساني فيها.

وأحن إليها وإلى رقصات تؤدى فيها بعفوية وتلقائية على ضفاف شواطئ الخلد وفي فضاءات حرة طلقة وقمرية، وبصوت المرقدي أو «الجوق» الشادي الرنان وإلى إيقاع الطبل.. أحن إلى صوت ذلك «الجوق» المخضرم حمدو عبيد، عميد مرقدي فلكولور «اللالي» وعمدته في المدينة، وإقليم «دنكاليا» وعمدته، وصوته الجهوري العذب القادم من بعيد والذي يصل كذلك إلى أبعد نقطة ممكنة في المدينة، وكان صوته يشعل الحماس في النفوس، فالمرقدي مؤلف نظم موسيقي، ملحن ومطرب معًا، ويحسن كذلك العزف على آلة الدف (الطبل).

وأحن لإيقاع ثالث يصاحب إيقاعي الدف والمرقدي، وهو إيقاع (الأيــادي)، أيادي المشاركين في الرقصات، ويشكل

المشاركون أو جمهور اللاعبين في رقصات «اللالي» و«الكيكي»، حلقات دائرية كبيرة وواسعة، ومن هذه الحلقات ينطلق الراقصون إلى وسط دوائرها أو إلى داخلها لتأدية الرقصات وبشكل منظم، فالإيقاعات منظمة، فتجد مثلا، إيقاع الدف (الطبل) منسجمًا مع إيقاع الأيادي، والأصوات كذلك متناغمة، فصوت المرقدي وأداؤه لجمل غنائية يتناغم مع أصوات المشاركين ترديدًا لتلك الجمل، وتنظيمًا آخر رهيبًا وجميلًا للحركات الجسدية، ودخولًا منظمًا للراقصين لحلبة الرقص، وتناسقًا مدهشًا لحركات أرجلهم وأكتافهم، وتبادلًا سرياليًّا بين الأمكنة والأشخاص، وعودة سلسة للراقصين بعد تأديتهم للرقص، من وسط الدائرة إلى مواقعهم في الحلقة، وهكذا، ويسير كل ذلك وفق نظام دقيق ومحفوظ من قبل الجميع آليا (اتوماتيكيا)، ورقصة «اللالي» تقتصر تقليديًا على فئة الذكور فقط، ويكون الرقص في هذا الفلكولور بحركات قفز منتظمة للأرجل وهز للاكتاف على إيقاع الدف، وتُرقص على شكل ثنائي أو رباعي، ويتم الرقص في شوطين لا ثالث لهما، وينتهي الشوطان بقفزة مميزة للراقصين صوب مركز الدائرة، وبحركة رقص وهز جميلة ورائعة للاكتاف، وهكذا تستمر الرقصات مع ثنائي أو رباعي آخر.

ورقصة «الكيكي» هي رقصة ثنائية زوجية، ترقص على شكل زوجين مقابلين لبعضهما، وبينهما مسافة مترٍ على الأقل، مع عملية رفع وهز لليد اليمنى بمحازاة الوجه، يدخل ثنائي للحلبة ويخرج ليدخل ثنائي آخر بسرعة ودون فواصل، أو يسمح فيها كذلك بدخول راقص جديد للحلبة، ويرافق دخوله خروجا آليا ومباشرا لأحد الراقصين من حلبة الرقص، وهكذا..

ويقال أن رقصة «الكيكي» كانت قي القدم رقصة الجنس الناعم، أي رقصات نسائية فقط، لكنها تعتبر اليوم رقصة مشتركة للجميع، فهي ثنائية، بين جنسين مختلفين مثلًا شاب وشابة، وبين جنس واحد مثلًا شاب وشاب، وامرأة وأخرى...

هي عشق إلى صفاء القلوب وطهارة المكان وحياء الزمان وحنين إلى كرنفالات أعراسٍ، وحفلات أعيادٍ، تتزين فيها النساء بأزياء تراثية فلكورية تعكس جمال وثراء عادات المدينة، وتظهر تمسك المجتمع هناك بتراثهم وعشقهم للأصالة والتاريخ.. وأتوق لأعراس مدينتا، وإلى تلك اللوحات الفنية البديعة، إلى رشاقة، وأناقة، وجمال، آنسات وسيدات مدينتنا، وإلى جمال تربعت ذات مرة على عرشه (عائشة)، واقتسمت أطرافه مع

(حواء)، و(صالحة)، ورفيقاتهن، وأتوق إلى الصدور الدافئة، ومنابع الحنان، وإلى عمتي أم (صالحة) التي كانت محبة ومحبوبة من الجميع، والتي تجمع وتجتمع نساء مدينتنا في حوش منزلها الكبير والواسع، ففي منزلها ومنزلنا كان البعض يصبح ويمسي، والبعض صباحي، والبعض يمسي معنا وآخرون يمرون عليه مرور الكرام، ويرتشف الجميع في منزلنا قهوة كانت تعدها عمتي و(صالحة) طوال اليوم، وهناك أيضًا كانت عمتي وجدة (عائشة) ووالدة (حواء) يقمن بتضفير الشعر لبناتهن وبطريقة تقليدية خاصة صباح يوم العرس أو الحفل، وبعد الظهيرة، (عائشة)، و(حواء)، و(صالحة)، و(أماتو)، و(نفيسة)، ورفيقاتهن، يتزين بالزي التقليدي للمرأة العفرية، أو بالأحرى أحد الأزياء التقليدية لها ويشبه هذا الزي أو يتقاطع في أمور وأشياء كثيرة مع الأزياء التقليدية لقوميات «الساهو»، و«التجري»، وأخرى في إريتريا، مع احتفاظ كل زي قومي ببعض التفاصيل والخصوصيات، وربما كان هذا الزي وبشكل عام، زي حاضرة المحيط، ومدينة «مصوع» التي نطلق عليها مصطلح «لحم رأس»، ونعني بذلك أنها للجميع، وذلك لإحتضانها واستيطانها وإيوائها لجميع القوميات الإريترية منذ زمن بعيد، وربما أضاف الجميع بعد ذلك، على الزي التقليدي لمدينة «مصوع»، تفاصيل معينة وخاصة بهم، ليصبح زيهم...

وزي مدينتنا هو عبارة عن ثلاث قطع لأرديةٍ قماشية:

القطعة الأولى:

«مسانف» عدنية، وهي فوط قطنية، ملونة مزركشة، تغلب عليها الحمرة والصفار، وخطوط خضراء، زرقاء، وسوداء.

والثانية:

قمصان قطنية ضيقة تسمى «سديريا»، وهي ذات لونٍ واحد وغالبًا يكون لونها أحمر أو أخضر.

والثالثة:

طرحات الرأس التقليدية، ونطلق عليها «المقالب»، وهي عبارة عن شالات كبيرة وخفيفة وناعمة الملمس، وبعضها مصنوع من خيوط الحرير، وطرحات الرأس التقليدية تغطي الرأس والجهة العليا من الجسد عدا الوجه واليدين.. وأشهر طرحات الرأس هي تلك الشالات الخضراء والمنقطة بالسواد، وأخرى حمراء منقطة بالسواد أيضًا.

وبعد ارتدائهن للزي التقليدي يأتي دور المجوهرات وحصتها وهي من الذهب الخالص والفضة، ويتزينن به من شعر رءوسهن إلى أرجلهن، وعلى الجباه، مثلًا يضعن قطع ذهبية دائرية سميكة

بقطر ثلاثة سنتيمترات تقريبًا، ونسميها «قمر صناعي»، ويسمح القمر بدخول وخروج أربع ضفائر من جهته الخلفية، ويأخذ زوجي الضفائر مسارين معاكسين لبعضهما، ليتم ربط القمر وتثبيته في الجبهة بدقة وإحكام، وكذا على الجبين والوجنات سلسلة ذهبية مكونة من شرائح دائرية بحجم سابقتها لكنها أخف سماكة منها وتمتد من الجبهة إلى الأذن، ونطلق عليها «سجلات» «sajalat»..

ويضعن على أعناقهن ورقابهن، سلسلة ذهبية سميكة مستطيلة بعرض سنتمترين تقريبًا، وبحجم طول العنق تقريبا وتسمى «بادا» «baaza»، وأخرى سلسلة ذهبية على شكل قطع كروية، وأكبر قليلا من حجم الرقبة نسميها «مورييات»..

وتزدان أنامل أياديهن بخواتم ذهبية لا يقل عددها عن خمسة خواتم، وعلى معصم أياديهن حلي ذهبية، وقطعة ذهب سميكة على المعصم أيضًا وتسمى «برشيليتا» «parshiletta»، وتشبه هذه القطعة ساعة يد نسائية صغيرة الحجم تقريبًا، وتقتضي عادة العفر وعرفهم إحداثَ ثُقبٍ خفيف، وبحجم إبرة الخياطة في الطرف السفلي لأذني الأنثى وفي الطرف الأيسر لأنفها، في عمر مبكر، لتثبيت القطع الذهبية عليها، وتزين الأذن بحلق ذهبي هلالي ممتلئ، وكبير الحجم يسمى «تلال» «tallal»، والأنوف كذلك تزين بقطع

ذهبية متفاوتة الحجم الأولى تدعى «كرتونتا» «kartunta»، وهي بحجمٍ صغير مصنوعة من الذهب ومرصعة بحجر نفيس، ترتديها الآنسات أو الفتيات، وأمَّا الثانية فتدعى «زمام»، وتقتصر على السيدات فقط، و«الزمام» بحجمٍ كبيرٍ وبارز. وجميع هذه المجوهرات من الذهب الخالص.

واختفت اليوم هنا وهناك مجوهرات الفضة التي تتزين بها النساء، كالخلاخل، والحلي، والسلاسل الفضية وغيرها، وظهرت اليوم كذلك هنا وهناك إكسسوارات ومجوهرات تقليدية، إلا أن مدينتي تقاوم اليوم كل ذلك، والتزييف، ولازالت تحافظ على عاداتنا، وموروثنا، وعذرية كلِّ أشياءنا الثمينة..

هي أغنيتي «الملابو» و«الدرندر»، وفلكولوران آخران يحكيان عن الجمال والأصالة، وعن الجذور والتاريخ.

أغنية «الملابو» هي من الأغاني الشعبية والتقليدية العفرية الأكثر شهرةً، ورواجًا، وحماسًا، وتداولًا، ونقلًا، من «مصوع» شمالًا إلى «تاجوراء» جنوبًا، ورقصة وأغنية «الملابو» تؤديها النسوة بشكل جماعي، في جميع الأعراس، والأفراح، والأعياد.

أما أغنية «الدرندر» فهي فلكور تقليدي خاص بالمدينة وضواحيها وبلحن حالم مرسل، تؤديها «جوقة»، وهي سيدة تملك

ذاكرة حفظ واسعة، وطلاقة لسان، وملكة شعرية، ونستطيع تسميتها بشاعرة تقليدية، ويشاركها العزف، والرقص، والأداء، سيدات في مستوها أو قريب من مستواها.

وتصاغ «الملابو» و«الدرندر» بحروف بكلمات مليئة بالجمال، والثقة، والشجاعة، والشجن، وجمل عامرة بالحنين، وزاخرة بذاكرة شعب وأرض، وبذكريات مضت، وأحلام مرتقبة...

***

«طيعو» TIO»»

مدينة «طيعو» هي حاضرة مديرية «أرعتا»، تعتبر ثاني أكبر وأهم مدينة من حيث الأهمية والكثافة السكانية في إقليم «دنكاليا»، وهو الإقليم الذي تقطنه العفر في إريتريا، والعفر يدينون بالإسلام ويتحدثون لغتهم العفرية.. وقومية العفر هي إحدى القوميات الإريترية، وواحدة من القوميات التي تقطن شرق إفريقيا ومنطقة القرن الإفريقي، في مثلث يسمى بالمثلث العفري وتقع زواياه الثلاثة في كل من إريتريا، وإثيوبيا، وجيبوتي..

و«دنكاليا» تعتبر التسمية التاريخية، والسابقة، والمفضلة عند غالبية أهالي المدينة وسكان الإقليم، والصفة الرسمية له في الوقت الحاضر هو إقليم جنوب البحر الأحمر، وأطلقت التسمية الأخيرة

عليه بعد استقلال البلاد، وتحديدًا في منتصف تسعينيات القرن العشرين، بعدما دمجت السلطات في إريتريا شمال «دنكاليا» بإقليم «سمهر» التاريخي، الذي حُوِّل هو الآخر إلى إقليم شمال البحر الأحمر وعاصمته «مصوع».

وتقع «طيعو» في إقليم جنوب البحر الأحمر، وعاصمته مدينة «عصب»، وهي ميناء رئيس وهام في جنوب البلاد.

في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر شهدت المدينة حدثين مهمين:

الحدث الأول: خضوع مدينة «طيعو» وإريتريا بشكل عام للاستعمار الإيطالي، وأنشأت إيطاليا في تلك الفترة في المدينة معسكر لحاميتها، ومركزًا خدماتيًا، صحيًّا، تعليميًّا، ترفيهيًّا له، مجهزًا بكل ما يحتاجون إليه من أمورٍ، ومن ضمنها، مولِّد كهربائي، منح المدينة الريادة والأسبقية، فاعتبرت معه «طيعو» أول مدينة رأت النور والكهرباء في منطقة القرن الإفريقي بشكل عام.

والحدث الثاني اختيارها من قبل العلامة الشيخ إبراهيم الخليل الشامي رحمه الله عاصمة، وقطبًا، علميًّا للمنطقة وما جاورها.

لم تكن إقامة الشيخ العلامة إبراهيم الخليل الشامي رحمه الله في المدينة وقدومه من مدينة «بيلول» جنوب «طيعو» محض

مصادفة، وإنما لرؤية الشيخ، تنامى اهتمام المستعمر بهذه المدينة، ومن هنا بدأت معركة الصراع الثقافي والفكري، وبدأ الشيخ في إنشاء وتكوين خلايا وزوايا للحصانة والممانعة، وهي مدارس دينية يدرس فيها أبناء المدينة الموروث الديني العقدي للأمة، وصارت بذلك المدينة قطبًا علميًّا مهمًا في المنطقة، والمناطق القريبة منها وحتى البعيدة.

تواصل هذا الصراع الخفي، وتطورت طرقه وأساليبه بين المستعمر الساعي لفرض هويته الثقافية والفكرية، وبين أبناء المنطقة الساعين لمواجهة ذلك المد الثقافي الدخيل للمستعمر، واستقدم المستعمر لفرض رؤيته بعثات تعليمية خدمية، وما عرف ذلك الوقت «red sea mission»، وسماها البعض بعثات تبشيرية وآخرون بعثات تنويرية...

ولمواجهة ثقافة المستعمر أو لمحاولة بعث وتطوير ثقافة الأمة العقدية في «طيعو» والمنطقة، أنشأ بالمدينة في الأربعينيات من القرن المنصرم معهد اللغة العربية، ولعب المعهد دورًا مهمًا في الصراع الدائر وفي الحراك والنهضة الثقافية بالمدينة في تلك الفترة..

وأفرز ذلك الصراع والحراك الفكري بقطبيه أمورًا مهمة، وحقق النفع لمجتمع المدينة، فبسببه استطاعت المدينة أن تتفوق نسبيًّا

على محيطها من مدن شواطئ «دنكاليا» في امتلاكها لكوادر علمية، وإفرز ذلك الصراع أيضًا جيلًا مستنيرًا واعيًا رغم تباينهم الثقافي من الإيطالية، والعربية، والإنجليزية في المدينة.

وأنجبت مدينة الشيخ إبراهيم الخليل الشامي رحمه الله وهذا الحراك، نخبة وكوكبة من العلماء، والسياسيين، والاقتصاديين، والإداريين، والأدباء، والشعراء ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: العلامة الشيخ جمال الدين إبراهيم الشامي رحمه الله صاحب مجلد «المنهل في تاريخ وأخبار العفر (الدناكل)»، والشيخان ياسين محمودة وموسى قعص رحمهما الله، فهما من أشهر الساسة في منطقة «دنكاليا» رفقة الزعيم الراحل عمر آكيتو في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، فكان الشيخ ياسين محمودة رحمه الله يمثل تيارًا قوميًّا في «طيعو» والمنطقة عمومًا، سعى إلى وحدة الأراضي العفرية، وأمَّا الشيخ موسى قعص رحمه الله فقد آمن منذ الوهلة بحتمية المصير المشترك للشعب الإريتري وناضل من أجل ذلك..

الدكتور هاشم جمال الدين الشامي الخبير الاقتصادي الدولي، ومدير منظمة الأغذية والزراعة المعروفة بـ«فاو» منذ نهاية السبعينيات وعمل بداية في مقر «الفاو» بإيطاليا ومديرًا لها في المملكة العربية

السعودية، ونيجيريا في غرب إفريقيا، وأخيرًا المدير الإقليمي لـ«لفاو» بـ«صنعاء» اليمن..

والسيد خليل عثمان حامد المدير الإداري لشركة «موبيل أويل» في «أديس أبابا» إثيوبيا في ستينيات القرن العشرين، والسيد محمد عبد الرحمن العلوي رحمه الله مدير معهد اللغة العربية، ومؤسس أحد أهم أقطاب هذا الحراك وهو أيضًا والد الشاعرة والأدبية الراحلة شريفة محمد عبدالرحمن العلوي رحمها الله..

والمفكر الراحل جمال الدين ريدو رحمه صاحب الحرف العفري رفقة «ديميس»، مؤسس ومدير مركز البحث العلمي لتطوير اللغة العفرية، والسيد يوسف ياسين محمودة مفكر، وكاتب مشهور، ومختص في الشئون الإفريقية.

نكتفي بهذا ونقف هنا فهذه القائمة طويلة وعريضة لا يتسع كتاب لحملها...

والدي، وعمي (مختار) والد (قعص) من ذلك الجيل.. ودرس والدي وتعلم في معهد اللغة العربية بـ«طيعو»، أما شقيقه الأكبر والد (قعص) فتعلَّم الإنجليزية في مدارس خاصة تابعة لبعثة البحر الأحمر.

***

منذ قدومي إلى «طيعو» وأنـا أعيش رسميًّا مع عمتي (فاطمة).. صراحة أصرت عمتي منذ البداية أن أقيم معها، وأنا كذلك اخترتها وفضلت الإقامة معها بدلًا من عمي (مختار) والد (قعص)، هكذا بدون سبب، أو ربما اعتراني حينها إحساسٌ داخلي فرض علي ذلك ودفعني إليها، فأنا كنت ميالًا إلى عمتي (فاطمة)، ففيها شيء من أمي، ووجد لاحقًا فيها أشياءٌ كثيرةٌ من أمي، فصدق حدسي..

تقطن عمتي في حي «ويستا» «westa» وولديها، ففي ذلك الحي منزل واسع وكبير، وهو أحد الأحياء العريقة بالمدينة، أما بيت عمي والد صديقي (قعص) فهو في حي «بوله أمو» «boloh amo»، الذي يعتبر أشهر، وأعرق، وأقدم حي في «طيعو»، ويفتخر صديقي دائمًا ويتباهى بانتمائه لـ«بوله أمو»، ليس ذلك لعراقة ذلك الحي، ولا لأن الحي يحمل إرث «طيعو» الحضاري ومعالمها الدينية التاريخية، لا لا، لم يكن تباهي (قعص) لذلك الغرض مطلقًا، كان ذلك من أجل الصخرة، يتباهى مؤمنًا بأن لحي التلة الصخرية الشهير في «طيعو»، أو لحيه سلطة على باقي الأحياء في المدينة. هي سلطة يؤكد (قعص) بوقوعها، وينكرها عليه أصدقاؤه من أحياء أخرى، لكن لا دخان بدون نار، وعليه

ربما كانت هناك سلطة واقعة لحي (قعص)، أو ربما كانت سلطة معنوية حسية، أو ربما يوجد شيءٌ شبيه من هذا الأمر، ووجود بعض ما يقوله (قعص)، وإن لم يكن واقعًا أو موجودًا لما انتشى بالجملة (قعص)، ولما أثارت الجملة ذاتها أعصاب رفيقنا حسن، لا يعترف بذلك حسن القادم من حي «لاعو» la'o»»، أي حي الشروق. وكان (قعص) يقول مازحًا لـ(حسن)ن ولنا، ولأصدقائنا الآخرين في مقهى (سنايت):

-»يا أهل «طيعو» إذا ما تطيعوا فوقكم «بولو» (صخرة)» يعني حي التلة الصخرية..

«يا أهل طيعو»

كان هذا الاختصار الشهير كافيًا لينتشي به (قعص)، وكان كافيًا ليثير أعصا (حسن).

ينسبون في «طيعو» هذه العبارة لتاجر أو بحار يمني عابر مرَّ بالمدينة سريعًا، أو كان مقيمًا فيها لبعض الوقت وعاد إلى «بر العرب».. ربما كان صاحبها جدي (سالم) والد أمي، فجدي أطال الله في عمره حكمي يمني، استوطن جدي (سالم) لفترة من الزمن مدينة «طيعو»، وتزوج هنا من جدتي، وأنجب أمي، وتوفيت جدتي بعد ولادة أمي مباشرة، ولم يطل جدي في «طيعو» بعد وفاة زوجته،

فعاد إلى موطنه وإلى مدينة «دباب» قرب باب المندب، وبقيت أمي رفقة خالتها وخالاها... واليوم جدي (سالم) حفظه الله يقترب من العقد الثامن ولديه عائلة كبيرة في مدينة «دباب»، فلديَّ اليوم أيضًا ثمانية أخوال يمنيين وخالة منهم، بالإضافة إلى أبنائهم، ولم أحظى بلقاء جدي وأخوالي سوى مرةٍ واحدةٍ في حياتي، كان لقائي ببعضهم قبل قدومي إلى «طيعو» بعامين، وحظيت وقتها بلقاء جدي (سالم)، وخالتي (سميحة)، وخالتي (سلمى)، وخالي (عبد السلام)، جاءوا من اليمن، مِن «دباب» لزيارتنا، واختار خالي (عبد السلام) بعد تلك الزيارة العيش في جيبوتي ويقيم بها وعائلته إلى يومنا هذا، وكانت أمي قد سافرت لزيارة جدي وأخوالي إلى اليمن ومدينة «دباب» أربع مرات، مرة برفقة أختي، ومرة قالت أنها سافرت برفقتي، لكني لا أذكر فكنت حينها في الثالثة من عمري، ومرتين قبل ولادتي وقبل ارتباطها بأبي...

ربما لا يكون جدي صاحب تلك العبارة، وربما آخر يتقاطع معه ذلك المصير، فلم يكن قائلَ تلك العبارة مؤكدًا، أو على الأقل لم يثبت أنه كان من عرب «طيعو» والعائلات العربية المقيمة فيها اليوم، كعائلة (عبيد علي) وأخوه (عوادو علي)، وعائلة (راجح بوري)،

وعائلة (حسينو)، فهذه الأسر والعائلات من قبائل الحكمي اليمنية وتقطن بالترتيب في اليمن..

قرية «واحيقا» عائلة (عبيد)

وقرية «انجافير» عائلة (راجح)

ومدينة «دباب» عائلة (حسينو)

وكل هذه القرى تقع جنوب مدينة «المخا»، وشمال باب المندب.

وليس مؤكدا كذلك من عائلات «تهامية» في «طيعو» كعائلتي (طليحي)، وعائلة (حسن عمر) من قبيلة «الهبالية» التي تقطن في منطقة «العباسية» جنوب مدينة «الحديدة» الساحلية في اليمن.

العجيب والغريب لا تعرف كل هذه العائلات مثل الجميع في «طيعو» بالدقة والتحديد من هو ذلك العربي، ومتى قال تلك العبارة..

لا يعرف الجميع في «طيعو» مصدر هذه المقولة، لكنها هي وغيرها من العبارات المشابهة والمماثلة لها متداولة هكذا، وهكذا نقلت هذه المقولة والعبارة برواية غير متواترة، نقلها للسواد الأعظم هنا معلم «طيعو» وحكيمها، ذلك المعلم الذي كان يحب المرح والفكاهة، وألَّف أناشيد مدرسية باللغة العربية

في مدرسته، وقصائد نابعة عن محيطه وبيئته، وألَّف، ونقل كذلك كل ما هو ظريف ومحبب، منها نكتًا وعبارات جميلة مشوقة، في هذه المدينة.. كان مديرًا ومعلمًا للأجيال بـ«طيعو»، وكان بذراعٍ واحدةٍ، وبعقل مزدوج وكبير، كان حكيم عصره، ومدير معهد اللغة العربية بـ«طيعو»، وهو الأستاذ (محمد شيخ العلوي) رحمه الله.

وروى عن (محمد شيخ) رحمه الله عن عربي مجهول رحمه الله فرضًا.. قال:

- يا أهل «طيعو» إذا ما تطيعوا فوقكم «بولو» أي (صخرة).

إذا لم تطيعوا! أو لا تنصاعوا للأوامر يا أهل مدينة «طيعو» فحي «بوله أمو» بالمرصاد لكم، وعصاه على رءوسكم ويرصد حركاتكم، لا يمكن بأي حال من الأحوال، لأحياء «طيعو» الخروج من طاعة حي التلة الصخرية.

ماذا كان يقصد (العربي) بذلك ذات يوم، وماذا كان يقصد بها (قعص) اليوم.

الحي كغيره من الأحياء وإن كان الأقدم، وإن كان في «طيعو» القديم، إلَّا أنه مثل بقية أحياء «طيعو»، فليس هناك ثمة شيء يجعله مختلفًا عن الأحياء الأخرى، ولربما تنبأ ذلك الحكيم بقدوم سلطة

أخرى، ستخضع الأحياء وذلك الحي، وترفع تلك السلطة عصا حقيقية، وليس عصا طين كالتي يرفعها ويلوح بها (قعص) ورفعها من سبقه من أبناء الحي، ربما كان ذلك نبوءة من الحكيم، وقراءة فنجان للمدينة، ربما كانت تعني أن عصا (قعص) ستُستبدل برشاش ومدفع، وربما تقول تلك الجهة من ذلك الحي، وتقول أيضًا من خلال خيوط فنجان قهوة هذه المدينة، إذا ما تطيعونا فوقكم حزب الشعبية، أو بالمرصاد لكم.

ومن المفارقات العجيبة أن السلطة اختارت حي التلة الصخرية وأقامت به، فأصبح اليوم مقر الشرطة، والأمن، والإدارة العامة للحكومة في حي «بوله أمو»..

فجاءت اليوم سلطة غريبة، تمارس الفوقية عمليًّا، وليس قولًا ومزحة مثل (قعص)، ولا فكاهة ودعابة مثل حكيم «طيعو»!

***

ملاذ الأجسام

أين عصاك يا (قعص)، وأين زمن عصاك؟

يقولها اليوم (حسن) بوجعٍ من ثكنة عسكرية قرب مدينة «تسنى» شمال غرب إريتريا، وهو لازال يخدم الوطن، أخذوه قصرًا لخدمته، قبل ثلاث سنوات، وتحديدًا يوم رحيلنا وفرارنا من الوطن، ولازالت خدمته للوطن مستمرة، وإلى أجلٍ غير مسمى.

أين عصاك يا (قعص)؟! يقولها اليوم صديقنا (حسن)، ومعه يشتاق رفيقنا لـ(قعص) ولعصاه، كان يرفض (حسن) في السابق الخضوع لعصا رفيقه مزحًا، وجاء اليوم رشاش ومدفع، يخضع الجميع بحد السيف.

واليوم (قعص) و(حسن) في عالمين مختلفين تمامًا كمًّا، وكيفًا، ونوعًا، وفي كلِّ شيءٍ، (قعص) هنا في أستراليا برفقتي وبالمقابل يفتقد هو مثلي، صديقنا (حسن) وإلى أيام الصفاء في مدينتنا، رغم قساوة الطبيعة ومعاناة الإنسان للإنسان فيها.

أقمت هنا في بداية وصولي عامًا كاملًا رفقة أسرة أسترالية، وهي عائلة (جونسون).. بعيدًا عن (قعص) المحظوظ طبعًا، والذي كان يجيد اللغة الإنجليزية بحكم أنَّها لغة دراسته في وطننا الأصلي، أما أنا فدرست في وطني مسقط رأسي بالفرنسية، وكانت علاقتي الشخصية بالإنجليزية طيبة ومعقولة، ومع ذلك كان عليَّ أن أجيد لغتهم ولغتنا الجديدة كما ينبغي، وأخبرتني الإدارة فور وصولي أنَّني سأوجه إلى معهد للغة الإنجليزية أُعِدَّ لأمثالي، ومن حسن حظي تطوعت عائلة (ماك جونسون) لإيوائي وإعدادي رفقة معهد اللغة، ربما بالصدفة، وربما كان ذلك مرتبًا، التقينا بعد أسبوع من قدومنا مدام (جونسون) التي كانت تنوب جمعيتها في تقديم العون لنا، وتحدثت معي و(قعص) مطولًا، ووعدتنا بمساعدتي وتقديم طلب للإدارتنا واستضافتي مدة عام وعائلتها لإعدادي وتأهيلي، ومع أن برنامج إيواء الأسر للقادمين إلى أستراليا هو برنامجٌ منفصلٌ وخاصٌ وللطلاب القادمين لتعلم اللغة الإنجليزية، ولأعمار محددة، أقل من عمري.. وتدفع إدارة اللجوء لذلك البرنامج مبالغَ ماليةً للأسرِ المستقبِلة لهؤلاء، ويكون ذلك بالتنسيق مع معاهد اللغة، ولا تُمنح هذه الميزة للمهاجرين بإقامة دائمة وبصفة لاجيءٍ سياسيٍّ أو مضطهد مثلي،

إلَّا أنَّني كنت محظوظًا، وكنت حالةً خاصةً، وساعدتني ميس (جونسون)، وساعدني أيضًا دعاء عمتي (فاطمة) لنا أنا و(قعص) يوم رحيلنا، ووفقني الله في ذلك، وقدموني بالفعل بعد أسبوعين من وصولي إلى مدام (جونسون) التي نابت عائلتها في استلامي من مكتب إدارة اللجوء والهجرة، فكانت عائلة (جونسون) ثرية لديها مجموعة شركات، وميس (جونسون) تدير شركات زوجها الذي كان ولازال يعاني من متاعبٍ صحيةٍ، ولديهما ابن واحد ووحيد يُدعى (كوين).. كان (كوين) حينها يبلغ السابعة عشرة من العمر، والشاب الصغير يعشق الحيوانات وتربيتها، ومهتم بها مثل والده تماما، أما مدام (جونسون) فكانت أقلهم اهتماما بها، وكانت تعنى بجوانب أخرى إنسانية وتهتم كثيرًا بقضايا وهموم أمثالي من بؤساء العالم وضحايا الحروب والأزمات الإنسانية، وتقدم مساعدات مادية ومعنوية لهؤلاء، وعضوة في جميعية أسترالية خيرية تهتم بقضايا اللجوء والهجرة، وجمعية أخرى تهتم بإدماج المهاجرين القادمين إلى أستراليا لأسباب إنسانية، بمجتمعهم الجديد..

ومن حسن حظ الشاب (كوين) أن عائلته ثرية ولديها بعض الحيوانات في مزرعة تملكها العائلة في ضاحية ريفية تدعى

«باكينهام» التي تبعد قرابة الساعة، وعلى بعد خمسين كيلومترًا من حي «برايتون».

كان (كوين) يصطحبني أحيانا إلى حديقة حيواناتهم تلك، ورافقته الرحلة إلى المزرعة و»باكينهام» أربعة مرات، وكانت بعض تلك الحيوانات في غرف خاصة تلائم وضع وطبيعة كل منها، وبعضها في أماكن معدة مهيأة لها في المزرعة.. كان بعضها طيور نادرة، وحوض أسماك وبعض القردة كالشمبانزي وغيرها، وما لفت نظري من كل ذلك، هو حيوان الكنغر أو الكنجارو التي لا توجد سوى في هذه البقعة من العالم، التقيت بالكنغر لأول مرة في حياتي في مزرعة (جونسون)، وحاولت الاقتراب منه إلَّا أنه ظل قابعًا منعزلًا في مكانه وربما رأيته يبتعد عنا، وسألت (كوين) لماذا لا يتحمس الكنغر بقدومنا ولم لا يأتي مهرولًا كالشمبانزي، وآخر من فصيلته يدعى والابي wallabe»»، للأسف كان الكنغر بريًّا ولم أتمكن من مصداقته واللعب معه..

وأغرب ما سمعته هنا ومن (كوين)، رحلة الصيد العجيبة التي كان يقوم بها مع والده، فهنا يصطادون الجمال ويقتلونها في رحلة صيد مجنونة، وهي تقاليد وعادات أسترالية متجذِّرة وقديمة،

وتحاربها جمعيات حقوقية حيوانية، ومع ذلك هناك خروقات بالأمر كقتل الجمال، صحيح أنها جمالٌ بريَّة لا أصحاب لها، لكن الجمل عندنا عزيزٌ ومقدسٌ، وربما يكون عندنا أقدس مخلوقات الله بعد الإنسان.. وهنا تهان الجمال وتقتل بطريقة مذلة، كما يهان الإنسان تمامًا في بيئتنا..

وتقيم عائلة (جونسون) في حي «برايتون» الجميل، والراقي، والهادئ، والقريب كذلك من سنتر «ميلبورن»، وتملك فيه عائلة (جونسون) فيلا واسعة مترامية الأطراف، يعمل بها ثلاثة خادم وسائق، وبستاني، بعضهم كانوا لطفاء معي وبعضهم متحفظًا، فقط أحدهم كان مزعجًا وعنصريًّا، ربما أزعجته إقامتي ووجودي بينهم، وربما لم يكن مرحبًا ومرتاحًا بسبب لون بشرتي وبسبب مكان قدومي، كانت علاقتي طيبة بالإنجليزية، وأفهم تمامًا ما كان يقوله، بدرت منه تصرفات عنصرية مشينة وبغيضة تجاهي ولعدة مرات، وفي محاولته الأخيرة لاستفزازي، حاولت إيقافه، وإسكاته، والدفاع عن نفسي بطريقتي الخاصة، تدخلت مدام (جونسون) التي كانت تجلس وحيدة وتتناول مشروبًا باردًا في صالون فاخر بحديقة المنزل، وطلبت منا أن نشرح ونوضح لها

الأمر وبالتفصيل، وبعدما استمعت لكلينا، فصلت في الأمر وفي تلك القضية، وأدانت ذلك الشخص، وطلبت منه الاعتذار لنا فورًا، وعدم تكراره ما حدث، وانصرف، وابقتني بجانبها وربتت على رأسي وكتفي واعتذرت لي أيضًا، وطلبت لي كأسًا آخرَ باردًا، ومعه طلبت مني وهي تبتسم وبأسلوبٍ لطيف، إخبارها وإعلامها وميس (جونسون) بكل ما أراه من أمورٍ، وألَّا أتصرف بطريقتي تلك وبطريقة لا قانونية، وفهمت أنَّها كانت ترمي وتقصد بقولها «بطريقتي تلك» ألَّا أتصرف بأسلوب لا حضاري وبطريقة ضمنية، وأن أستخدم أيضًا عقلي بدلًا من عضلاتي في الدفاع عن نفسي، ما أمكن ذلك.

تأقلمت معهم سريعًا، وساعدني كثيرون في عائلة (جونسون) وملحقاتها، منهم مستر (جونسون)، وزوجته، و(كوين)، والبستاني (ساكوفتش)، وبعض الخدم. كان (ساكوفيتش) أكثر اهتماما بي من الجميع لأتعلم الإنجليزية، وربما كان ذلك طلبًا من مستر وميس (جونسون) للبستاني، وربما كان ذلك جزءًا من خطة إعدادي، وتأهيلي، وتعليمي، وكنت أقضي معه أوقاتًا كثيرة بطلبٍ منهم، وبعد سبعة أشهر من إقامتي معهم عرض علي ذلك البستاني –وهو

أسترالي من أصول كرواتية- فكرة الالتحاق بمعاهد فنية للديكور، أو البناء، أو... وأنه آن الآوان لأشق طريقي.. فكرت بذلك وقررت، وقدمت طلبي للديكور، وقوبل بالنجاح والموافقة، والتحقت بمعهدي، ووفقني الله في مسعاي، وأنهيت عامي الدراسي بنجاح، والتحقت بعد ذلك بإحدى شركات (جونسون) في ذات المجال، للعمل بها، وساعدتني مجددًا مدام (جونسون) التي تربطني بها وبزوجها اليوم علاقة طيبة..

كان صديقي (قعص) كثيرَ الامتعاض والرفض لنمط حياة الغربة، فأنا مررت بحالته هذه منذ زمن بعيد، واليوم ربما أكون أكثر جلدًا وصبرًا وتقبلًا منه بواقعنا الجديد، (قعص) كان صديقي وابن عمي وصار هنا اليوم كلَّ شيءٍ بالنسبة لي، وأنا كذلك بالنسبة له..

وفي بدايات وصولنا لعالمنا الجديد لم أكن أمضي ليلة السبت بدون (قعص)، أذهب إلى بيته ونخرج صباح الأحد ومسائه إلى مكان ما.. إلى الجالية مرات وإلى المتنزهات مرات، ومرات أخرى نكتفي بالتسوق ونعود إلى منزله.. كان ذلك في السنة الأولى وبدايات اغترابنا، كانت بداياتنا تلك تحمل شكوى رفيقي، وتذمره، ورفضه بصورة دائمة، ومتكررة لقبول واقعه

الجديد، اشتكى لي حينها عن صباحات الغربة الرتيبة ومساءاتها الموحشة قائلا لي:

– عقيمة يا صديقي صباحات الغربة، فكم هي صعبة متعبة، ومملة، ففيها نصحوا على واقع لم نكن نعرفه قبلًا، لم يكن يومًا ضمن اهتمامنا، ولا حلم صبانا، ولا يشبهنا أيضًا، صباحات الشتات تقسمنا إلى أَشْطُرٍ، تفصل بين أجسادنا وأرواحنا، تحرمنا دفء العائلة وأجوائها الهادئة والصاخبة معًا، لا وجود فيها لأمكنة تسكن أرواحنا، لا تحمل عبق مسك أزقتنا، وشوارعنا، وحوارينا، ولا رائحة عطر الأحبة والرفاق، ونفتقد فيها إلى قهوتنا الصباحية، قهوة «الجبنة» التقليدية، واهتمام العائلات وحرصها لحضور مائدة تلك القهوة صباح كل يوم، رفقة بعض الجيران، والأقارب، والأحبة في أجواءٍ حميمية، أمَّا قهوة الأربعاء فذاك تقليدٌ آخرُ واهتمامٌ آخرُ مميزٌ، حيث تجتمع النسوة (معظمهن كبار السن) أسبوعيًّا في أحواش المنازل، وفي بيوتٍ معينة تمتهن هذه العادة ويرتشفن القهوة، ويقمن ببعض الأدعية حول تلك الموائد التقليدية.. وكل ذلك مفقود في صباحات الغربة، ولا أثر فيها كذلك لإيقاعات الدفء الخماسية، وأيقاعات الطبيعة كهدير أمواج البحر، وألحان العصافير والطيور، وصياح الديكة فجر كل صباح، وأنغام النوارس في الشواطئ، ونفتقد هنا لصباحات العيد في مدينتنا

الشاطئية، وفي صباحات العيد كنا نعايد المدينة ونحن صغار ونلفها بيتًا بيتًا، ونجمع الفشار، والحلوى، والبسكويت، ونعود قبيل صلاة الظهر إلى بيوتنا محملين بكلِّ تلك الأشياء وفرحين بها، وهي نفسها حال مساءات الشتات المعتمة والموحشة، والتي نفتقد فيها إلى سكون النفس، ونفتقر فيها إلى دفء المشاعر والأحاسيس، ونفتقد فيها كل ما عهدناه في بيئتنا... لا وجود في أمسيات المهجر لحوار مدينتنا البحرية، وحكايات الصيادين وزوارقهم، والبحر، والسمك، والجزر، والضفتين الغربية، والشرقية للبحر هناك... ومساءات الشتات، جوفاء جرداء رتيبة، لا وجود فيها لليالي الأنس والألفة، ولا لتلك الفضاءات الرحبة، أو المسارح الطبيعية التي كانت تؤدي فيها تحت أضواء القمر فلكولور «السدع»، ورقصات «بريمو»، «هورا»، و«الزار»، و«سيليلي»، ولا وجود فيها لأغاني «عاينتاو»، و«لابو»، ونفتقد فيها إلى أشياءٍ حسية روحية.. فمرت علينا يا صديقي ليلة الخسوف هنا وكأنها ليلةٌ عادية، ففي ليالي الخسوف هناك كنا نلجأ بعد الصلاة مباشرة إلى البحر رجالًا، ونساءً، وأطفالًا، نطهر أنفسنا بمياه البحر بعد تطهير أرواحنا بصلاة الخسوف، مساءات المهجر خالية من الروحانيات فهنا لا طقوس رمضانية تشتهر بها مدينتنا، ففي مدينتنا كانت تقوم مجموعة من النساء والأطفال بمسح المدينة حارةً

حارةً، شارعًا شارعًا أوقات السحور، وهم ينشدون عبارة «سحوركم يا صايمين» ويساعدون بذلك الأهالي، لمعرفة وقت السحور، ونفتقد كذلك هنا إلى موشحات المواليد وولائمها وموائدها التي تقدم للحضور بعد الانتهاء من قراءة السيرة النبوية والموشحات الدينية، منها طبق كنا ننتظره ونحن صغار، بفارغ الصبر، ونسهر الليل بطوله وعرضه لنظفر به، وأحيانا كان النوم يغلبنا، لكننا كنا نقاومه في كثير من المرات، وهذا الطبق كان ثلاثيًا، ومكونًا من قطعة لحمٍ مشويةٍ، وكفٍّ تمرٍ، وكفين من الفشار، وكان هذا الطبق يقدم لكل الحاضرين والمشاركين في إحياء ليالي المواليد، وكان يقدم من اليمين إلى إلى اليسار..

ونفتقد في صباحات ومساءات الغربة إلى نكهات ومذاقات كثيرة وعديدة، منها نكهة القهوة، وطعم الزنجبيل الحار، ومذاق الأطعمة الشعبية، كعيش الفرن التقليدي، واللحوح، وطبق عصيدة الذرة مع اللبن، والسمن، والعسل، وأسماك البحر المشوية، والمغلية بالمرق مع البهارات، وأسماك أخرى تطهى بالفرن التقليدي...

وليتهما اكتفتا بالعقم وعدم الإنجاب، فصباحاتنا في المهجر لا ولم تكتفِ بالعقم، فهي حُبلَى بالمتاعب والهموم، وهو حال مساءاته أيضًا، فهي الأخرى محملة بالأحزان والأوجاع يا صاحبي!

ربما تكون الحياة في المهجر مرفَّهة، ملبية لبعض طموحاتنا ورغباتنا التي فشلت أوطاننا في تحقيقها لنا، وجوانب أخرى مادية افتقدناها في بيئتنا الأصلية، ومع ذلك صباحاتنا ومساءاتنا في الشتات مؤلمة في ظل افتقادنا لكل تلك الأشياء الجميلة والمهمة..

حاول صديقي (قعص) في عامنا الأول في الغربة دراسة علوم التمريض في البداية، إلَّا أنَّه تركها، والتحق بعهد فني لميكانيكا السيارات، وأنا اخترت الديكور، والتحقت بمدرسة فنية للديكور في وسط مدينتنا، وحصلت منها على دبلوم فني، وأشتغل في مؤسسة خاصة في مجال تخصصي، وأعمل رفقة (ماجد) زميل دراستي. (ماجد الحلبي) صديقي من الجمهورية العربية السورية، جمعتني و(ماجد) مدرسة الديكور تلك، وجمعني به أيضًا المهجر ورحلة الشتات والتشظي التي فرضت علينا، وصاغها القدر لكلينا، وصار اليوم أقرب صديق لي في «ميلبورن». (ماجد) إنسان بمعنى الكلمة، فصديقي يتسم بالجدية في العمل، وبالمرح، والتفائل للحياة دائمًا، ساعدني (ماجد) معنويًا في معركة الصمود، ولأجتاز ذلك التخصص بأمان ونجاح، كان صديقي فنانًا تشكيليًّا، ورسامًا بارعًا، وهذا الشيء ساعده كثيرًا ولطالما أبهر أساتذة مدرستنا بتشكيلاته الرائعة التي كان يقدمها دومًا في المدرسة، وحاز

صديقي على علامات كاملة في مواد الديكور في المدرسة، واعتلي وتربع على رأس دفعتنا بجدارة واستحقاق، ونقل صديقي إلينا هذا التميز، والجدية، والتفاني في العمل، لأحصل أنا كذلك على مركزٍ طيب في قائمة المتفوقين في فن الديكور. صديقي ينتمي لعائلة سورية «إدلبية» عربية معروفة وثرية قدمت عائلة (الحلبي) من اللاذقية عروس البحر المتوسط واستوطنت منذ سبعين عامًا مدينة «إدلب» الواقعة في شمال سوريا، والواقعة جنوب غرب مدينة حلب بستين كلم منها، ومحافظة «إدلب» تعتبر من المحافظات السورية الجميلة، وهي خضراء ومغطاة تمامًا بأشجار الزيتون. عانت وتعاني اليوم «إدلب» من غموضٍ حلَّ بها وبسوريا عمومًا، وبمعظم الأقطار العربية بشكل عام، وأفقد صديقي هذا الغموضُ والحربُ أهم وأغلى ما يملكه الإنسان، فقد عائلته في صيف عام 2013 إثر تعرض المدينة لغارة جوية أغرقت حي (ماجد الحلبي) بأكمله، وصديقي كان من الناجين القلة في ذلك الحي، ولحظة الغارة الصادمة تلك كان في مقهى قريب من منزلهم.. أُصيب المقهى هو الآخر ومن فيه، أمَّا منزل صديقي تحول إلى كومة حطام في لحظات، لم ينجُ من أفراد عائلته المكونة من تسعة أفراد سوى أخته (سهام)، التي تقيم اليوم معه في «ميلبورن»، انتقل صديقي

وأخته شمالًا مع النازحين من مدن سورية إلى مخيمات اللجوء في جنوب تركيا صيف ذلك العام، وقدم صديقي مع أخته إلى أستراليا وإلى مدينتنا في ديسمبر عام 2015..

مع أن (ماجد) يحمل كل هذه الذاكرة الملأى بالحزن والفواجع، ويحمل في قلبه كل هذه الآلام والمآسي، وجسدًا نحيلًا، ووجها يخفي حزنًا عميقًا، إلَّا أنَّه يظهر أملَ التفائل دائمًا، ويحمل عزيمة، وإيمانًا، وإرادة قوية وكبيرة جدًا، ويبدو ذلك في تفاعلاته مع الآخرين، وجديته في العمل، وحبه للمرح أيضًا رغم كل ما مر به.

ترك صديقي سوريا مسرحا للحرب والإقتتال... فالنظام يقتل ويحرق، والمعارضة تمارس نفس القتل... والمعارضة نفسها مبعثرة ومتعددة منها، كردية، وإسلامية، ويمينية، وشمالية، وشامية، وحلبية... ومشاركة حلفاء النظام في الخراب والعنف والقتل في سوريا، منها: أيران، وحزب الله، والحليف الروسي... والحال نفسه مع حلفاء المعارضة، كتركيا، وقطر، والسعودية، وغيرهم... وتدخل غربي أمريكي مباشر... وغارات يومية بالطائرات والمدافع للمدن، والقرى، والأرياف... وحصار للمدنيين... وإرهاب للمدنيين، وإرهاب دولة، وإرهاب معارضة،

وإرهاب الجوار، والمحيط، والعالم... الكل يصنع ويساهم في دمار سوريا وضياع حاضرها الذي بُني بسواعد سورية وبعقول سورية، ويساهمون، ويصنعون ضياع ماضيها، وتاريخها، وآثارها الحضارية الثرية والغنية..

ومع كل ذلك الإحساس الرهيب بالضبابية واستحالة الرؤية التي تختلج الأرواح والنفوس هناك في سوريا وفي الشتات، بالغموض والضياع، فاستعادة سوريا لعافيتها ومكانتها الإقليمية والدولية، وعودة الحياة فيها ليست عصية ولا مستحيلة، والأمل بغد مشرق باقٍ ما بقيت الحياة.

ابن عمي وصديقي (قعص)، و(سنايت)، ومقهاها علموني أمورًا لم أكن أعلم شيئًا عنها، كانوا وطنيين وثوريين (المقهى، وقعص، وسنايت).

لن نركع مادام لنا طفل يرضع ولن نستسلم. كان شعار ثورة التحرير الإريترية وتعلمته شخصيًّا في مقهى «طيعو» وهو أيضًا شعار كل ثورات العالم الحرة، ومنها ثورة شعب سوريا أيضًا، فشعب صديقي (ماجد الحلبي) بسوريا، وهي ذلك البلد الشقيق الذي شارك ثورة شعب إريتريا ذات يوم همها، وحلمها، ونضالها من أجل استقلال بلدها، وكانت الجمهورية

السورية ومنذ انطلاقة الشرارة الأولى لثورة إريتريا عام 1961 أحد أبرز الداعمين لها، وحظيرة خلفية لثوار إريتريا، وساعدت سوريا نضال شعب إريتريا ماديًّا وأدبيًّا، فقدمت العتاد والسلاح لمجاهدي إريتريا وعالجت جرحاها في مستشفياتها، وعلمت كوادرها وأبناءها في بلدها، وكانت أول دولة عربية تدرس في منهجها جغرافية إريتريا كبلد مستقل عن إثيوبيا، وفي المحصلة ربما كانت علاقتي و(ماجد الحلبي) ظِلًّا لتلك العلاقة التاريخية بين إريتريا وسوريا، وعلاقة شعب بشعب، وليست علاقة مغترب عابر ومجهول بآخر!

ووجع آخر كانت تمثله لوحة صديقي (ماجد)، فصديقي رسام موهوب ومبدع، وذات مرة وفي عامنا الأول في مدرسة الديكور تلك حينها كنت أسكن مع عائلة (جونسون)، اجتمعنا وبعض الأصدقاء في مناسبة لا أدري الآن هويتها، وأنها كانت وطنية أسترالية أو سورية أم كانت دينية عقدية! لا تسعفني ذاكرتي الآن لمعرفة ماهيتها، فكل ما أعرفه أنها كانت في شقة (ماجد).. في حي «برانسويك» «Branswick» في سنتر «ميلبورن»، فيومها عرض صديقي علينا آخر لوحاته، مع أن كل لوحاته معبرة وهادفة وذات معاني وأبعاد إنسانية، إلَّا أن تلك اللوحة كانت مميزة، وطلب منا

صديقي أن نعرف بوح تلك الصورة وقراءتها، أو كيف يراها كل منا، كانت لوحة لطفل صغير ولبراءة لا تتعدى العشر سنوات، نصفه براءة، ونصفه براءة مسروقة... وعين طفل تتطلع إلى المستقبل بثبات وثقة، وأخرى مكسورة حزينة ملأى بالدمع، ونصف طفل في ملابس مدرسية، ونصفه الآخر مسروق أيضًا وبزي عسكري، كانت صورة أو لوحة تبكي وتدمي القلب، و لطفل سوري يحمل كتابًا بيده اليمنى، وباليسرى بندقية.. هي رسمة لطفل في زمن البؤس، زمن الحرمان، في زمن الحرب، والخراب، والدمار، وفي زمن الجناية والاحتيال والسرقة..

يحدث هذا في أماكن كثيرة في عالم اليوم وعالم المهزلة، وتوجد أينما وجد الحرب، واللااحترام للانسان وحقوق الأطفال الأبرياء.. هذه اللوحة طبعت في ذاكرتي، وغرست في ذاكرة الذاكرة، ليس بروعة رسمها، وتناسق ألوانها، ودرجات تركيزها، وإنَّما كان ذلك بما تحمله من حجم الألم والوجع. كانت في النهاية تمثل لوحة (ماجد) وصمة عار في جبين الإنسانية جمعاء، وتعكس انحطاطًا لكل القيم، والمبادئ، والأعراف، والمعتقدات.

في رابع يوم من إجازتنا الصيفية الأولى في شاطئ «الوود بيتش»، التقينا أنا و(ماجد) بسيدة سودانية كانت رفقة عائلة أسترالية، ومنذ

الوهلة الأولى ووقوع نظري وبصري عليها، شعرت أن هذه السيدة قريبة مني، كان ذلك شعورها ربما، وربما تأكدت هي من هويتينا، فهي تلاحقنا منذ الصباح بنظراتها التي زادت من شكِّي، تفعل ذلك كلما علت أصواتنا وقهقهاتنا، وكأنها تفهم ما نقول، وتلتفت كلما نمر من أمامها أو إذا تقاطع طريقنا في الشاطئ، فنحن كنا نمارس هوايتنا مسح الشاطئ من شرقه الغربي، فهذه أول مرة نرتاد فيها شاطئًا كهذا، ولذا كان الانبهار والدهشة باديين علينا وواضحين وضوح الشمس.

في آخر مرة، التفتت نحونا ورمقت صديقي بنظرات معاتبة ومعاقبة، لأن (ماجد) قصدها فعلًا هذه المرة، متخيلًا أنَّنا نتحدث بلغة «الواق واق.. كانت عربية سودانية يا صاحبي، ونحن لا ندري بذلك، ولسذاجتنا لم نتوقع أن يكون هنا من يفهمنا ونفهمه..

اعتذر صديقي قائلًا لها:

- كانت زلة لسان، أتأسف وأعتذر لك سيدتي!

فقالت:

- هذه قلة حيا وقلة أدب!

واعتذرت لها نيابة عن صديقي أيضًا، فقالت لي وبعصبية:

- ما دخلك أنت؟

فعلًا ما دخلي أنا، فصمت

وقلت لنفسي أيضًا والله لم يقل شيئًا نابيًا أو سيئًا لك يا أختاه، وإذا قيلت هذه العبارة هنا لسيدة أو آنسة، لشكرت صاحبها وابتسمت في وجهه..

كان قال صديقي لـ(بثينة) أنها جميلة ومذهلة..

عمومًا كان كلامها صحيحًا فهذه الجملة ومثيلاتها تصنف في صفنا ضمن قوائم اللاأدب واللاحياء.

كانت (بثينة) من غرب السودان ومن ولاية «دارفور»، ومن قبيلة «فور» التي اشتق منها اسم ولاية «دارفور»، و»الفور» واحدة من القبائل الرئيسة القاطنة في ولاية «دارفور» إلى جانب كل من قبيلة «الزغاوة»، و»المساليت»، والعرب وغيرهم.

وفي عام 2003 تحولت «دارفور» إلى منطقة عمليات عسكرية تمامًا، واضطربت أوضاع الولاية، وساءت وانحدرت..

حينها اضطرت (بثينة) وكثيرون غيرها من أبناء الولاية إلى الهجرة واللجوء إلى مكان آمن يعيشون فيه، فتحولت الحياة في مدينتها وولايتها إلى جحيم لا يطاق ولا يتحمل، والاحتقان فيها وصل إلى ذروته، والقتل والحرق والإبادة، كان ذلك في عام 2003، ودخلت

(بثينة) إلى ليبيا نهاية ذلك العام، ومنها إلى محطة ثانية وثالثة، إلى أن وصلت هنا عام 2010.

وفي آخر يوم لنا ودعنا (بثينة) وودعتنا على أمل أن نلتقي، أن نجتمع في وقت آخر أفضل وأجمل، وشكرناها نحن على لفتتها الجميلة والمعبرة بطيب أصلها، فهي قدمت لنا دعوة للعشاء معها في فندق قريب من الشاطئ كنا نقيم فيه معًا، وأصرت على قبول طلبها.. كان ذاك في اليوم السادس لنا في الشاطئ.

وفوق مائدة العشاء تلك والتي جمعتنا أنا وصديقي (ماجد الحلبي) والسيدة (بثينة)، دار بيننا نقاش وحوار جميل ومهم، فكانت السيدة (بثينة) تتحدث إلينا بهدوء ورزانة، خلاف ما بدت عليه في الشاطئ قبل يومين من لقائنا الأخير وأمسيتنا تلك، وكنا نستمع إليها باهتمام وكأننا في محاضرة لخبير وعالم سياسي، كانت ثلاثينية ومدرسة رياضيات في المرحلة المتوسطة في موطنها، وتعمل هنا في «ميلبورن» في مكتب سياحي، لم يكن عملها الجديد هذا يلبي تطلعها وطموحها. كانت (بثينة) على درجة كبيرة من الوعي والنضج الفكري، ويبدو أن المعاناة المريرة التي عاشتها في «دارفور»، ومعاناة الاغتراب في ليبيا، وإيطاليا، وسويسرا أثقلتها، فكانت تنظر للأمور والأحداث بطريقة تختلف عن طريقتنا أنا وماجد طرحًا ومعالجة فهي

ترى أنَّنا نعيش عولمة اللاإنسانية والظلم ومشتقاته، وأن هذه العولمة طفت على السطح، ونمت، وتوالدت بشكل غريب في زمننا، وغدت تلك العولمة واقعنا المعاش، وابتلعت عوالمنا وأصبحت معها أوطاننا نموذجًا لها وتربعت على عروشها إنتاجًا وتصديرًا واستيرادًا لها.

فتساءلت (بثينة) وسألتنا: هل من الممكن أن نصحوا ذات يوم على واقع آخر جميل أو عادي حتي، وواقع نعيش فيه نحن وكل من يتقاطع معنا مآسينا ومعاناتنا إلى جانب من ظلمنا بالأمس بسلام وأمان.

كان رأيي أن طرحها مثالي، لا يصلح للتطبيق، ولم تخرج إجابة صديقنا السوري بعيدًا عن تصوري للحالة.

تابعت (بثينة) حديثها قائلة:

لِمَ لا نصحوا على عولمة العدل يومًا ما في السودان، وسوريا، وإريتريا مثلًا؟ وعلى واقع نطوى فيه صفحات الظل، والذل، والحرمان؟ ولما لا نفتح وجميعنا صفحة أخرى جديدة نستعيد فيها إنسانيتنا، صفحة يطلب فيها ظالم الأمس الغفران ممَّن ظلمهم، ومظلوم اليوم يذهب فيها إلى قاعدة عفى الله عما سلف؟ فمعها كنا ندفن وجميعنا معاناة حاضرنا الأليم ورواسب ماضينا الحزين ومخلفاتهما في سلات اللاإنسانية التي خرجت منها هذه المساوئ أصلا..

وإذا ما أردنا يا سادة تجاوز واقعنا الحالي والانتقال إلى واقع آخر جميل لا يعيد إلى الواجهة مجددًا، واقع اليوم مستقبلًا، علينا أن نضحي جميعنا، وبما تحمله كلمة التضحية من معاني..

كان مفهوم (بثينة) مختلفًا عن مفهومي للتضحية، وعن التضحية التقليدية عمومًا.

كانت ترى أن علي الجميع أن يضحي.. ظالمنا ومظلومنا، وقوينا وضعيفنا..

قاطعها (ماجد) قائل:

– التضحية هنا يا سيدتي ستخدم الضعيف، فماذا سيستفيد الظالم في تلك العملية وهو يحكم قبضته ويملك أسباب البقاء؟!

ابتسمت (بثينة) وأعادت كأس الشاي إلى الطاولة، وبهدوء ردت على صديقي:

– اسمع يا استاذ (كامل)!

قاطعها (ماجد) مصححًا:

– (ماجد) وليس (كامل).

ابتسمت مجددًا واعتذرت وتابعت:

– اسمع يا استاذ (ماجد)! إلى متى ستبقى أسباب البقاء تلك؟ يا إخواني، دوام الحال من المحال فقوي اليوم سيصبح غدًا ضعيفًا، ولا شك في ذلك، والجميع في النهاية سيكون الرابح من هذا الطرح أو من هذه العملية، وعلى قوي اليوم أن يعلم أن المستقبل مجهول للجميع، وعلى الجميع كذلك أن يفكر من أجل مستقبلٍ قادمٍ، لذا علينا أن نطبق اليوم فلسفة «مانديلا» للخروج من معاناتنا، واعتماد فلسفة المرونة والتنازل، ومن الجميع للجميع، ودون استثناء، وقبل فوات الأوان..

ذات يوم وتحديدًا في آخر عام لنا في مدرسة الديكور وقبل سنة وعدة أشهر من اليوم، أنا وماجد كنا نعود من معهدنا، وبدأ الاضطراب الجوي والعاصفة دون سابق إنذار.. لن ننسى ذلك اليوم أبدا كان يومًا استثنائيًا هنا في المدينة وفي ولاية «فيكتوريا» كلها، ويومًا استثنائيًا أيضًا في حياتي بطولها وعرضها.. فعلًا كان يومًا مخيفًا ومرعبًا جدًا بالنسبة لنا، فالأجواء كانت شديدة الاضطراب ذلك اليوم، وهبت عاصفة رهيبة بداية، وأعقبها هطول أمطار غزيرة، وكأننا مقبلون على كارثة «تسونامي» أو إعصار «كاترينا» جديد، فتوقفت يومها حركة المرور، وحبسنا رفقة

أنفاسنا لثمانِ ساعات في «كافتيريا» تقع في الدور الثالث لمبنى قرب مدرستنا..

كان صديقي (ماجد السوري) ربما معتادًا على هطول الأمطار الرعدية في بلده، ولكن مطلقًا ليس بهذا الطريقة، وأمَّا العاصفة فكانت مجنونة وأقلقته مثلي، لكن صديقي في كل الأحوال كان أكثر جلدًا وهدوءًا مني، كان لصديقي وطنًا، ويحكي عنه دومًا في كل الظروف، فقال لي، وفي تلك «الكافتيريا»:

– إذا لم يضِق بنا الوطن يومًا، واذا كان باستطاعتنا إيقاف العبث، والحروب، والضيم فيه، وإذا حققنا أو تحققت مطالبنا لنحيا في وطننا لما فكرنا في اللجوء واقتحام عوالم أخرى، ولما نزلنا ضيوفًا ثقيلي الظل، ولا حتى خفيفي الظل على الغير، ولما قطعنا هدوء عوالم ساكنة، ولما ضيقنا العيش وزاحمنا غيرنا على لقمة عيشهم، ولما اخترنا واختار الكثيرون منا منذ البداية ألم الرحيل والمغادرة أولا، وألم البعاد والاغتراب ثانيًا، وألم الذل والمهانة ثالثًا، وألم الشوق والحنين رابعًا.

لم أكن أسمع نصف كلامه، وكنت أقاطع الاستماع لحديثه مرات عدة، لأشاهد «التلفاز» وما يصنعه هذا الاضطراب المجنون والملعون من خراب ودمار، فقلت لصديقي (ماجد):

– يا أخي عن أي سكون وهدوء تتكلم، وعن أية عوالم هادئة تتحدث، أحلف لك بالله نحن عالمنا أهدأ آلاف المرات من عوالمهم المضطربة مثل هذه. أنا لا افكر هذه اللحظات سوى في وطني..

وهل سنكون ضحايا هذه الحادثة والاضطراب الجوي يا صديقي ماجد..

كنت خائفا وأنا أشاهد «التلفاز» في ذلك المكان الضيق والمكتظ بالمارة الذين التجؤوا إليه مثلنا، فما يحدث في الخارج ويحدثه الإعصار من أمور كان مرعبًا ومخيفًا.

ودعوت الله آلاف المرات وصليت كذلك حتى تمر هذه الحادثة بسلام.

بعد ثمانِ ساعاتٍ من الغموض بدأت تتقلص الحالة وتهدأ قليلًا، وانتهى الاضطراب وخلَّف خمس عشرة ضحية، وعشرات المفقودين، وجرحى بالعشرات، والحمد لله أنه توقف ولم يستمر لأكثر من ثمانِ ساعات والحمد لله اكتفى بهذا، فلو استمر ليوم أو يومين كان سيتسبب في إحداث كارثة إنسانية مؤلمة هنا وفي ولاية فكتوريا كلها، وربما تعدى الأمر ولايتنا، وربما تقدم الإعصار والاضطراب بساعات قليلة عن توقعات الأرصاد الجوية، ومع

ذلك كان الجميع هنا يعلم ويتوقع حدوثه ووقوعه، ورغم الحيطة والحذر خلف ما خلفه من أمور، وكنت أتصل بـ(قعص)، ويتصل هو بي إلى أن هدأت الأمور وعادت «ميلبورن» إلى طبيعتها.

أنا، و(قعص)، و(ماجد الحلبي)، و(بثينة حسين) تقاطع أوطانٍ قاسمها المشترك المعاناة، والظلم، والحرمان، وتقاطع إنسانٍ وقع ضحية اللاإنسانية. أجبرنا على مغادرة أوطاننا وأهلنا عندما ضاقت بنا تلك الأوطان نتيجة ما تعانيها من حروب، واضطهاد، وقمع، وظلم، ومعاناة أخرى كثيرة، ونحن كذلك تقاطع شتات، وتشظي، وتبعثر في كل الأمكنة، أرغمنا على العيش بلا هوية وبلا عنوان في أوطان الغير، وكان ذلك ما يجمعنا، ومع ذلك لم يكن أحدٌ من رفاقي وأصدقائي يشبهني أو تشبه حالتهم حالتي، كنت مختلفًا عنهم، وكنت ثنائي وربما ثلاثي الهوى، والهوية، والانتماء.. كانوا جميعهم بهوية أحادية، فابن عمي (قعص) كان مثلًا بهوية إريترية خالصة، وكذا صديقي (ماجد) سوري الهوية والاهتمام، و(بثينة) سودانية الروح، والهوى، والانتماء، أمَّا أنا فأختلف عن الجميع، فلديَّ أكثر من هم واحد، ومن اهتمام واحد وأكثر من هوية واحدة، ولدي روح في مكان، وقلب في مكان آخر، وعين على مكان، وهذا الصراع والتجاذب اللذين أعيشهما اليوم.. لم يكونا مطلقا

وليدي لحظات ولم يولدا معي أيضًا، كانا أبعد مدى من مسقط رأسي، ومن وطن جذوري، وكانا أكبر من عمري، يعود ذلك إلى جدي (سالم) وهويته العربية التي كانت تجري في عروقي وأوردتي، وتزاحم هويتي الرئيستين من بعيد.. ومؤكدًا أُضيفت هذه الهوية والاهتمام الثالث إلى ذلك الصراع والتجاذب، فأنا على سبيل المثال لا الحصر لديَّ مثلًا اهتمام وذائقة فنية غنائية شرقية، وأميل إلى دندنة العود وإلى السلم السباعي الشرقي، وأفضله على الخماسي السائد في الضفة الغربية لبحرنا، وربما كان ذلك انعكاس إرث هويتي الثالثة التي كانت تلاحقني وتسكن معي، والتي أضيفت كذلك لتعمق من معاناتي وترفع من رصيد ضياعي، وتشتتي، وتبعثري، وربما كان ذلك خيرًا وثراءً... وميزة أتفوق بها على (قعص) وبقية الرفاق، فأنا عادة أدافع عن أو أمثل هوية غائبة من هوياتي الثلاثة، فكنت مثلا، إريتريًّا في جيبوتي، وجيبوتيًّا في إريتريا، ويمنيًّا إذا اجتمعتا هويتي الرئيسيتان في مكان واحد، بينما أضيع وأعاني لحظة حضور هذه الهويات في مكان واحد، أو لحظة غيابها كلها معا، كما يحصل لي الآن... وأعتبر عمومًا، كل تلك الهويات هوية واحدة، أو ثلاثة هويات وكلها لي، فأنا مثل مسيحي يؤمن أن الأب، والابن، وروح القدس، واحدٌ،

أو شيءٌ واحدٌ لا ينفصلان، وبقداسة واحدة، وكنت ولازلت أنتمي، وأمثل كل تلك الهويات، وقدري أن أكون كل ذلك وجيشًا من الهويات والاهتمام والهم والعشق، فأنا أنتمي اليوم لكل هذه الأوطان الحسية والمعنوية وأحمل همومها واهتمامها كلها..

أذكر أنه ذات مساء وقبل رحيلي ومغادرتي إلى «طيعو»، دار حديث مطول بيننا أنا، وأبي، وأمي، وأختي، وكانت هذه الليلة من الليالي النادرة التي أشارك فيها العائلة تلك القعدات المسائية الدافئة.. كان الحديث مطولًا، وعرج على أشياء، وأمكنة، وأزمنة كثيرة، ليلتها قال لنا أبي أمرًا مهما واتضح لي اليوم أن كلامه كان في محله، وأنه كان محقًّا فيما ذهب إليه، فقال لنا تلك الأمسية: أن هويتنا الأشمل والأكبر هي الإنسانية وأن الهوية إيمان وقناعة، وعليها أن تكون فضفاضة، واسعة، وعميقة، وأن تجمعنا مع كل مواطني العالم.. وعلينا أن نتسامى على الجغرافيا على المكان والزمان، وأن تكون قدسية الإنسان عندنا أكبر من المكان.. والجنس.. والجنسية.. والهوية.

صار هذا الزمن وبامتياز زمن المعاناة، نتنقل فيه من واحدة إلى أخرى، وتضاف جميعها وتباعًا إلى رصيد تراكمي للمعانات الجاثمة على أنفاسنا، واليوم أيضًا انتقل فيروس هذه العدوى إلى الضفة

الأخرى لبحرنا وإلى اليمن السعيد، وهاهي اليمن منذ أن غادرناها بداية 2015، وإلى اليوم تعاني أزمة إنسانية حادة وخانقة، وهاهي أمي تفقد أخوها (سعيد) وابن عمها مع أربعة من أفراد عائلته، في غارة صاروخية ربما كانت جوية وربما أرضية، لا يهم ذلك المهم أنها حصدت الأرواح وتسببت في مآسي، وآلام، ودموعٍ، وأحزانٍ... واستهدفت حفلة عرس في مدينة «دباب» اليمنية، والحصيلة ثلاثون ضحية معظمهم نساء وأطفال..

وازدادت وتيرة الحرب والمعاناة في اليمن، وأدَّى ذلك إلى لجوء عائلات كثيرة من بعض قرى ومدن اليمن منها مدينة «دباب»، إلى مدينة «ابخ» الواقعة في شمال جمهورية جيبوتي، والقريبة من اليمن وباب المندب تحديدًا.. بقي جدي هناك ورفض هو وجلُّ عائلتنا في «دباب» فكرة اللجوء، ولجأت منهم عائلتي خالي (سلطان) وخالتي (سميحة) إلى مخيم اللاجئين في مدينة «ابخ» شمال جيبوتي، وأمي اليوم إحدى قدميها في العاصمة الجيبوتية، والقدم الأخرى في تلك المدينة الشمالية التي يحتضن مخيمها أختها وأخاها..

ويبدو أن عائلتي حسمت أمري، وأمي مصرة أن أدخل ذلك القفص والسجن، فهذا القفص مزاجي يرفضك عندما تريد ارتياده وتسليم نفسك له، بينما يضع قيوده على يديك ورجليك

عندما لا تفكر في ولوجه.. مثله تمامًا مثل قصة أهلي، و»ساوا»، والشعبية، وتجنيدي.. ولا تكون على قائمة الشعبية وقائمة المرحلين لحظة انتحارك وجاهزيتك له، ويقيدونك إليه لحظة سكونك ورفضك للتجنيد.

واختارت أمي عروسًا لي وشريكة حياة على مقاسها فاختارت (عبير) بنت خالتي (سميحة) زوجة لي، كانت تقول وتنوي أمي فعل ذلك، منذ زمن بعيد.. منذ كانت (عبير) وخالتي في «دباب»، كان ذلك الزمن مطلب أمي حجًّا، واليوم صار حجًّا وحاجة، في ظل معاناة عائلة خالتي (سميحة) التي فقدت زوجها ومعيل عائلتها في تلك الحرب المجنونة، واليوم كذلك صار ذلك مطلبًا ملحًّا وأولها لتلك الاعتبارات، وربما اعتقدت امي ان اكون جزءا ضئيلا من الحل، فلم أخيب ظنها بي هذه المرة، ووافقت، وانتهت العائلتان وسريعًا وعلى كل المستويات من هذا الأمر، وعودتي وزيارتي إلى جيبوتي في إطار ذلك البرنامج الأسري الذي وافقتُ عليه بعد ترددٍ في البدايات، وحسمت أمري ووافقت عليه في النهاية، ودون معرفة الشريك عن قرب.. توكلت على الله واعتمدت على أمي وأختي، وكانت خيباتي المتعددة وفراغي العاطفي اليوم سببًا آخر في وقوعي بهذه الطريقة التقليدية التي كنت أمقتها في زمن ما..

وعدت من المهجر حيث أقيم إلى مسقط رأسي، محملًا برفاقي الأوجاع والنكسات، أحملهم من محطة إلى أخرى من محطات حياتنا البائسة، ومن مكان إلى مكان آخر، يحمل نفس العقاب والرفض، ومن زمان إلى آخر جديد وغامض أيضًا، حملوا جميعهم هزائم عشقنا واختفاء أحلامنا، بداية من (عائشة) ووطننا الأول، وانتهاءً بـ(إستير) ووطننا الخلفي والأصلي..

فصارت كل هذه الأمور جزءًا مني، ويضيفون في كل مرة إلى أنفسهم أوجاع، وخيبات، ونكسات، وهزائم أخرى جديدة..

لِمَ الأوطان تلفظنا

وترفضنا

وتقسمنا إلى أشطار

إلي أضلاع

إلي أشلاء

تصفي شطرنا الأول

و تقصي ضلعنا الآخر

بلا سبب بلا ذنب

لماذا كل هذا الضيم

والإجحاف

لم الحرمان .. لماذا القهر

يقتلنا

لِمَ الأوطان تلفظنا .. وترفضنا

لم تبقين رهين الظلم والأوباش

لماذا ينبت الأعداء

من ضلعك وأحشائك

لماذا تمنحين البعض.. حقوقًا

عاش صاحبه بلا مأوى

حقوقًا

مات مالكه بلا أمل يناجيه

أيا وطني

فمن نبكي ومن نشكوا؟

فأنت الجاني والمجني

فأنت السيف والأعناق

لمن نشكوا؟

فأنت.. أنا

طموحاتي وأحلامي

وآمال العريضات...

أنا... أنت

وأوجاعي، وألامي، وحرماني....

اقترب عامي الثالث على الانتهاء في المهجر، والصيف بدأ في «ميلبورن» ونحن في نهاية شهر نوفمبر، وأستعد هذه الصائفة للعودة إلى وطني مسقط رأسي.. ودعت صديقي (قعص) وصديقي (ماجد)، وهيأت نفسي للسفر، وحزمت حقائبي له، وقررت قضائي إجازتي هذه السنة في بلدي الأول مكرر جيبوتي.

عدت إلى وطني مسقط رأسي في 3 من ديسمبر 2018 وبعد عشر سنوات من غيابي عنها، وبعد ثلاثة أسابيع من وصولي إلى جيبوتي جاء دور (سنايت) في لعبة الفرار، والفقد، والاختفاء، اختارها القدر واخترنا فيها، كان في البداية فراقنا و(سنايت) لحظيًّا وتحول اليوم إلى رحيل بلا عودة.

(سنايت) بعد خروجها من السجن وعودتها الأخيرة إلى «طيعو» كانت تتردد كثيرًا على مستشفى المدينة، فكان المستشفى الوحيد

واليتيم بمدينة «طيعو» يعاني هو الآخر وصيدليته مرضًا مزمنًا، وحالةً بائسة، وشحًّا وافتقارًا للأدوية.

لم يبقَ ويتبقَ في صيدلية المستشفى سوى حبوب «تتراس أيكلين» أو مضادات حيوية وقليل من أكياس الجلوكوز.

كانت (سنايت) تعاني من مرض السكر منذ ما يزيد من خمسة عشر عامًا، واليوم أُضيف إليها مرض انسداد شرايين القلب، ولا أدوية في ذلك المستشفى تفي بغرضها وبغرض مرضى «طيعو» الذين يعودون هذا المستشفى يوميًا رغم علمهم أنها لا تغني ولا تشفع من شيء، لكنهم يأملون ويؤملون أنفسهم فلعل وعسى!

وعلى قول: «الغرقان يتعلق بالقشة»، والبعض منهم يسافر إلى مدينتي «عصب»، و«مصوع»، وحتى للعاصمة «أسمرة»، فكانت حالة نقص الأدوية هي حالة وطنية مشتركة، ولذا يسافرون أو يسفرون بعض المرضى في «طيعو» إلى «بر العرب»، وإلى مدينة «الحديدة» ليتلقوا العلاج في مسشفيات وعيادات مدن «بر العرب».

وفور وصولي إلى جيبوتي اتفقت «سميرة» معنا في كيفية إخراج (سنايت) من البلاد.. كانت (سميرة) تفكر، بل وقررت إرسال والدتها إلى إمارة دبي للعلاج، وتواصلنا أنا و(سميرة) في الداخل مع أهلها ومع (محمد رمضان) المسئول الأمني بـ«طيعو».

تسارعت الأحداث، وساءت حالتها كثيرًا، ونقلت ليلًا بسيارة (رمضان) إلى «مصوع» وفي مستشفى «مصوع»، وفي صبيحة تلك الليلة توقفت رحلة حياتها وانتهى مشوارها.. رحلت (سنايت)، وسحبت معها بقايا الوطن، وأنصاف كل الأشياء الجميلة فيه، فرحلت نصف وردة، ونصف جنة، ونصف قصيدة، ونصف شمعة، برحيلها رحل الوطن عن الوطن..

رحلت وتركت كل فناجيننا وفنجان الوطن مقلوبًا للأسفل.. بنهايتها كذلك انتهت رحلة الفناجين وقصتها وأحلامنا.. ورحلت (سنايت) بكل فناجيننا وأحلامنا، وأحلامها إلى عالم الخلود..

أمَّا رحلة ضياعنا، وغموضنا، وتشتتنا، وفصول حرماننا، والوطن فمستمرٌ وإلى أجلٍ غير مسمى، لذا لا تزال فناجيننا مقلوبة، ووجهتنا مجهولة ولا يستطيع كذلك أن يتنبأ بحالتنا، لا محلل، لا منجم، ولا عراف..

لملمت

الكاتب في سطور

- محمود شامي عبدالقادر.
- جيبوتي الجنسية، إريتري المولد، ولد في الأول من أغسطس عام 1974 م.
- احتضن اليمن السعيد فترة مهمة من حياة الكاتب وعاش فيه من عام 1980 إلى عام 1993، ودرس فيه تعليمه الأساسي والثانوي.
- خريج الهندسة المدنية تخصص طرق ومنشآت فنية من جامعة العلوم والتكنولوجيا وهران- الجزائر دفعة عام 2004.
- موظف وكادر وطني جيبوتي منذ العام 2006 ومهندس في الوكالة الجيبوتية للطرق ADR
- عمل مهندسًا مشرفًا على مشروع الطريق الوطني الرابط بين مدينتي تاجورا وابخ شمال جيبوتي، من أكتوبر عام 2006 إلى أكتوبر 2009
- مهندس معار من وكالة الطرق الجيبوتية ADR إلى المؤسسة الوطنية للسكك الحديد SDCF منذ سبتمبر 2013 إلى ديسمبر

2018 كمشرف عام على مشروع إنشاء خط سكة حديد لقطار كهربائي يربط بين العاصمتين جيبوتي وأديس أبابا. وعضو في الجنة التقنية الجيبوتية الأثيوبية المشتركة لذات المشروع. وعمل في مشاريع أخرى في مجال عمله وتخصصه.

- هذا الكتاب الروائي المعنون بـ «وثالثهما الفنجان» يعتبر عملًا روائيًا ثانيًا له، بعد روايته المعنونة بـ «9 مارس»، الصادرة في شهر مارس 2019 من مؤسسة الأبرار للطباعة والنشر صنعاء الجمهورية اليمنية.

المحتويات

الإهداء 5

الفصل الأول: عبق الأمكنة 7

الفصل الثاني: أجراس الحنين 33

الفصل الثالث: حوار بين فناجين 51

الفصل الرابع: تقاليد تقتل ملكا 69

الفصل الخامس: أنيسة ام خرافة 93

الفصل السادس: تراتيل الألم 113

الفصل السابع: رحيل إجباري 136

الفصل الثامن: قيثارة الشتات 170

الفصل التاسع: اشتباك الهويات 190

الفصل العاشر: سنفونية الخلود 210

الفصل الحادي عشر: ملاذ الأجسام 232

الكاتب في سطور 267